

Sherlock Holmes
شيرلوك هولمز
آرثر كونان دويل
ARTHUR CONAN DOYLE
وادي الذعر
عصير الكتب


وادي الذعر


عصير الكتب
للنشر و التوزيع



إدارة التوزيع

00201150636428

لمراسلة الدار:

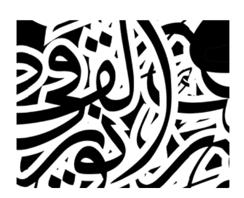
email:P.bookjuice@yahoo.com

Web-site: www.aseeralkotb.com

- الطبعة الأولى: مايو 2021م
- رقم الإيداع: 2021/7861م
- الترقيم الدولي: 978-977-85876-4-7
- تنسيق داخلي: معتز حسنين علي

- العنوان: وادي الذعر
- ترجمة: سليمان ع. يوسف
- تحرير: أحمد القرملاوي
- تدقيق لغوي: عماد غزير

الآراء الواردة في هذا الكتاب تُعبر عن وجهة نظر الكاتب
ولا تُعبر بالضرورة عن وجهة نظر الدار






Sherlock Holmes
شيرلوك هولمز
آرثر كونان دويل
ARTHUR CONAN DOYLE


وادي الذعر


عصير الكتب
للنشر و التوزيع

الجزء الأول

مأساة بِرلستون

الفصل الأول

تحذير

كنتُ أقول: «إنّي أميل إلى الاعتقاد أن...».

فعقّب شيرلوك هولمز بصبر يكاد ينفَد: «عليّ أن أفعل ذلك».

أعتقد أنني واحد من أطول الناس بالًا، لكنني سأعترف بأن هذه المقاطعة الهازئة قد أزعجتني.

فقلتُ بقسوة: «صدقًا يا هولمز؛ أنت مزعج قليلًا في بعض الأوقات».

كان مستغرقًا في أفكاره لدرجة منعتْه من أن يردّ مباشرة على احتجاجي، واتّكأ على يدِه وفطوره الذي لم يذُقه ممدودٌ أمامه، وحدق إلى وُريقة كان قد سحبها من مظروفها للتوّ، ثم رفع المظروف نفسه قبالة الضوء، وراح يدرسُ بدقة شديدة كلًّا من الغلاف الخارجي والورقة الداخلية.

وقال بتفكُّر: «إنّه خطّ بورلوك، ولا أكاد أشكّ في أنه خطّه رغم أني لم أرَه إلا مرتين من قبل، فحرفُ الإي الإغريقي بزخرفته العُلوية الفريدة علامةٌ فارقة، لكن إن كان المرسلُ بورلوك فعلًا، فلا بدّ أنه أمرٌ ذو أهمية قصوى».

كان يحادث نفسه بدلًا من محادثتي؛ لكن انزعاجي ذابَ في تشويق كلماته.

فسألته: «من يكون بورلوك إذًا؟»

– بورلوك اسمٌ مستعارٌ يا واتسون، مجرد علامة تعريف؛ لكنَّ شخصية ماكرة ومراوغة تقبع خلفه. لقد أعلمَني صراحةً في رسالة سابقة أن الاسم ليس اسمه الحقيقي، وتحداني أن أتعقبه أبدًا بين الملايين الغفيرة في هذه المدينة العظيمة. بورلوك ليس مهمًّا في حد ذاته، بل بسبب الرجل الجليل الذي يرتبط به، تصوّر نفسك سمكة الزامورِ المصاحبةَ لسمكة قرش، أو الثعلب في قصة الثعلب والأسد، أو أي شيء تافه مرافق لشيء جبار، وليس جبارًا وحسب يا واتسون، بل خبيثًا أيضًا، وفي أعلى درجات الخُبث. هذه مكانته في رأيي، ألم تسمعني أتكلم عن البروفيسور موريارتي؟

– العالِم المجرم ذائع الصيت، الشهير بين المحتالين بقدر...

«وا خجلتاه يا واتسون!»، تمتمَ هولمز بصوت مُستنكِر.

«كنتُ على وشك القول: بقدر ما هو مجهول بين العامة».

صاح هولمز: «إنها للمسةٌ مميزة! وإنك تطور حس دعابة فجائيًّا ماكرًا عليّ أن أتعلم كيف أقي نفسي منه يا واتسون، لكن في إطلاقك صفة المجرم على موريارتي اقترافٌ لجرم القدح في عيني القانون، وهُنا تكمن عظمة الأمر وعجائبيته! فهذا الرجل أعظم مدبر مكائد على مر الأزمان، ومنظم كل شيطنة، والعقل المتحكم في العالم السفلي؛ أي إنه عقلٌ ربما صنع أو أفسد مصائر أممٍ بأكملها! لكنه بمعزلٍ بعيدٍ عن الشبهة العامة، ومنيعٌ للغاية ضد النقد، ومثير للإعجاب في تدبيره وعمله في الخفاء لدرجة أنه قادر على أن يجرجرك إلى المحكمة بسبب هذه الكلمات التي تفوهتَ بها، ويخرج حاصلًا على راتبك التقاعدي عن عام كامل تعويضًا لسمعته الجريحة. أليس المؤلفَ المعروف لكتاب ديناميكا الكويكب، وهو كتاب يرتقي إلى مستويات شاهقة من الرياضيات البحتة حتى قيل أن لا رجل في الصحافة العلمية قادر على نقده؟ أهذا رجل ينبغي التشهير به؟ ستصير معروفًا في المجتمع بالطبيب بذيء اللسان والأستاذ المفتري! هذا عبقريٌّ يا واتسون. لكن وإنْ كنتُ قد نجوتُ من رجال أقل شأنًا، فإن يومنا قادم لا محالة.

هتفتُ بإخلاص: «عساني أكون موجودًا لأشهده! لكنك كنت تتكلم عن هذا الرجل بورلوك».

– آه، نعم، إن المدعو بورلوك حلقةٌ تبتعد قليلًا عن رأس السلسلة العظيم، وليس حلقة قوية تمامًا –فيما بيننا–، إنما هو العيب الوحيد الذي وجدته في تلك السلسلة بحسبما استطعتُ اختبارها حتى الآن.

– لكن قوة السلسلة تتحددُ بقوة أضعف حلقاتها.

– بالضبط يا عزيزي واتسون! ومن هنا تنبعُ أهمية بورلوك، فقد منحني مرةً أو مرتين مدفوعًا ببعض الطموحات البدائية للتفوّق، ويشجعه تحريض مدروس تثيره ورقة عشرة جنيهات تصله بطرق ملتوية بين الحين والآخر، معلومات متقدمة قيمة جدًّا لدرجة أن من شأنها اعتراض الجرائم ومنعها بدلًا عن الثأر لها، ولا أشك في أننا لو توصلنا إلى حل الشيفرة لوجدنا أن هذه المراسلة من نفس طبيعة المراسلات التي أشير إليها.

فرَدَ هولمز الورقة مجددًا على الصحن النظيف أمامه، فنهضتُ وانحنيتُ فوقه، وأخذت أحدّق إلى الكتابة الغريبة التي كانت على الشكل التالي:

534 سي2 13 127 36 31 4 17 21 41

دوغلاس 109 293 5 37 بِرلستون

26 بِرلستون 9 47 171

– ماذا تفهم منها يا هولمز؟

– من الواضح أنها محاولة لإيصال معلومات سرية.

– لكن ما نفع رسالة مشفّرة دون معرفة الشيفرة؟

– في هذه الحالة لا نفعَ على الإطلاق.

– لمَ تقول «في هذه الحالة»؟

– لأن ثمة العديد من الشيفرات التي كنتُ لأقرأها بسهولة قراءتي أبوكريفا أعمدة الآلام: فأدوات بسيطة كهذه تُسلّي العقل دون إنهاكه، لكن هذه مختلفة، ومن الواضح أنها إشارة إلى كلمات في صفحة من كتاب ما، وإني عاجزٌ ما دُمت لستُ أعرف أي صفحة وأي كتاب.

– لكن لم استخدمَ كلمتي «دوغلاس» و «بِرلستون»؟

– لأنهما بكل وضوح كلمتان غير موجودتين في الصفحة التي نتكلم عنها.

– إذًا لمَ لم يُشر للكتاب؟

– لأن فطنتك الفطرية يا عزيزي واتسون، ذاك الدهاء المتأصل فيك والذي هو بهجة أصدقائك، ليمنعك بكل تأكيد عن إدراج الشيفرة والرسالة في الظرفِ نفسه، فما أن تفشل الرسالة في بلوغ وجهتها حتى ينتهي أمرك، أما على هذه الحال، فعلى الاثنتين أن تفشلا قبل أن يصيبك أي مكروه بسببهما. ما زالت مراسلتنا الثانية متأخرة حتى الآن، وسأتفاجأ إذا لم ترفدنا إما برسالة شرح، أو بالكتاب عينه الذي تشير إليه هذه الأرقام، وهوَ الخيار الأكثر رجحانًا.

تحقق تقدير هولمز خلال بضع الدقائق التالية مباشرة مع ظهور الخادم بيلي، حاملًا الرسالة التي كان يترقبها بعينها.

فعقّب هولمز وهو يفتح الظرف: «نفسُ الخط»، ثم أضاف بينما فضّ الرسالة: «وهيَ موقّعة بالفعل، تعال، إننا نقترب يا واتسون»، واكفهرّت جبهته برغم ذلك حين نظر في مضمونها.

«يا إلهي، هذا مخيّب للآمال أشد ما يكون! أخشى أن كل توقعاتنا خلُصت إلى لا شيء يا واتسون، وأثق أنْ لا أذى سيصيب المدعو بورلوك.

[يقول] عزيزي السيد هولمز:

لن أمضي أكثر في هذه المسألة، إنها خطرة جدًّا وهو يشكّ بي، يمكنني رؤية شكه فيّ، فقد جاءني بغتة بعد أن انتهيت بالفعل من توجيه هذا

المظروف معتزمًا إرسال مفتاح الشيفرة لك، وتمكنتُ من إخفائه، ولو أنه رآه لكان مصيري عسيرًا، لكنني قرأت الشك في عينيه. أرجو منك إحراق الرسالة المشفرة، التي أضحت غير نافعة لك الآن.

ـــــــــــ فريد بورلوك».

جلس هولمز بعض الوقت يطوي الرسالة بين أصابعه ويحدّق إلى النار بعُبوس.

وقال أخيرًا: «قد يكون الأمر وهمًا رغم كل شيء، ولعله نابع من ضميره المُذنِب وحسب. ربما رأى نظرات الاتهام في عيني الآخر لأنه يعرف نفسه خائنًا».

– وأفترضُ أن الآخر هو البروفيسور موريارتي.

– بجلالة قدره! يمكنك معرفة مَن المقصود عندما يتكلم أي فرد من تلك الجماعة عن «هو»، فثمة «هو» واحدٌ مسيطر عليهم جميعًا.

– لكن ماذا يمكنه أن يفعل؟

– همم! هذا سؤال واسع، فالاحتمالات لا متناهية حينما تكون وجهًا لوجه مع واحد من ألمع عقول أوروبا وكل قوى الظلام تسانده. على أي حال، صديقنا بورلوك مذعورٌ حد الجنون، ويمكنكَ رؤية ذلك لو تلطفتَ وقارنتَ الكتابة في الخطاب مع الكتابة على ظرفه؛ والتي تمّت –بحسب قوله– قبل هذه الزيارة المشؤومة، فالأولى واضحة ورصينة، والثانية بالكاد تُقرأ.

قلتُ بعد أن التقطتُ رسالة الشيفرة الأصلية وتمعّنت فيها: «من دون شك، بالطبع. من المثير للسخط التفكيرُ في أن سرًّا مهمًّا يقبع في هذه الوريقة، وأن القدرة البشرية عاجزة عن اختراقه».

كان هولمز قد دفع فطوره الذي لم يتذوقه بعيدًا عنه، وأشعل غليونه البغيض الذي كان رفيق أعمق تأملاته، وقال بينما يتراجع في جلسته ويحدق إلى السقف: «إنني أتساءل، هل يا تُرى ثمة نقاط قد أغفلها عقلُك المكيافلّي؟ فلنفكّر في القضية في ضوء المنطق البحت: هذا الرجل يشيرُ إلى كتاب ما، وهذه نقطة انطلاقنا».

– إنها نقطة مُبهمة بعض الشيء.

– إذًا لنرَ ما إذا كان بوسعنا حَصرها، فقد صارت تبدو أقل غموضًا بعد أن ركّزتُ تفكيري عليها. ما الدلالات التي لدينا على هذا الكتاب؟

– لا شيء.

– حسنًا حسنًا، ليس الوضع بهذا السوء بالتأكيد. تبدأ الرسالة المشفرة برقم كبير هو 534، أليس كذلك؟ يمكننا اعتبار كَون 534 رقمَ الصفحة المحددة التي تشير إليها الشيفرة فرضيةً فاعلة، فيصير كتابنا كتابًا ضخمًا، وهذا تقدم أحرزناه بالطبع. أي مؤشرات أخرى لدينا فيما يتعلق بطبيعة هذا الكتاب الضخم؟ الرمز التالي هو سي2، ماذا تفهم من ذلك يا واتسون؟

– الفصل الثاني، دون شك.

– من غير المحتمل أن يكون هذا يا واتسون، وأجزم أنك ستتفق معي في أنه ما إذا كانت الصفحة مُعطاة، فرقم الفقرة غير مهم، وأيضًا، إذا ما كنا قد بلغنا الصفحة 534 وما زلنا في الفصل الثاني فقط، فلا بدّ أن طول الفصل الأول كان مفرطًا حقًّا.

فصحتُ: «العمود!».

– رائع يا واتسون، إنك تتألق هذا الصباح، وإذا لم يكن العمود هو المقصود فقد تعرضتُ لتضليل شديدٍ بحق. والآن كما ترى، بدأنا نتصور كتابًا مطبوعًا في أعمدة مزدوجة بالغة الطول، بما أن إحدى الكلمات مرقمة في المستند باعتبارها رقم مئتين وثلاثة وتسعين، فهل بلغنا حدود ما يمكن للمنطق مدّنا به؟

– أخشى أننا قد فعلنا.

– أنت تظلم نفسك بالتأكيد، إذ ثمة ومضة ذهنية إضافية يا عزيزي واتسون، وهي مع ذلك فكرة رائعة! فلو أن الكتاب نادر لأرسله لي، لكنه بدلًا من ذلك، كان ينوي إرسال الدليل لي في هذا الظرف قبل أن تُجهض خططه، وهو يقول هذا في خطابه. يبدو أن هذا يدل إلى كونه كتابًا اعتقدَ أنني لن أواجه مشقة في اكتشافه بنفسي، فهو يمتلكه، وقد تصوّر أنني أمتلكه أيضًا. جُملة القول إنه كتاب شائع جدًّا يا واتسون.

– يبدو ما تقوله منطقيًّا بالطبع.

– إذًا فقد حصرنا مجال بحثنا في كتاب ضخم، مطبوع في أعمدة مزدوجة وشائع الاستخدام.

فهتفتُ بانتصار: «الكتاب المقدس!»

– جيد يا واتسون، جيد! لكن ليس جيدًا بما يكفي إذا كان لي أن أقول ذلك! فحتى لو قبلتُ على نفسي إطراء الاعتقاد بأنني أملك نسخة عن الكتاب المقدس، بالكاد يمكنني تسمية أي كتاب ذي احتمال أقل منه ليكون قريبًا من أحد أتباع موريارتي، إلى جانب أن إصدارات الكتاب المقدس كثيرة جدًّا لدرجة تمنعه من افتراض وجود نسختين

تحملان ترقيم الصفحات نفسه. من الواضح أنه كتاب موَحَّد، وهو متأكد من أن الصفحة 534 عنده مطابقة للصفحة 534 عندي.

– لكن الكتب التي تتوافق مع ذلك قلة قليلة.

– بالضبط، وفي ذلك النطاق يكمنُ خلاصنا. لقد ضاقت حدود بحثنا إلى الكتب الموحَّدة التي قد يُفترض أن يحوزها أي كان.

– دليل برادشو!

– ثمة عراقيل في هذا يا واتسون، فمفردات دليل برادشو متّقدة وموجزة، لكنها محدودة، وبالكاد تُفيد مجموعة الكلمات خاصته في إرسال رسالة عامة. سنستثني برادشو، وأخشى أن القاموس مرفوض للسبب نفسه، فماذا يبقى إذًا؟

– رُزنامة!

«ممتاز يا واتسون! وسأكون مخطئًا جدًّا إن لم تكُن قد أصبتَ كبدَ الحقيقة. رزنامة! دعنا نتأمل أحقية رزنامة ويتاكر، فهي شائعة الاستخدام، وتحتوي على عدد الصفحات المطلوب، ومكتوبة في أعمدة مزدوجة. مع أنها متحفظة في مفرداتها الأولى، لكنها تصير ثرثارة بعض الشيء مع اقتراب نهايتها إذا ما كانت ذاكرتي سليمة»، والتقط المجلّد عن مكتبه، «ها هي الصفحة 534، العمود الثاني، فيه مقطع يتناول تجارة الهند البريطانية ومواردها كما أستشفّ. دوِّن الكلمات بسرعة يا واتسون! الرقم ثلاثة عشر هي كلمة «ماهراتا»، وأخشى أنها ليست بداية مبشّرة جدًّا، والرقم مئة وسبعة وعشرون هي «حكومة»؛ والتي تبدو معقولة على الأقل، رغم كونها في غير محلها بالنسبة لنا وللبروفيسور موريارتي، والآن دعنا نحاول مجددًا، ما الذي تفعله حكومة ماهراتا؟ وا حسرتاه! الكلمة التالية هي «شعر الخنزير الخشن». لقد فُضَّت محاولتنا أيها الطيب واتسون! انتهى الأمر!».

قال ما قاله في مسحة دعابة، لكن اختلاج حاجبيه الكثّين دلّ على خيبة أمله وتضايقه، فجلستُ مستاءً مغلوبًا على أمري أحدق إلى الموقد، ثم كسر الصمت الطويل هتاف هولمز، الذي اندفع إلى خزانة جدارية وخرج منها ممسكًا بمجلد ثانٍ أصفر اللون بيده.

وصاح: «إننا ندفع ثمن كوننا مُجدِّدَين جدًّا يا واتسون. نحن سابقان أواننا، ونقاسي العقوبات المعتادة، فقد استقررنا تمامًا على الرُّزنامة الجديدة لكوننا في السابع من يناير، وهو أكثر من محتملٍ أن بورلوك قد أخذ رسالته من القديمة، ولا شك في أنه كان سيخبرنا بهذا لو كُتبت رسالة تفسيره. دعنا الآن نرى ما بجعبة الصفحة 534 لنا: الرقم ثلاثة عشر هي كلمة «يوجد»، وهي بداية واعدة أكثر بكثير، والرقم مئة وسبعة

وعشرون كلمة «هناك»، أي «يوجد هناك»، كانت عينا هولمز تلتمعان حماسة، وأصابعه النحيلة المتوترة ترتعش وهو يعدّ الكلمات، «خطر»، ها! ها! هذا أمر جلل! دوِّن هذا ياواتسون: «يوجد – هناك – خطر – قد – ينجم – خطر – قريب – جدًّا»، ثم لدينا كلمة «دوغلاس» ثم ريف – ثري – الآن – في – منزل – بِرلستون – ثقة – بِرلستون – عاجل». هاك يا واتسون! ما رأيك في المنطق البَحت وثمرته؟ لو كان لدى البقال شيء ما من قبيل إكليل الغار، لأرسلتُ بيلي ليجلبه».

كنتُ أحدق إلى الرسالة الغريبة التي خربشتُها على ورقة فولسكاب فوق رُكبتي، بعد أن حلَّ رموز شيفرتها.

وقلت: «يا لها من طريقة مُريبة ومشوِّشة للتعبير عن مقصده!»

فقال هولمز: «بالعكس، لقد أنجز عملًا جيدًا على نحو بارز تمامًا، فمن غير المحتمل أن تجد كل ما تريده عندما تبحث في عمود واحد عن كلمات تعبر بها عن قصدك، وتكون ملزمًا بترك شيء ما لذكاء مَن تُراسله. المغزى واضح تمامًا، وإن عملًا شيطانيًّا ما مُعتزمٌ ضد شخص اسمه دوغلاس، كائنًا من كان، ويقيم في الريف كما ذُكر: رجل محترم ريفي ثريّ. هو متأكد -إذ إن كلمة «ثقة» هي أقرب ما استطاع إيجاده إلى كلمة «واثق»- من أن الأمر عاجل. ها هيَ نتيجتنا، ويا له من بعض التحليل المتفوّق هذا الذي قمنا به!»

كان هولمز يعيش الغبطة المجرّدة لفنان حقيقي في أفضل أعماله، حتى حينما تحسّر أشد الحسرة وقتما لم يبلغ عمله الرفعة التي كان يطمح إليها. كان ما يزال يقهقه فرحًا بنجاحه وقتما فتح بيلي الباب ودخل المفتش ماكدونالد من قسم سكوتلاند يارد الغرفة.

كانت تلك الأيام الأولى من أواخر ثمانينيات القرن التاسع عشر، حينما كان أليك ماكدونالد ما يزال بعيدًا عن تحقيق الشهرة الوطنية التي قد اكتسبها الآن. كان عنصرًا شابًّا مؤتمنًا من عناصر قوة المباحث لمع نجمه في عدة قضايا كُلف بها. كان جسده الطويل ناتئ العظام يبشّر بقوة بدنية استثنائية، بينما لم تكن دلالة جمجمته الكبيرة وعينيه الغائرتين البصّاصتين على ذكائه الحاد الذي يتلألأ من خلف حاجبيه الكثيفين أقل وضوحًا، وكان رجلًا صموتًا دقيقًا ذا طبيعة قاسية ولكنة أبردينية ثقيلة.

كان هولمز قد ساعده بالفعل على تحقيق النجاح المهنيّ مرتين، اقتصرت جائزته فيهما على المتعة الفكرية لحل المشكلة، ولهذا السبب تعزز حب الأسكتلندي لزميله الهاوي واحترامه له، وأظهر ذلك علانية باستشارته هولمز عند كل أزمة. لا تعرف العاديّةُ شيئًا فوق العاديّة؛ لكن الموهبة تتعرّف إلى العبقرية مباشرة، وكان ماكدونالد يتمتع بقدر من الموهبة في مهنته يكفيه ليدرك أن لا مهانة في طلب المساعدة من شخص

كان منقطع النظير في أوروبا بالفعل بمواهبه وخبرته. لم يكن هولمز ميالًا إلى الصداقة، لكنه كان رحب الصدر مع الأسكتلندي الضخم وابتسم لمرآه.

وقال: «إنك طائر مبكر يا سيد ماك، وأتمنى لك التوفيق في إمساك دودتك. أخشى أن ذلك يعني وجود أذى ما يجري الآن».

أجاب المفتش بابتسامة خبير: «أعتقد أنك لو قلتَ «آملُ» بدلًا عن «أخشى»، لكان قولكَ أقرب إلى الحقيقة يا سيد هولمز. حسنًا، ربما تُبعِد رشفةٌ صغيرة بردَ الصباح القارس. لا، لن أدخن، أشكرك. عليّ المضي قدمًا في طريقي؛ فالساعات الأولى لقضية ما هي أثمن ساعاتها، وأنت أكثر الرجال علمًا بهذا. لكن… لكن…»

توقف المفتش فجأة، وراح يحدق بنظرة ذهول خالص إلى الورقة الموضوعة على الطاولة، وهي الصفحة التي خربشتُ عليها الرسالة اللُّغز.

وقال متلعثمًا: «دوغلاس! بِرلستون! ما هذا يا سيد هولمز؟ إنها لشعوذة يا رجل! من أين جئت بهذين الاسمين بحق كل ما هو عجيب؟»

«إنها شيفرة عملتُ والدكتور واتسون على حلها، لكن لمَ، ما خطب الاسمين؟»

نقّل المفتش نظره بيننا في حيرة، وقال: «الأمر فقط أن السيد دوغلاس المقيم في قصر بِرلستون قد قُتل قتلةً مروّعة في الليلة الماضية!»

الفصل الثاني

حوارات شيرلوك هولمز

كانت واحدة من تلك اللحظات الدرامية التي خُلق صديقي لأجلها، وسيكون في الأمر مبالغة لو قلتُ إن هذا الخبر الشادِه قد صدمه أو أربكه حتى. كان قاسي القلب من غير ريب بسبب فرط الإثارة المديد، رغم غياب أي مسحة قسوة عن تركيبته الفريدة، بيد أن تصوراته الفكرية كانت نشطة أشد نشاطها وإنْ كانت مشاعره متبلدة. لم يكن ثمة أثر آنذاك للرعب الذي شعرته بنفسي بعد هذا البلاغ الجلِف؛ بل أبدى وجهه بدلًا عن ذلك الثبات الهادئ والمشغوف لكيميائي يرى البلورات تصطف في أماكنها في محلوله فائق التشبع.

وقال: «رائع! رائع!».

– لا تبدو متفاجئًا.

– مهتمّ يا سيد ماك، لكنني بالكاد متفاجئ، ولمَ أتفاجأ؟ فقد تلقيت خطابًا من جهة أعرف أنها مهمة، ينبهني من أن خطرًا يتهدّد شخصًا معينًا، وخلال ساعة عرفت أن هذا الخطر قد صار ناجزًا وأن ذاك الشخص مات. أنا مهتم أجل؛ لكن وكما تلاحظ، لست متفاجئًا.

شرح للمفتش ببضعة جملٍ مقتضبة الحقائق المتعلقة بالرسالة والشيفرة، فجلس ماكدونالد مسندًا ذقنه على يديه وحاجباه الرمليان الضخمان مجتمعان في كتلة متشابكة صفراء.

وقال: «كنت متجهًا إلى بِرلستون هذا الصباح، وجئت أسألك إذا ما كنت ترغب في الذهاب معي، أنت وصديقك هذا، لكن استنادًا إلى ما تقولُه فربما سنقوم بعمل أفضل هنا في لندن».

فقال هولمز: «لا أعتقد ذلك».

صاح المفتش: «دعك من ذلك يا سيد هولمز! ستمتلئ الصحف أنباءً عن لغز بِرلستون خلال يوم أو اثنين؛ لكن أين اللغز إذا كان ثمة رجل في لندن قد تنبأ بالجريمة قبل وقوعها؟ علينا القبض على الرجل فقط، وستأتي البقية بعد ذلك».

– من غير ريب يا سيد ماك، لكن كيف تعتزم القبض على المدعوّ بورلوك؟

قلبَ ماكدونالد الرسالة التي ناوله إياها هولمز: «مُرسلة من كامبرويل، وهذا لا يساعد كثيرًا، والاسم زائف كما تقول. لا نملك ما يكفي للتقدّم بالتأكيد. ألم تقُل إنك قد أرسلتَ له مالًا؟»

– مرّتين.

– وكيف؟

– بإرسال أوراق نقدية إلى مركز بريد كامبرويل.

– هل تكبدتَ عناء التحرّي عن مستلمها قط؟

– لا.

بدا المفتّش متفاجئًا ومصدومًا بعض الشيء: «لمَ لا؟»

– لأنني أفي بوعدي دائمًا، وقد وعدته وقتما راسلني أول مرة أنني لن أحاول تعقبه.

– أتعتقد أن ثمة شخصًا ما خلفه؟

– بل أعرف أن شخصًا ما خلفه.

– البروفيسور الذي سمعتكَ تذكره؟

– بالضبط!

ابتسم المفتش ماكدونالد، وارتعش جفنه عندما نظر تجاهي. «لا أخفي عنك يا سيد هولمز، نحن في قسم تحري الجرائم نعتقد أنك مهووس بعض الشيء بهذا البروفيسور، وقد أجريت بعض التحقيقات حول المسألة بنفسي. يبدو رجلًا محترمًا ومتعلمًا وموهوبًا جدًّا».

– يسعدني أنك بلغتَ حدّ الاعتراف بموهبته.

– لا يمكنك ألّا تعترف بها يا رجل! فبعدما سمعتُ رأيكَ جعلتُ مقابلته هدفًا لي، وحظيتُ بدردشة معه حول الكسوف، لستُ أدري كيف دار الحديث في ذاك المنحى؛ لكنه أبرز فانوسًا عاكسًا ومجسمًا للكرة الأرضية، وأوضح الأمر بأكمله في دقيقة. أعارني كتابًا، ولا أمانع القول إنه كان أعلى من مستواي الذهني قليلًا، رغم أني نُشّئتُ تنشئةً أبردينية حسنة. كان ليغدو رجل دين جليلًا بوجهه النحيل وشعره الرماديّ ومشيته الوقور، وحينما أرخى يده على كتفي وقت فراقنا، كان الأمر أشبه بمباركة أبيك قبل أن تخرجَ إلى العالم البارد الموحش.

قهقه هولمز وفرَك يديه وقال: «عظيم! عظيم! أخبرني يا صديقي ماكدونالد، أفترض أن تلك المقابلة السارّة والعاطفية كانت في مكتب البروفيسور، صحيح؟»

– بلى، كانت في مكتبه.

– غرفة أنيقة، أليست كذلك؟

– أنيقة جدًّا، وجميلة جدًّا بالفعل يا سيد هولمز.

– جلستَ أمامَ طاولة كتابته؟

– بالضبط.

– والشمس ساطعة على عينيك ووجههُ في الظل؟

– حسنٌ، لقد كان الوقت مساءً؛ لكنني أتذكر أن الفانوس كان موجهًا على وجهي.

– هذا مُتوَقّع، أصادفَ أن لاحظت صورةً معلقة فوق رأس البروفيسور؟

– لا يغيب الكثير عن انتباهي يا سيد هولمز، وربما تعلمتُ ذلك منك. بلى، رأيت صورة لامرأة شابة رأسها مسنودٌ إلى يديها، تنظر إليك نظرة جانبية.

– تلك اللوحة من أعمال جان باتيست غروز.

جاهد المفتش نفسه ليبدو مهتمًّا.

واصل هولمز كلامه وهو يلامس رؤوس أصابعه ببعضها ويتراجع مسترخيًا في كرسيه: «كان جان باتيست غروز فنانًا فرنسيًّا ازدهَرَ عهده بين عامي 1750 و1800 –وأنا أنوّه إلى حياته المهنية بالطبع– بالغَ النقد المعاصر في تصديق التقدير العالي الذي منحه إياه معاصروه».

ظهر الشرود على عيني المفتش وقال: «أليس من الأفضل لنا أن...»

فقاطعه هولمز: «إننا نفعل ذلك، وكل ما أقوله مرتبط ارتباطًا مباشرًا وجوهريًّا بما دعوتَهُ لغز بِرلستون. في الحقيقة، ربما يمكننا أن نقول عنه إلى حد ما إنه لب الموضوع».

ابتسم ماكدونالد ابتسامةً واهية، ونظر إليّ نظرةً متوسّلة: «أفكاركُ تتحركُ أسرع بعض الشيء من استيعابي يا سيد هولمز، إذ تتخطى حلقة أو اثنتين، وتتركني عاجزًا عن تجاوز الثغرة. ماذا –في هذا العالم الشاسع بأسره– يمكن أن يكون الصلة بين هذا الرسام الميت ومسألة بِرلستون؟»

فعقّب هولمز: «تصير كل معرفةٍ مفيدةً في يدي المحقق، حتى إن الحقيقة التافهة القائلة إن لوحةً رسمها غروز عنوانها بالفرنسية الفتاة والحمل قد أحرزت مليونًا ومئتي ألف فرنك –أكثر من أربعين ألف جنيه– في مزاد بورتاليس العلني قد تستهلّ سلسلة أفكار في ذهنك».

كان واضحًا أنها فعلتْ، إذ بدا المفتّش مهتمًّا بحق.

واصلَ هولمز: «اسمح لي أن أذكّرك بإمكانية التحقق من مقدار راتب البروفيسور من عدة كتب مرجعية موثوقة، وهو سبعمئة في العام».

– إذًا أنّى له شراء...

– تمامًا! أنّى له؟

قال المفتّش بتفكُّر: «نعم، هذا لافت للنظر. تابع كلامك يا سيد هولمز، إنني مستمتع به، وإنه بديع!».

ابتسم هولمز الذي دائمًا ما أبهجهُ الإعجاب الصادق، وهيَ سجية الفنان الحقيقي، ثم سأل: «ماذا عن بِرلستون؟»

فقال المفتّش وهو ينظر إلى ساعته: «ما زال لدينا بعض الوقت، فمعي عربة أجرة تنتظر عند الباب، ولن نستغرق عشرين دقيقة حتى نبلغ فيكتوريا، أمّا عن هذه اللوحة يا سيد هولمز: أظنّك أخبرتني مرة أنك لم تلتقِ البروفيسور موريارتي قط».

– لا، لم ألتقه قط.

– إذًا أنّى لك هذه الدرايةُ بغرفته؟

– آه، تلك مسألة أخرى، فقد ذهبتُ ثلاث مراتٍ إلى غرفه، انتظرته في مرتين منها بذرائع مختلفة وغادرتُ قبل أن يأتي، ومرةً ... حسنًا، لا يمكنني إخبار محققٍ رسمي عن هذه المرة، إذ كانت في آخر فرصة سنحت لي للاجتراء على خصوصيته والتفتيش في أوراقه، والتي أسفرت عن نتائج غير متوقعة البتة.

– أوجدتَ شيئًا مشبوهًا؟

– لا شيء إطلاقًا، وهذا ما أذهلني. على كلٍّ، لقد رأيتَ الآن الفكرة من الصورة، إنها تدل على كونه رجلًا ثريًّا جدًّا، فكيف أدركَ الثراء؟ ليسَ متزوجًا، وأخوه الأصغر ناظر محطة في غرب إنجلترا، ومنصبه يُساوي سبعمئة جنيه في العام، ويمتلك لوحة من أعمال غروز.

– إذًا؟

– الاستنتاج بسيط بالتأكيد.

– أتعني أن لديه دخلًا هائلًا وأنه لا بدّ يكسبه بطريقة غير قانونية؟

– تمامًا. لديّ أسباب أخرى تدفعني إلى هذا الاعتقاد بالطبع، كعشرات الخيوط الهزيلة التي تقود على نحو غامض إلى مركز الشبكة حيث يترصّد المخلوق الخبيث الجاثم، ولم أذكر إلا شأن غروز لأنه يُدخل القضية حيّز ملاحظتك.

– حسنًا يا سيد هولمز، أعترف أن ما تقوله مثير للاهتمام، بل أكثر من ذلك، إنه مدهش، لكن دعنا نستوضح الأمر أكثر قليلًا بعد، أهو تزوير؟ طبع نقود؟ سَطو؟ من أين يأتي المال؟

– هل قرأت عن جوناثان وايلد قط؟

– حسنٌ، للاسم وقع مألوف، ألم يكن شخصية في رواية؟ لا أولي محققي الروايات الكثير من الأهمية، أولئك الغلمان الذين يفعلون أشياء ولا يُرونكَ كيف فعلوها أبدًا. إنها فقط للإلهام، وليست مفيدة للمهنة.

– لم يكن جوناثان وايلد محققًا، كما لم يكن في رواية، إنما كان مجرمًا نابغة، وعاش في القرن الماضي، في العام 1750 أو نحوه.

– إذًا لا ينفعني بشيء. أنا رجل عمليّ.

– إن أكثر شيء عمليّ يمكنك فعله في حياتك يا سيد ماك، هو حبس نفسك مدة ثلاثة أشهر تقرأ فيها حوليات الجريمة لاثنتي عشرة ساعة في اليوم. كل شيء يدور في ذات الدوائر، حتى البروفيسور موريارتي. كان جوناثان وايلد القوة الخفية لمجرمي لندن، الذين باع ذكاءه وتدبيره لهم مقابل عمولة قدرها خمسة عشر بالمئة، والآن دارت العجلة القديمة وبرز المحور نفسه، فكل الفِعال قد فُعلت قبلًا، وستُفعل مجددًا. سأخبرك أمرًا أو اثنين عن موريارتي قد يثيران اهتمامك.

– ستثيرُ اهتمامي بما فيه الكفاية.

– صادف أن عرفتُ من هو أول حلقة في سلسلته، سلسلة يقف هذا المجرم النابغة في أحد طرفيها، ومئات من الرجال المحاربين المُحَطمين، والنشالين، والمُبتزّين، والنصابين المحترفين في الطرف الآخر، وكل صنوف الجريمة فيما بينهم. رئيس أركانه هو الكولونيل سيباستيان موران، وهو منعزل ومحمي وبعيد عن أيدي القانون مثله، فكم برأيك يدفع له؟

– أودّ لو أسمع منك.

– ستة آلاف في العام، هذه فاتورة الذكاء كما ترى، وهو مبدأ الأعمال التجارية الأمريكي. عرفتُ هذا التفصيل عن طريق الصدفة نوعًا ما، وهو أكثر مما يحصل عليه رئيس الوزراء، ما يعطيك فكرة عن مكاسب موريارتي وعن السويّة الذي يعمل عليها. ثمة نقطة أخرى: لقد شغلتُ نفسي بتصيّد بعض من شيكات موريارتي مؤخرًا، مجرد شيكات نظيفة اعتيادية يدفع بها فواتير منزله، ووجدتها مسحوبة على ستة بنوك مختلفة. أيثيرُ هذا أيّ فكرة في ذهنك؟

– هذا مُريب بكل تأكيد! لكن ماذا تستخلصُ منه؟

– أنّه لم يُرد إثارة القيل والقال حول ثروته، ولم يرد لأي شخص أن يعرف ماذا يمتلك. ليس لديّ أدنى شكّ في أنه يحوز عشرين حسابًا بنكيًّا؛ وأن معظم ثروته خارج البلاد ربما في بنك دويتشه أو في كريدي ليونيه أو في غيرها. أوصيكَ –حينما يكون لديكَ عامٌ أو اثنان تحتملُ إهدارهما– بدراسة البروفيسور موريارتي.

كان تأثر المفتش ماكدونالد يتزايد باطّراد مع تقدم المحادثة، ونسيَ نفسه تحت تأثير اهتمامه، لكن أعاده فكره الأسكتلندي العمليّ بصورة خاطفة إلى القضية التي يعمل عليها.

وقال: «يمكنه الانتظار بأي حال، لقد حرفْتنا عن مسارنا بنوادرك المشوّقة يا سيد هولمز، وما يُحتسب حقًّا هو ملاحظتك القائلة إن ثمة صلة ما بين البروفيسور والجريمة، وإنك قد توصّلت إلى ذلك عبر التحذير الذي تلقيته من الرجل المدعوّ بورلوك، فهل يمكننا التقدّم أكثر في هذا المنحى بما يخدم حاجاتنا العمليّة الحالية؟»

– قد نتمكن من تشكيل تصوُّرٍ ما فيما يتعلق بدافع الجريمة: إنها، كما أستنتجُ من ملاحظاتك الأوليّة، جريمة قتل متعذرة التفسير، أو على الأقل لم يجرِ تفسيرها. الآن، على فرض أن منبع الجريمة هو ما نشكّ فيه بالفعل، فربما ثمة دافعان مختلفان محتملان. دعني أخبرك في المقام الأول أن موريارتي يحكم أتباعه بالحديد والنار، فنظامه مروّع، ولا يوجد إلا عقوبة واحد في قانونه، هي الموت. الآن يمكننا افتراض أن هذا الرجل المقتول، دوغلاس، – الذي كان دنوّ أجله معروفًا من قِبل أحد أتباع المجرم العتيد –قد خان الرئيس بطريقة أو بأخرى، فنال عقوبته جزاء ما اقترف، وكان على الجميع معرفة ذلك، حتى لو لمجرد بث الخوف من الموت في قلوبهم.

– حسنًا، هذا أحد الاقتراحات يا سيد هولمز.

– الاقتراح الآخر هو أن موريارتي قد دبّر الأمر في معرضِ عمله الاعتيادي، هل صاحبَ الأمر سرقة؟

– لم أسمع بذلك.

– إذا كان الأمر كذا، فهو بالطبع مخالف للفرضية الأولى وموافقٌ للثانية. لعل موريارتي قد انخرط في الأمر وأعدّ له موعودًا بحصة من الغنائم، أو أنه تلقّى أجرًا كبيرًا مقابل إدارته. كلا الاقتراحان ممكن، لكن أيًّا كان منهما، أو حتى إن كان توليفة ثالثة، فعلينا مطاردة الإجابة في بِرلستون. إنني أعرف رجلنا جيدًا جدًّا إلى حد يمنعني من افتراض أنه قد أهمل أي شيءٍ هنا من شأنه أن يقودنا إليه.

هتفَ ماكدونالد قافزًا من كرسيه: «إذًا بِرلستون قصدُنا! يا إلهي! لقد تأخر الوقت أكثر مما حسبتُ، يمكنني منحكما خمس دقائق للتجهّز أيها السادة، لا أكثر من ذلك».

فقال هولمز وهو يثب ويسرع لتغيير لباس نومه وارتداء معطفه: «وهذا أكثر من كافٍ لكلينا، وبينما نحن في طريقنا يا سيد ماك، هلّا تكرمت وأخبرتني كل تفاصيل القصة».

تبيّن أن «كل تفاصيل القصة» ضئيل إلى حد مخيب للآمال، لكن كان فيها رغم ذلك ما يكفي ليؤكد لنا أن القضية التي بين أيدينا قد تكون مستحقةً أدقّ انتباه الخبير. أشرق وجهه وفرك يديه ببعضهما بينما استمعَ إلى التفاصيل الاستثنائية رغم هزالتها، فقد مرّت علينا سلسلة من الأسابيع القاحلة، وها نحن أخيرًا أمام غاية تلائم هذه القوى البارزة، التي كمثل أي مواهب خاصة، تصيرُ مرهقة لصاحبها حينما لا يستخدمها، فقد تثلّم ذاك الدماغ الحاد كشفرة الحلاقة وتآكله الصدأ جراء قلة الاستعمال.

تلألأت عينا شيرلوك هولمز، واصطبغت وجنتاه الشاحبتان بصبغةٍ أكثر دفئًا، وأشرقَ وجهه المتلهّف كله بضوء باطنيّ حينما بلغهُ نداء العمل. كان منحنيًا إلى الأمام في عربة الأجرة يستمع باهتمام شديد إلى وصف ماكدونالد الوجيز للمشكلة التي كانت تنتظرنا في ساسكس. كان المفتش بنفسه مستندًا، كما شرح لنا، إلى روايةٍ للواقعةِ مخربشة على ورقة أُرسلت إليه عبر قطار الحليب في ساعات الصباح الأولى، ولأن وايت ميسون، الضابط المحليّ، صديق شخصي لماكدونالد، فقد بلغه الإخطارُ أسرع بكثير مما هو معتاد في سكوتلاند يارد حينما تحتاج الأقسام الريفية إلى مساعدتهم، وعادةً ما يكون الأثر غائرًا جدًّا حتى يُطلب من الخبير العاصميّ تقفيه.

عزيزي المفتش ماكدونالد [كما تقول الرسالة التي قرأها علينا]:

> ثمة طلب رسميّ لخدماتك في ظرف منفصل، أما هذا فهو مخصص لرأيك الشخصيّ. أبرق لي لتخبرني أي قطار يمكنك ركوبه إلى بِرلستون في الصباح وسألاقيك، أو أرسل أحدًا ليلاقيك في حال كنتُ مشغولًا جدًّا. هذه القضية فريدة جدًّا من نوعها، فلا تهدر لحظة في بدء العمل، وإن كان بإمكانك أن تجلب السيد هولمز معك فأرجوك أن تفعل؛ لأنه

سيلاقي ما يحلو له تمامًا. كُنا لنظنّ أن الأمر بأكمله مُعدٌّ لإنتاج تأثير مسرحيٍّ لو لم يكن ثمة رجل ميتٌ في منتصفه. يا إلهي! إنها لفريدة جدًّا.

علّق هولمز: «لا يبدو صديقك مغفلًا».

– لا يا سيدي، وايت ميسون رجل همام جدًّا، إذا ما كان لي أن أطلق الأحكام.

– حسنًا، ألديك أي شيء إضافي؟

– لا شيء إلا أنه سيزودنا بكامل التفاصيل عند لقائنا.

– كيف إذًا توصّلت للسيد دوغلاس وحقيقة أنه قُتل شرّ قتلة؟

– كان هذا في التقرير الرسمي المرفق. لم يذكر كلمة «شرّ قتلة»: فهذا ليس مصطلحًا رسميًّا معترفًا به، إنما أورد اسم جون دوغلاس، وذكر أن إصاباته كانت في الرأس، وكانت نتيجة إطلاق نار من بندقية صيد. ذكر أيضًا ساعة الإبلاغ، والتي كانت نحو منتصف ليل الليلة الماضية. أضاف أن القضية كانت جريمة قتل دون شك، لكن لم يُنفذ أي اعتقال، وأنها قضية تُبدي بعض الملامح المُربكة والنادرة للغاية، وهذا قطعًا كل ما نملكه في الوقت الراهن يا سيد هولمز.

– إذًا دعنا نترك الأمر على هذه الحال من بعد إذنك يا سيد ماك، فإغراء تشكيل نظريات مبكّرة بناءً على معلومات غير كافية هو آفة مهنتنا. لا يمكنني رؤية إلا أمرين لا شكّ فيهما حاليًّا، هما دماغ عظيم في لندن، ورجل ميت في ساسكس، والسلسلة بين هذين هيَ ما علينا تعقبه.

الفصل الثالث

مأساة بِرلستون

سأستأذنكم الآن لحظة أُلغي فيها شخصيتي الخاصة الثانوية وأصف الأحداث التي وقعت قبل وصولنا في ضوء ما عرفناه لاحقًا، فهذه هي الطريقة الوحيدة ليفهم القارئُ الأشخاصَ المذكورين والمسرح الغريب الذي سُكب مصيرهم فيه.

تتألف قرية بِرلستون من تجمّع صغير وعتيق جدًّا من الأكواخ نصف الخشبية، وتقع على الحدود الشمالية لمقاطعة ساسكس. حافظت على هيئتها دون تغيير لقرون خَلَت؛ لكن منظرها الخلّاب وموقعها قد جذبا عددًا من السكان الأثرياء خلال السنوات الأخيرة، والذين تُطل فيلاتهم من الغابات المحيطة. يُفترض محليًّا أن هذه الغابات هي الحافة القصوى لغابة ويلد الكبرى، التي تتضاءل حتى تبلغ المنحدرات الطباشيرية الشمالية. بزغ عدد من المتاجر الصغيرة تلبيةً لحاجات عدد السكان المتزايد؛ لذا يبدو أن ثمة احتمالًا ما بأن تنمو بِرلستون قريبًا من قرية قديمة إلى بلدة معاصرة. هيَ مركز مساحة ريفية جسيمة، ذلك أنّ تونبريدج ويلز، أقرب منطقة ذات أهمية إليها، تبعد عشرة أو اثني عشر ميلًا باتجاه الشرق، متجاوزة حدود كِنت.

على بُعد نصف ميل من البلدة تقريبًا، ينتصب قصر بِرلستون العتيق في حديقة قديمة تشتهر بأشجار زانِها الضخمة. يعود تاريخ جزء من هذا البناء الجليل إلى زمن الحملة الصليبية الأولى، وقتما شيّد هيوغو دي كابوس حصنًا صغيرًا في مركز العقار الذي منحه إياه الملك الأحمر. دمّرت النار هذا الحصن في عام 1543، واستُخدم بعض حجارة أساسه التي سوّدها الدخان في بناء منزل ريفي من الطوب فوق أطلال القلعة الإقطاعية في أيام اليعقوبيين.

كان القصر، بجملوناته العديدة ونوافذه الصغيرة ذات الزجاج ماسيّ الشكل، لا يزال في معظمه كما تركه البنّاء في بداية القرن السابع عشر. من بين الخندقين المائيين اللذين حرَسا سَلفه الأقرب إلى مظاهر الحرب، سُمح للخارجي أن يجف ويشغل وظيفةً متواضعة هي حديقة المطبخ، في حين أن الداخليّ كان موجودًا لا يزال، ويمتدّ عرضًا على أربعين قدمًا، رغم أن عُمقه لم يعُد يعدو بضعة أقدام الآن، ويحيط بالمنزل بأسره. كان يغذيه جدول صغير ويستمرّ متجاوزًا إياه، لذا لم تكن صفحة الماء ضارةً أو شبيهة بقنوات الريّ رغم كونها عكرة. كان الطريق الوحيد لبلوغ المنزل يمر عبر جسر متحرك بَليَت سلاسله وبكرته وتآكلت من الصدأ منذ زمن بعيد، وبالرغم من ذلك، أصلح آخر

مستأجري القصر هذا بطاقةٍ نوعية، ولم يصِر الجسر المتحرك قابلًا لأن يُرفع فحسب، بل كان يُرفع فعلًا في كل مساء ويُخفض كل صباح، وعبر هذا التجديد لسُنة الأيام الإقطاعية القديمة، كان القصر يتحوّل إلى جزيرة خلال الليل، وهي حقيقة تحمل ارتباطًا مباشرًا جدًّا باللغز الذي سَرعان ما جذب انتباه إنجلترا كلها.

قضى المنزل بضع سنوات دون أن يحلّ به مستأجر، وكان يُنذر بالتعفّن والتحول إلى مشهد من الخراب حينما استملكه آل دوغلاس. تألفت العائلة من فردين هما جون دوغلاس وزوجته، وكان دوغلاس رجلًا استثنائيًّا في شخصه وشخصيته، أما عن عمره فكان في الخمسين تقريبًا، وله وجه صارم قوي الفكين، وشارب أشيب، وعينان رماديتان حادتان على نحو غريب، وجسد قوي يضج نشاطًا لم يفقد شيئًا من قوة الشباب وحيويته. كان مرحًا ودمثًا مع الجميع، غير أن سلوكه كان خشنًا قليلًا، ما يُعطي انطباعًا أنه قد شهد حياةً في حالة اجتماعية تنتمي لسويةٍ ما أدنى بكثير من سوية مجتمع مقاطعة ساسكس.

مع ذلك، ورغم أن جيرانه الأكثر تهذبًا كانوا ينظرون إليه ببعض الحرص والاحتراز، فسرعان ما اكتسب شعبية كبيرة بين القرويين، وكان يشترك بشكل رائع بكل الواجبات المحلية، ويحضر كل حفلاتهم الموسيقية التي يدخنون فيها، ويؤدي وظائف أخرى، منها أنه ولامتلاكه صوتًا غنيًّا صادحًا على نحو استثنائي، كان دائمًا على استعداد للجود بأغنية ممتازة. بدا أنه يحوز الكثير من المال، وقد قيل إنه جمعه في حقول الذهب في كاليفورنيا، وكان واضحًا من كلامه وكلام زوجته أنه قضى جزءًا من حياته في أمريكا.

تعاظم الانطباع الحسن الذي خلّفه كرمه وطبيعته المتواضعة عبر سمعته التي كسبها من استهانته المطلقة بالخطر، فرغم كونه خيّالًا رديئًا، كان يشارك في كل مبارزة، ويتلقى أروع السقطات عازمًا على الدفاع عن نفسه بأفضل ما يستطيع، وعندما شبّت النار في بيت الكهنة، برز أيضًا بالشجاعة التي أبداها بدخوله البناء مجددًا لإنقاذ الأملاك، بعد أن تخلى عنه رجال الإطفاء المحليون وأعلنوه أمرًا مستحيلًا، وهكذا حقق جون دوغلاس القاطن في القصر سمعة طيبة في بِرلستون في خمس سنوات.

كانت زوجته ذات شعبية أيضًا بين أولئك الذين جمعتهم بها معرفة شخصية؛ وإن كان من النادر –بحسب التقليد الإنجليزي– أن يزور الناس شخصًا غريبًا استقر في المقاطعة دون مقدمات، لكن هذا كان آخر همها، فقد كانت خجولًا بطبعها، ومنهمكة للغاية، إن حكمنا عليها مما يظهر، في الاعتناء بزوجها وبواجباتها المنزلية. عُرف عنها أنها سيدة إنجليزية التقت السيد دوغلاس في لندن، وكان أرملَ آنذاك. كانت امرأة

سمراء جميلة، ممشوقة وطويلة القامة، وأصغر من زوجها بنحو عشرين عامًا، وبدا أن هذا التفاوتَ في العمر لم يعكّر صفو حياتهما العائلية على الإطلاق.

وعلى الرغم من ذلك، فقد علّق الأقربون إليهما في بعض الأوقات على أن الثقة بين الاثنين لم تكن تامة، لأن الزوجة كانت إما متحفظة جدًّا فيما يتعلق بماضي زوجها، أو أن معرفتها به منقوصة، ما بدا الأكثر رجحانًا، ولاحظ بعض المراقبين أيضًا وجود دلالات على شيء من التوتّر العصبي من طرف السيدة دوغلاس وتكلموا عنه، وعن أنها كانت تُبدي انزعاجًا عنيفًا إذا ما تأخر زوجها الغائب في رجعته لبعض الوقت، وفي بلدة ريفية هادئة، حيث يُرحب بأي موضوع للثرثرة، لم تمرّ نقطة الضعف هذه للسيدة مرور الكرام، وتضخمت أكثر في ذاكرة الناس عندما طرأت الأحداث التي أسبغت عليها أهمية خاصة جدًّا.

كان ثمة فرد آخر إضافي يقيم في ذلك المنزل، وصحيح أن إقامته كانت متقطعة فقط، لكن وجوده في وقت حدوث المجريات الغريبة التي سأسردها عليكم الآن أبرز اسمه واضحًا أمام العامة. كان هذا الشخص سيسيل جيمس باركر، القاطن في بنسيون هيلز في هامبستيد.

كان قوام سيسيل باركر الطويل خفيف الحركة مألوفًا في الشارع العام لبلدة بِرلستون؛ فقد كان زائرًا معتادًا ومرحبًا به في القصر، وكان ملحوظًا أكثر بصفته الصديق الوحيد من ماضي السيد دوغلاس الذي شوهد في محيطه الإنجليزي الجديد على الإطلاق. كان باركر نفسه رجلًا إنجليزيًّا بلا شك؛ لكن أوضحت تعليقاته أنه التقى السيد دوغلاس للمرة الأولى في أمريكا، وأنهما كانا متآلفين مقربين. تبيّن أنه رجل ذو ثروة عظيمة، وقالت الشائعات إنه عازب.

كان في الواقع أصغر عمرًا من دوغلاس، لا يجاوز الخامسة والأربعين، وكان شخصًا طويلًا مستقيمًا واسع الصدر، له وجه حليق لملاكم محترف بحاجبين سميكين أسودين قويين وزوج من العيون السوداء المتسلّطة التي ربما بمقدورها، دون عَون يديه فائقتي القدرة، شق طريق له عبر حشد عدواني. لم يركب الخيل ولم يمارس الصيد، بل كان يقضي أيامه في التنزّه حول القرية القديمة وغليونه في فمه، أو في التجوال بالعربة مع مضيفه، أو مع مضيفته في حال غيابه، عبر الريف الجميل. قال رئيس الخدم أيمس: «سيدٌ لين الطبع كريم اليد، لكن يا إلهي! لا أرغب بأن أكون الرجل الذي يثير غضبه!». كانت علاقته بدوغلاس قلبية وحميمة، ولم يكن بأقل ودًّا مع زوجته، وهي علاقة صداقة بدا أنها سببت بعض الانزعاج لدى الزوج أكثر من مرة لدرجة أن حتى الخدم كانوا قادرين على استشعار هذا الاستياء، وهكذا كان الشخص الثالث، والذي كان فردًا من العائلة حينما وقعت الكارثة.

أما عن بقية سكان البناء القديم، فيكفي أن نذكر من آل البيت الكثيرين أيمس الأنيق المحترم الكفء، والسيدة آلن، وهي امرأة مرحة ممتلئة الجسد أراحت سيدتها من بعض أعباء المنزل، ولا علاقة للخدم الستة البقية بأحداث ليلة السادس من يناير.

كانت الساعة الحادية عشرة وخمسًا وأربعين دقيقة، وقتما وصل البلاغ الأول قسم الشرطة المحلي الصغير بقيادة الرقيب ويلسون من شرطة منطقة ساسكس، إذ هرعَ سيسيل باركر، يحذوه انفعال شديد، إلى الباب ودق الجرس دقًّا صاخبًا، وأبلغ رسالة لاهثة مفادها أن مأساة مروعة قد حدثت في القصر، وأن جون دوغلاس قد قُتل، ثم عاد مسرعًا إلى المنزل وتبعه بعد عدة دقائق رقيب الشرطة الذي وصل إلى مسرح الجريمة بعد الثانية عشرة بقليل، بعد أن أنذر سلطات المقاطعة فوريًّا بأن شيئًا خطيرًا ما كان يحدث.

عند بلوغه القصر، وجد الرقيب الجسر المتحرك مخفوضًا، والنوافذ مضاءة، وكامل آل البيت في حالة اضطراب وجزع جامحة. كان الخدم بيض الوجوه محتشدين في الردهة، ورئيس الخدم المذعور يعتصر يديه في المدخل، وكان سيسيل باركر الوحيد الذي بدا مُتمالكًا نفسه وعواطفه؛ فقد فتح الباب الأقرب إلى المدخل وأشار للرقيب أن يتبعه. وصل في تلك اللحظة الدكتور وود، وهو طبيب عام نشطٌ وبارع من القرية، ودخل الرجال الثلاثة الغرفة المشؤومة معًا، بينما دخل في أعقابهم رئيس الخدم الذي أجفله الرعب، وأغلق الباب خلفه حاجبًا المشهد المروّع عن أعين بقية الخدم.

كان الرجل الميت ممددًا على ظهره ناشرًا أطرافه في وسط الغرفة، ولا يرتدي إلا رداء نوم ورديًّا يسترُ ملابسه الليلية، ونِعال سجادة على قدميه العاريتين. جثا الطبيب إلى جانبه حاملًا الفانوس اليدوي الذي كان على الطاولة، وكانت نظرة واحدة على الضحية كافية ليعرف المداوي أن لا داعي لوجوده، فقد كان الرجل مجروحًا جرحًا مروعًا، وملقى على صدره سلاح غريب، هو بندقية صيد مزدوجة قُصرت سبطانتها ليصير طولها قدمًا من بعد الزنادين. كان من الواضح أنها أُطلقت من مسافة قريبة وأنه تلقى كامل الحشوة في وجهه، ما فجّر رأسه إلى أشلاء تقريبًا، وقد رُبط الزنادان معًا بسلكٍ ليكون الإطلاق متزامنًا والمفعول التدميري أكثر قوة.

كان الشرطي الريفي واهن الأعصاب ومرتبكًا جراء هذه المسؤولية الهائلة التي ألقيت على عاتقه بهذا الشكل الفجائي، وقال بصوت خافت وهو ينظر مرعوبًا إلى الرأس المفزع: «لن نلمس شيئًا حتى يصل رؤسائي».

فقال سيسيل باركر: «لم يُلمس شيء حتى الآن، وأنا أتحمل مسؤولية هذا. كل ما ترونه هو كما وجدتُه تمامًا».

أخرج الرقيب مفكرته وقال: «متى كان هذا؟»

– كانت الساعة الحادية عشرة والنصف تمامًا. لم أكن قد بدأت بخلع ملابسي، وكنت جالسًا بجوار الموقد في غرفة نومي وقتما سمعتُ صوت الدويّ. لم يكن صاخبًا جدًّا، بل بدا مكتومًا، فهرعتُ إلى الأسفل، ولا أحسب أني استغرقت ثلاثين ثانية حتى صرتُ في الغرفة.

– هل كان الباب مفتوحًا؟

– بلى كان مفتوحًا، وكان دوغلاس التعِس مسجى كما تراه، وشمعة غرفة نومه تتوهّج على الطاولة. أنا من أشعل الفانوس بعد عدة دقائق.

– ألم ترَ أحدًا؟

– لا، وسمعتُ السيدة دوغلاس تهبط السلالم في أثري، فأسرعتُ لمنعها من رؤية هذا المنظر الرهيب، ثم جاءت السيدة آلن، مدبرة المنزل، وأخذَتها بعيدًا. كان أيمس قد وصل، ورجعنا إلى الغرفة من جديد.

– لكنني سمعتُ أن الجسر المتحرك كان مرفوعًا طوال الليل بالتأكيد.

– بلى كان مرفوعًا حتى خفضتُه.

– إذًا كيف لأي مجرم أن يفرّ؟ هذا محال! لا بدّ أن السيد دوغلاس قد أطلق النار على نفسه.

«كانت هذه فكرتنا الأولى، لكن انظر!» أزاح باركر الستارة جانبًا وأوضح أن النافذة الطويلة ماسيّة الزجاج كانت مشرّعة عن آخرها، ثم حمل الفانوس مضيئًا على لطخة دماء تشبه علامة نعل حذاء على العتبة الخشبية وقال: «وانظر إلى هذه! وقف شخص ما هناك في طريق خروجه».

– أتعني أن شخصًا ما قد عبر الخندق؟

– بالضبط!

– إذا كنتَ في الغرفة بعد نصف دقيقة من الجريمة، إذًا لا بدّ أنه كان في المياه في تلك اللحظة بعينها.

– ليس عندي أدنى شك في هذا، ويا ليتني أسرعتُ إلى النافذة! لكن الستارة حجبتها كما ترى، لذا لم يخطر ببالي قط، ثم سمعتُ وقع خطوات السيدة دوغلاس، ولم يكن بوسعي تركها تدخل الغرفة، فقد كان ذلك ليحمل أثرًا رهيبًا جدًّا عليها.

فقال الطبيب، وهو ينظر إلى الرأس المهشم والعلامات المرعبة المحيطة به: «أكثر من رهيب! لم أرَ جراحًا كهذه منذ حادثة التحطّم على سكة قطار بِرلستون».

عقّب الرقيب الشرطي، الذي كان بفهمه الريفي البطيء ما يزال يتأمل النافذة المفتوحة: «لا بأس بكل ما قلتَه عن فرار رجل ما بعبوره الخندق، لكن سؤالي لك هو كيف وصلَ إلى المنزل أصلًا إذا كان الجسر مرفوعًا؟»

قال باركر: «آه، هذا هو السؤال».

– في أي ساعة رُفع؟

فقال أيمس رئيس الخدم: «كانت قرابة السادسة تمامًا».

قال الرقيب: «سمعتُ أنه كان يُرفع عادة عند الغروب، والغروب أقرب إلى الرابعة والنصف لا السادسة في هذا الوقت من العام».

فقال أيمس: «استقبلت السيدة دوغلاس زوارًا على موعد الشاي، ولم يكن بوسعيَ رفعه حتى غادروا، ثم أغلقته بيدي».

قال الرقيب: «إذًا فقد وصلنا إلى النتيجة التالية: إذا جاء شخص ما من الخارج – وأقول إذا – فلا بدّ أنه دخل عبر الجسر قبل الساعة السادسة، ثم كمَن في مخبأ حتى رجع السيد دوغلاس إلى غرفته بعد الحادية عشرة».

– هذا ما حدث! فقد كان السيد دوغلاس يجول المنزل كل يوم قبل أن ينام، ليتأكد من أن المصابيح مضاءة، وهذا ما جاء به إلى هنا. كان الرجل ينتظره وأطلق النار عليه، ثم فر عبر النافذة تاركًا هذه البندقية خلفه. هذه قراءتي للمسألة؛ فلا احتمال آخر يتناسب مع الحقائق.

التقط الرقيب بطاقة كانت ملقاة على الأرض بجانب الميت، ومخربشًا عليها بالحبر الحرفان الأوليان و. ف. وتحتهما الرقم 341.

وسأل وهو يرفعها بيده: «ما هذه؟»

نظر إليها باركر نظرة متسائلة، وقال: «لم ألحظها قبل الآن، لا بدّ أن القاتل قد تركها».

– و. ف. – 341، لا يمكنني استنتاج شيء من هذا.

تابع الرقيب تقليبها بين أصابعه الضخمة وقال: «ماذا يعني و. ف.؟ أهي الأحرف الأولى من اسم أحدهم؟ ربما. ماذا لديك هناك يا دكتور وود؟»

كانت مطرقة كبيرة الحجم مرميةً على السجادة الممدودة أمام الموقد، مطرقة متينة تليق بعامل ماهر. أشار باركر إلى صندوق من المسامير صُفر الرؤوس فوق رف الموقد

وقال: «كان السيد دوغلاس يُعدّل الصور المعلقة البارحة، وقد رأيته بنفسي يقف على ذاك الكرسي ويضبط الصورة الكبيرة المعلقة فوقه، وهذا سبب وجود المطرقة».

فقال الرقيب وهو يحكّ رأسه الحائر مرتبكًا: «من الأفضل أن نعيدها إلى حيث وجدناها على السجادة، فسيحتاج سبرُ غور هذه القضية إلى أفضل عقول قوات الشرطة، وستصير في عهدة رجال لندن قبل انتهائها»، ثم حمل الفانوس اليدوي وراح يمشي بأناة حول الغرفة، وصاح بحماسة وهو يشدّ ستارة النافذة إلى أحد طرفيها: «أهلًا! في أي ساعة أُسدلت هذه الستائر؟»

قال رئيس الخدم: «عندما أُشعلت المصابيح، ويُفترض أن يكون ذلك بعد الساعة الرابعة».

أنزل الرقيب الضوء إلى الأسفل، فبدَتْ آثار حذاء موحل واضحة جدًّا في الزاوية، وقال: «كان شخص ما يختبئ هنا بالتأكيد. عليّ القول إن هذا يؤيد نظريتك يا سيد باركر، إذ يبدو كما لو أن الرجل قد دخل المنزل بعد أن أُسدلت الستائر في الرابعة وقبل رفع الجسر في السادسة. انسلّ إلى هذه الغرفة لأنها كانت أول غرفة رآها، ولم يكن ثمة مكان آخر يختبئ فيه فاستقرّ خلف الستارة. يبدو كل هذا واضحًا جدًّا، ومن المرجح أن فكرته الأساسية كانت سرقة المنزل؛ لكن صادف أن واجه السيد دوغلاس فقتله وفرّ».

فقال باركر: «هكذا أرى الأمر، لكن ألسنا نهدر وقتًا ثمينًا؟ أليس بوسعنا الانطلاق وتمشيط الريف قبل أن يفرّ هذا الشخص؟»

فكّر الرقيب لبرهة.

– لا توجد قطارات قبل السادسة صباحًا؛ لذا لا يمكنه الفرار عبر السكة الحديدية، وإذا ما ذهب برًّا وساقاه تقطران بهذا الشكل، فاحتمال أن يلاحظه أحدهم كبير. بأي حال، أنا لا يمكنني مغادرة المكان حتى أطمئن، لكن أعتقد أنه لا ينبغي لأحدكم الذهاب حتى نفهم سير الأمور بوضوح أكثر.

كان الطبيب قد أخذ الفانوس وراح يتفحّص الجثة بدقة، وسأل: «ما هذه العلامة؟ أيمكن أن يكون لها علاقة ما بالجريمة؟»

كانت يد الميت اليمنى بارزة من رداء نومه، ومكشوفة حتى المرفق. في منتصف الساعد تقريبًا كان ثمة رسم بنّيّ غريب عبارة عن مثلث داخل دائرة، يبرز فاقعًا واضحًا على جلده الأبيض.

قال الطبيب مدققًا النظر عبر نظارته: «ليس موشومًا، ولم أرَ أي شيء يشبهه قط، فقد وُسمَ الرجل في وقت سابقٍ كما توسَم الماشية. ما معنى هذا؟»

فقال سيسيل باركر: «لا أدّعي معرفة معناها، لكنني رأيت العلامة على دوغلاس مرات عديدة في السنوات العشرة الأخيرة».

وقال رئيس الخدم: «وأنا أيضًا لاحظت العلامة مرات عديدة حينما كان السيد يشمّر عن ساعديه، وغالبًا ما تساءلت عما قد تكونه».

فقال الرقيب: «إذًا لا علاقة لها بالجريمة، لكنها أمر عجيب أيضًا بكل حال. كل شيء في هذه القضية عجيب. حسنًا، ما الأمر الآن؟»

كان رئيس الخدم قد أطلق صيحة اندهاش وهو يشير إلى يد الميت الممدودة.

وشهق قائلًا: «لقد أخذوا خاتم زواجه!».

– ماذا!

– بلى، حقًّا. كان السيد يرتدي خاتم زواجه الذهبي في خنصر يده اليسرى دائمًا. كان ذاك الخاتم الذي يحمل حجرًا كريمًا فوقه، والخاتم على شكل أفعى ملتوية في إصبعه الوسطى. ما زال خاتم الحجر الكريم وخاتم الأفعى موجودين، لكن خاتم الزواج مفقود.

فقال باركر: «إنه محق».

قال الرقيب: «أتقول لي إن خاتم الزواج كان تحت الآخر؟»

– دائمًا!

– إذًا فقد نزع القاتل، أو أيًّا كان، هذا الخاتم ذا الحجر الكريم أولًا، ثم انتزع خاتم الزواج، قبل أن يعيد خاتم الحجر الكريم إلى موضعه مجددًا.

– أجل بالضبط!

هز الشرطي الريفي الجدير رأسه.

وقال: «يبدو لي أننا كلما عجلنا في إشراك لندن بهذه القضية كان أفضل، فوايت ميسون رجل ذكي لم يفُق أي عملٍ محليّ قدرته قط، ولن يطول الوقت حتى يأتي لعوننا، لكن أتوقع أننا سنضطر للجوء إلى لندن قبل أن نفرغ منها. بأي حال، لستُ محرجًا من القول إن هذا الأمر ثقيل جدًّا على أمثالي».

الفصل الرابع

ظُلمة

عند الثالثة صباحًا، وصل كبير محققي ساسكس من مقر القيادة في عربة فردية خفيفة يجرّها حصان سباق منقطع النفَس، تلبية للنداء العاجل الذي أطلقه الرقيب ويلسون من قسم بِرلستون. أرسل رسالته مع قطار الخامسة وأربعين دقيقة صباحًا إلى سكوتلاند يارد، وكان في الثانية عشرة تمامًا حاضرًا في محطة بِرلستون لاستقبالنا. كان وايت ميسون شخصًا هادئًا مريح المظهر يرتدي بذلة تويدية فضفاضة، وله وجه حليق متورّد وجسم ممتلئ قليلًا ذو ساقين متقوّستين قويتين تزينهما جراميق، ويبدو وكأنه مزارع صغير، أو حارس طيور متقاعد، أو أي شيء على وجه الأرض إلا النموذج المتعارف عليه للضابط الجنائي الريفي.

«إنها متفردة فعلًا بكل معنى الكلمة يا سيد ماكدونالد!» ظل يردد، ثم قال: «سيتجمّع الصحفيون كالذباب حينما يدركونها، وآمل أن نتمّ عملنا قبل أن يبدؤوا بحشر أنوفهم فيها وإفساد كامل الأدلة. لست أذكر حدوث ما يشبهها قط، وثمة بعض الشذرات التي ستنفذ إلى وجدانك إذا لم أكن مخطئًا يا سيد هولمز، وأنت أيضًا يا دكتور واتسون؛ فسيكون للأطباء الإدلاء برأيهم قبل أن ننتهي. إن غرفتكم في نُزُل ويستفيل آرمز، لا يوجد مكان آخر؛ لكني سمعت أنه نظيف وكيّس. سيحمل الرجل حقائبكم، تفضلوا من هنا لو سمحتم أيها السادة».

كان محقق ساسكس هذا شخصًا نشيطًا في غاية طِيب الخُلُق. وجدنا مساكننا في غضون عشر دقائق، وبعد عشر دقائق أخرى كنا جالسين في صالة استقبال النُزُل نستمع إلى سرد سريع للأحداث التي جرى إيضاحها في الفصل السابق. أبدى ماكدونالد ملاحظة عرضية، في حين جلس هولمز مستغرقًا، يعلو وجهه تعبير ينم عن إعجاب ذاهلٍ ومبجل كخبير نباتات يدرس زهرةً نادرة ونفيسة.

وقال بعد تمام القصة: «رائع! بل في قمة الروعة! ولا يمكنني تذكر أي قضية برزت فيها ملامح أغرب من هذه!».

فقال وايت ميسون بغبطة شديدة: «اعتقدتُ أنك ستقول هذا يا سيد هولمز! إننا في ساسكس مواكبون لما يجري في بقية البلاد، وقد أخبرتك الآن كيف كانت الأمور حتى استلمتُ زمامها من الرقيب ويلسون بين الثالثة والرابعة هذا الصباح. يا إلهي! لقد أرهقتُ الفرس العجوز! لكن لم أكن مضطرًّا إلى التعجّل بهذا الشكل، فكما تبين لاحقًا،

لم يكن ثمة شيء فوريّ يمكنني فعله. جمع الرقيب ويلسون كافة الحقائق، وأنا دققتها وتأملتها وربما أضفتُ بعضًا عليها».

سأل هولمز متلهفًا: «وما هي؟»

– حسنًا، في البداية طلبتُ فحص المطرقة، كان الدكتور وود موجودًا لمساعدتي في ذلك، ولم نجد آثار عنف عليها. كنتُ عاقدًا آمالي على أن يكون السيد دوغلاس قد دافع عن نفسه باستخدام المطرقة وترك أثرًا على القاتل قبل أن يسقطها على البساط، لكن لم يكن ثمة لطخة.

فعلق المفتش ماكدونالد: «وهذا بالتأكيد لا يثبت شيئًا على الإطلاق، فقد حدث العديد من جرائم القتل باستخدام مطرقة، ولم يكن ثمة من أثر عليها».

«أوافقك الرأي، هذا لا يُثبت أنها لم تُستخدم، لكن كان ثمة احتمال أن نجد لطخات، وكان ذلك ليساعدنا. في واقع الأمر، لم يكن هناك أي لطخات، ثم عاينتُ البندقية ووجدتُ أن لها خراطيش من الخردق، ومثلما أشار الرقيب ويلسون، أن الزنادين مربوطان بسلكٍ حتى تنطلق الشحنتان معًا في حال ضغطت على الزناد الخلفي. إن من أعدّ ذلك -أيًّا من كان- شخص قد عقد عزمه على أنه لن يُخاطر بإخطاء هدفه. كان طول البندقية المقصوصة لا يتعدى القدمين، أي يمكن للمرء حملها تحت معطفه بسهولة. لم يكن ثمة اسم صانعٍ كامل عليها؛ لكن كانت الأحرف ب --ي --ن مطبوعة على الأخدود بين السبطانتين، وقُص بقية الاسم مع ما قُص من البندقية».

سأل هولمز: «أهوَ حرف ب بالخط الكبير فوقه زخرفة، وحرفا ي وَ ن أصغر منه؟»

– تمامًا.

فقال هولمز: «شركة بنسلفانيا للأسلحة الصغيرة، وهي شركة أمريكية معروفة».

نظر وايت ميسون إلى صديقي كما ينظر طبيب قرويّ بسيط إلى مختص من شارع هارلي ستريت يمكنه بكلمة واحدة حل الصعاب التي تُربكه.

– هذا نافع جدًّا يا سيد هولمز، ولا شك أنك على حق. مدهش! مدهش! أتحمل في ذاكرتك أسماء كل صُنّاع السلاح في العالم؟

صرف هولمز الموضوع بتلويحة من يده.

فواصَل وايت ميسون كلامه: «إنها بندقية أمريكية من غير ريب، ولعلني قرأت أن البندقية القصيرة سلاح استُخدم في بعض أجزاء أمريكا، فقد خطرت لي الفكرة بمعزل عن الاسم المكتوب على السبطانة. إذًا ثمة دليل على أن هذا الرجل الذي دخل المنزل وقتل سيده أمريكيّ».

هزّ ماكدونالد رأسه وقال: «أنت لا بدّ تطير بأفكارك طيرانًا يا رجل، فحتى الآن لم أسمع دليلًا على دخول أي غريب المنزل على الإطلاق».

– النافذة المفتوحة، والدماء على عتبتها، والبطاقة الغريبة، وآثار الحذاء في الزاوية، والبندقية!

– لا شيء في هذا يتعذّر ترتيبه، فالسيد دوغلاس كان أمريكيًّا، أو أنه عاش في أمريكا وقتًا طويلًا، وكذا السيد باركر. لا حاجة لإدخال أمريكي من الخارج بغية تفسير الأفعال الأمريكية.

– أيمس، رئيس الخدم...

– ماذا عنه؟ أليس جديرًا بالثقة؟

– قضى عشر سنوات مع السير تشارلز تشاندوس، كان فيها ثابتًا مثل صخرة، وكان مع السيد دوغلاس منذ سكناه في القصر قبل خمس سنوات، ولم يرَ بندقية من هذا النوع في المنزل قط.

– صُنعت البندقية بهدف إخفائها، وهذا سبب قص سبطانتيها، ويمكن لأي صندوق أن يتسع لها، فكيف له أن يقسم أن المنزل لم يحتوِ سلاحًا كهذا؟

– حسنًا، بأي حال، هو لم يرَ مثلها قط.

هز ماكدونالد رأسه الأسكتلندي العنيد، وقال: «ما زلتُ غير مقتنع أن شخصًا ما قد دخل المنزل قط، وإني أسألك أن تفكّر» (وصارت لكنته أبردينية أكثر بعدما نسي نفسه أثناء جَدَله) «إني أسألك أن تفكر في ما ينطوي عليه افتراضك أن هذه البندقية قد أُدخلت إلى المنزل أصلًا، وأن كل هذه الأفعال الشاذة قد قام بها شخص دخيل. أوه، هذا محال يا رجل! الأمر واضح بعيني الفطرة السليمة! أنا أضع الأمر بين يديك يا سيد هولمز، لتحكم فيه بحسبما سمعنا».

فقال هولمز بصياغته القضائية: «حسنًا، قدّم الوقائع والحجج الداعمة لرأيك يا سيد ماك».

– الرجل –على افتراض أنه موجود أصلًا– ليس لصًّا، فمسألة الخاتم والبطاقة تشيران إلى جريمة قتل عمدٍ بدافعٍ شخصي، جيد جدًّا، لدينا رجل انسلّ إلى منزل ما بنيّة مدروسة هي ارتكاب جرم القتل؛ هو يعرف –بدهيًّا– أنه سيواجه صعوبة في الفرار؛ كونَ المنزل محاطًا بالماء، فأي سلاح سيختار؟ كنتَ لتقولَ أكثر أسلحة العالم هدوءًا، ثم يمكنه عقد آماله على الانزلاق من النافذة بسرعة بعد إنجاز فعلته، ليعبر الخندق ويفرّ على مهله، وهذا ممكنٌ فهمه، لكن ما لا يمكن فهمه هو أن يتحمل

خطورة اختيار أكثر الأسلحة صخبًا، وهو يعرف جيدًا أن استخدامه سيأتي بكل بشريّ في المنزل إلى تلك البقعة بأسرع ما يمكنهم، وأن كل ما سبق يُرجِّح أن يروه قبل عبوره الخندق. أيمكن تصديق هذا يا سيد هولمز؟

أجاب صديقي بتمعُّن: «حسنٌ، لقد طرحت حججًا قوية، وهي تحتاج قدرًا كبيرًا من التعليل بالتأكيد. هل لي أن أسألك يا سيد وايت ميسون، ما إذا كنتَ قد عاينتَ الطرف الآخر من الخندق على الفور لتتبين وجود علاماتٍ على خروج الرجل من الماء من عدمه؟»

– لم نرَ علامات يا سيد هولمز، لكن حافة الخندق صخرية، ولا يمكن للمرء توقع وجودها.

– لا آثار ولا علامات؟

– ولا أي شيء.

– ها! ألديك أي اعتراض على ذهابنا إلى المنزل حالًا يا سيد وايت ميسون؟ فمن الممكن وجود نقطة صغيرة تشير إلى شيء ما.

«كُنت سأقترح هذا يا سيد هولمز؛ لكنني اعتقدتُ أنه من الأفضل إطلاعكم على كافة الحقائق قبل أن نذهب. أفترض أنه إذا ما بدا لك شيء ما...» ونظر وايت ميسون بريبة إلى الهاوي.

فقال المفتش ماكدونالد: «لقد عملتُ مع السيد هولمز قبلًا، إنه يحترم قواعد اللعبة».

قال هولمز مبتسمًا: «فكرتي الشخصية عن اللعبة، كيفما كان الحال، فأنا أشارك في قضية ما لإقامة العدالة ومساعدة الشرطة في عملهم، وإذا ما انفصلتُ عن القوى الرسمية قط، فهذا لأنهم قد انفصلوا عني أولًا، ولا رغبة عندي في النجاح على حسابهم. في الوقت نفسه، أنا أطالب بحق العمل بطريقتي الخاصة وتقديم نتائجي في الوقت الذي أراه مناسبًا؛ أي مكتملةً بدلًا عن تقديمها على مراحل يا سيد وايت ميسون».

فقال وايت ميسون بمودّة: «نتشرف بحضورك وبإطلاعك على كل ما نعرفه بالتأكيد، تفضل معنا يا دكتور واتسون، وعندما يحين الوقت، كلنا أمل أن تذكرنا في كتابك».

مشينا على طول طريق قروي هادئ، اصطفّت على جانبيه أجمة من شجرات الدردار. خلفه تمامًا؛ انتصب عمودان حجريان عتيقان، أبهتَ الطقس لونهما وبقّعتهما طحالب الأُشنة، يحملان على رأسيهما شكلًا مشوهًا كان فيما مضى الأسد الجامح لكابُّس بِرلستون. بعد مشوار صغير على طول الطريق المتعرج الذي تكتنفه المروج وشجرات البلوط، في منظر لا يراه المرء إلا في ريف إنجلترا، تلاه انعطاف

مفاجئ، صار المنزل اليعقوبي المديد الخفيض ذو الطوب الرث كبديّ اللون، قابعًا أمامنا في حديقة قديمة الطراز من شجرات طقسوس مشذبة تلفّ جانبيه، وعندما دنونا منه رأينا الجسر الخشبي المتحرك والخندق المائي الواسع الجميل، ساكنًا ومُشعًّا كالزئبق تحت أشعة شمس الشتاء الباردة.

مرّت قرون ثلاثة بالقصر القديم؛ قرون عجّت بالولادات واحتفالات العودة إلى الوطن والرقصات الريفية واجتماعات صيادي الثعالب. أمر غريب أن تُلقي فعلة خبيثة كهذه ظلالها على جدرانه المهيبة الآن في شيخوخته! لكن رغم ذلك، كانت هذه الأسقُف الذروية الغريبة، والجملونات المتدلية العجيبة، غطاء ملائمًا لدسيسة مقيتة وفظيعة. وحينما نظرتُ إلى النوافذ الغائرة والامتداد الطويل للمقدمة باهتة اللون التي يلفها الماء، شعرتُ أنه لا يمكن تجهيز مسرح أفضل لمأساة كهذه.

قال وايت ميسون: «تلك هي النافذة، إنها إلى يمين الجسر المتحرك مباشرة، وهي مفتوحة كما وُجدت في الليلة الماضية».

- تبدو أضيق بعض الشيء من أن يعبرها رجل.

- حسنًا، لم يكن رجلًا سمينًا بأي حال، ولسنا بحاجة لاستنتاجاتك لكي تخبرنا ذلك يا سيد هولمز، لكن أنا أو أنت يمكننا الانزلاق عبرها على نحو جيد.

مشى هولمز إلى حافة الخندق ونظر إلى الطرف المقابل، ثم فحص الحافة الصخرية والعشب خلفها.

فقال وايت ميسون: «لقد تفحصتُ بدقة يا سيد هولمز، لا شيء هناك، ولا دلالة على أن شخصًا قد مرّ من هناك، لكن لمَ عساه يترك أي علامة؟»

- بالضبط، لمَ؟ هل الماء عكرٌ دائمًا؟

- هذا لونه في العموم، فالجدول يجلب الطين مع تياره.

- ما مدى عمقه؟

- نحو قدمين عند الجانبين وثلاثة في المنتصف.

- إذًا يمكننا استبعاد فكرة غرق الرجل أثناء عبوره تمامًا.

- بلى، فلا يمكن لطفل حتى أن يغرق فيه.

عبرنا الجسر المتحرك سيرًا، وأدخَلَنا شخص غريب ذابل نكِد المزاج، عرفنا أنه رئيس الخدم أيمس. كان العجوز المسكين شاحبًا يرتعد من هول الصدمة، وكان الرقيب

القروي، وهو رجل طويل رسمي سوداوي، ما يزال يحرس غرفة الكارثة، أما الطبيب فقد غادر.

سأل وايت ميسون: «أيّ مستجدات أيها الرقيب ويلسون؟»

– لا يا سيدي.

– إذًا بوسعك الذهاب إلى منزلك، فقد نلتَ كفايتك، وسنرسل في طلبك إذا ما احتجنا إليك. يُفضّل أن ينتظر رئيس الخدم بالخارج، وأخبره أن ينذر السيد سيسيل باركر، والسيدة دوغلاس، ومدبرة المنزل أننا قد نرغب بالحديث معهم عما قريب. الآن أيها السادة، لعلكم تسمحون لي بإخباركم بالآراء التي شكّلتُها أولًا، ثم يكون بوسعكم تشكيل آرائكم الخاصة.

أثار هذا المتخصص الريفي إعجابي، فقد كان يجيد إحكام قبضته على الحقائق، وله ذهن هادئ صافٍ حسنُ الإدراك، حريّ بأن يرتقي بصاحبه في مهنته. استمع إليه هولمز بانتباه شديد، ولم تبدُ عليه أي علامة على نفاد الصبر الذي غالبًا ما يستحثّه الشرح الرسميّ.

– أهو انتحار، أم جريمة قتل؟ هذا سؤالنا الأول يا سادة، أليس كذلك؟ إذا كان انتحارًا، فعلينا تصديق أن هذا الرجل قد بدأ الأمر بخلع خاتم زواجه وإخفائه؛ وأنه نزل إلى هنا بعد ذلك برداء نومه، وترك آثار دعسات طينية في الركن خلف الستارة ليعطي فكرة أن شخصًا ما كان ينتظره، وفتح النافذة، ووضع الدماء على الـ...

فقال ماكدونالد: «يمكننا استبعاد ذلك بالتأكيد».

– وهذا ما أعتقده، الانتحار غير وارد، إذًا فقد حدثت جريمة قتل، وما علينا تحديده هو ما إذا كان الفاعل شخصًا خارج المنزل أم داخله.

– حسنًا، أسمعنا الحُجة.

– ثمة مشكلات جسيمة تواجه كلتا الحالتين، لكن لا بد أن يكون أحدهما الصحيح رغم ذلك. سنفترض أولًا أن شخصًا أو أشخاصًا في المنزل قد ارتكبوا الجريمة: هذا يعني أنهم أتوا بهذا الرجل إلى هنا في وقت يعمّه السكون رغم كون الجميع يقظين، ثم فعلوا الفعلة باستخدام أكثر الأسلحة غرابة وصخبًا في العالم بغية إخبار الجميع بما حدث، وهو سلاح لم يرَ في المنزل قبلًا. لا تبدو هذه بداية محتملة جدًّا، صحيح؟

– صحيح، لا تبدو كذلك.

– حسنًا، ثم: اتفق الجميع على أنه وبعد إطلاق الإنذار بدقيقة واحدة على الأكثر كان كل سكان البيت –لا السيد سيسيل باركر فحسب، رغم أنه يدعي كونَه أول الواصلين–

بل أيمس والجميع في مكان الحادثة. أتقول لي إنه وفي ذلك الوقت، تمكن المذنب من صنع آثار الأقدام في الركن، وفتح النافذة، ووضع علامات الدم على عتبتها، وأخذ خاتم الزواج من يد الميت، وكل شيء؟ هذا محال!

فقال هولمز: «لقد قدمت حجة واضحة جدًّا، وإني ميال إلى الاتفاق معك».

– حسنًا، إذًا فقد عُدنا إلى نظرية أن الفاعل شخص دخيل، وما زلنا في مواجهة بعض العراقيل الكبيرة؛ لكنها بأي حال لم تعد مستحيلات. دخل الرجل المنزل بين الرابعة والنصف والسادسة؛ أي بعبارة أخرى: بين الغروب ووقت رفع الجسر. جاء بعض الزوار، وكان الباب مفتوحًا؛ لذا لم يكن ثمة ما يعيقه. ربما كان لصًّا عاديًّا، وربما كان يحمل ضغينة شخصية إزاء السيد دوغلاس، وبما أن السيد قد أمضى معظم حياته في أمريكا، وهذه البندقية تبدو سلاحًا أمريكيًّا، فيبدو أن نظرية الضغينة الشخصية أكثر رجحانًا. انزلق إلى الغرفة لأنها كانت أول غرفة في طريقه، واختبأ خلف الستارة حيث بقي حتى تجاوزت الساعة الحادية عشرة ليلًا. دخل السيد دوغلاس الغرفة في ذلك الوقت، وكانت المقابلة بينهما وجيزة، هذا إن جرت مقابلة من الأساس؛ لأن السيدة دوغلاس تقول إن زوجها لم يغِب عنها أكثر من بضع دقائق عندما سمعت صوت الطلقة.

قال هولمز: «هذا واضح من الشمعة».

– تمامًا، الشمعة التي كانت جديدة، ذائب منها الآن أكثر من نصف إنش. لا بدّ أنه ثبتها على الطاولة قبل أن تجري مهاجمته؛ وإلا لكانت سقطت معه حينما سقط بالطبع، وهذا يعني أيضًا أنه لم يتعرض للهجوم لحظة دخوله الغرفة. عندما وصل السيد باركر كانت الشمعة مشتعلة والفانوس مُطفأ.

– كل هذا على قدر كافٍ من الوضوح.

– حسنًا، والآن يمكننا إعادة بناء الأمور وفق هذه الخطوط؛ يدخل السيد دوغلاس الغرفة، يضع الشمعة، يظهر رجل من خلف الستارة، وهو مسلح بهذه البندقية، يطالب بخاتم الزواج، والله وحده يعلم لمَ، لكن لا بدّ أن هذا ما حدث، يُعطيه السيد دوغلاس الخاتم، ثم إما بدماء باردة أو في سياق تنازُع – إذ ربما أمسك دوغلاس المطرقة التي وُجدت على البساط – يُطلق النار على دوغلاس بهذه الطريقة الفظيعة، ويُلقي البندقية. كما يبدو أنه ألقى معها هذه البطاقة الغريبة أيضًا –و.ف. 341، أيًّا كان ما قد يعنيه هذا– ثم فرَّ عبر النافذة متجاوزًا الخندق في ذات لحظة اكتشاف سيسيل باركر الجريمة، ما رأيك بهذا يا سيد هولمز؟

– شائق جدًّا، لكنه غير مقنع بعض الشيء.

فصاح ماكدونالد: «يا رجل، سيكون الأمر هراءً مطلقًا إن لم يكن أي احتمال آخر أسوأ من ذلك! شخصٌ ما قتل هذا الرجل، وأيًّا مَن كان هذا الشخص، يمكنني أن أثبت لك بجلاء أنه كان حريًّا به قتله بطريقة أخرى. ماذا يقصد باختصار انسحابه هكذا؟ ماذا يقصد باستخدام بندقية في حين أن الهدوء فرصته الوحيدة للهرب؟ بربك يا سيد هولمز، إن إعطاءنا بداية الخيط أمر مرده إليك، بما أنك تقول إن نظرية السيد وايت ميسون غير مقنعة».

كان هولمز قد جلس منتبهًا باهتمام شديد خلال هذه المناقشة الطويلة، دون أن تغيب عنه كلمة واحدة مما قيل، مطلقًا عينيه الحادتين يمنة ويسرة، وجبهته يغضنها التفكير.

قال بينما يجثو بجوار الجثة: «أحتاج لبعض الحقائق الأخرى قبل أن أتوصل إلى نظريتي يا سيد ماك. يا إلهي! هذه الجراح رهيبة فعلًا. أيمكننا إدخال رئيس الخدم للحظة؟ أيمس، أأفهمُ أنك كثيرًا ما رأيت هذه العلامة الاستثنائية –وَسْمُ مثلث داخل دائرة– على ساعد السيد دوغلاس؟»

– مرارًا يا سيدي.

– ولم تسمع أي تخمين حول معناها قط؟

– لا يا سيدي.

– لا بدّ أن وسمها قد سبب له ألمًا شديدًا، فهي مكويّةٌ بالتأكيد. والآن يا أيمس، ألاحظُ قطعة صغيرة من شريط لاصق على زاوية فك السيد دوغلاس، فهل لاحظتها في حياته؟

– بلى يا سيدي، لقد جرح نفسه أثناء حلاقة ذقنه البارحة صباحًا.

– هل عرفتَ أنه جرح نفسه أثناء الحلاقة سابقًا؟

– كان ذلك منذ وقت طويل يا سيدي.

فقال هولمز: «هذا يوحي بشيء! ربما يكون محض صدفة، وربما يشير إلى انفعال عصبي يدل على امتلاكه سببًا يدفعه إلى خشية الخطر. ألاحظت أي شيء غير اعتيادي في سلوكه البارحة يا أيمس؟»

– أذكرُ أنه كان مشوشًا ومنفعلًا قليلًا يا سيدي.

– ها! لعل الاعتداء لم يكن عَرَضيًّا تمامًا. يبدو أننا نحقق بعض التقدم، أليس كذلك؟ أتفضّلُ تولّي الاستجواب يا سيد ماك؟

– لا يا سيد هولمز، إنه في يَدين أفضل من يديّ.

– حسنًا، إذًا سننتقل إلى موضوع البطاقة: و. ف. 341. إنها من الكرتون الخشن، ألديك أيٌّ من هذا النوع في المنزل؟

– لا أظن هذا.

مشى هولمز إلى المكتب في الطرف الآخر من الغرفة وقطَر قطرة حبرٍ من كل دواة على ورقة النشّاف، وقال: «لم تُكتب البطاقة في هذه الغرفة، فهذا حبر أسود والآخر مائل إلى الأرجواني، وقد كُتبت باستخدام قلم عريض الرأس، وهذه أقلام دقيقة. لا، عليّ القول إنها كُتبت في مكان آخر. أتفهم شيئًا من الكتابة يا أيمس؟»

– لا يا سيدي، لا شيء.

– ما رأيك يا سيد ماك؟

– إنها تعطيني فكرةً عن جماعة سرية من نوع ما؛ مثلما تفعل الشارة على ساعده.

فقال وايت ميسون: «تلك فكرتي أيضًا».

– حسنًا، يمكننا اعتمادها فرضية فاعلة ثم نرى إلى أي حد تتلاشى عقباتنا. يتمكن عميل تابع لجماعة كهذه من ولوج المنزل، وينتظر السيد دوغلاس، ويفجر رأسه إلى أشلاء تقريبًا بهذا السلاح، ثم يفرّ عابرًا الخندق بعد أن يترك بطاقة بجوار الميت، والتي حين يؤتى على ذكرها في الصحف، سيعرف بقية أعضاء المجتمع أن الانتقام قد أخذ مجراه. كل هذا يشكل وحدة متماسكة، لكن لمَ اختار هذا السلاح من بين كل الأسلحة؟

– بالضبط.

– وما تفسير الخاتم المفقود؟

– ولمَ لم يتم اعتقاله؟ لقد جاوزت الساعة الثانية الآن، وأنا أضمنُ أن كل شرطي ضمن نطاق أربعين ميلًا يبحث عن شخص غريب مبللٍ منذ الفجر.

– هذا ما يجري بالفعل يا سيد هولمز.

كان هولمز قد مشى إلى النافذة وأخذ يفحص علامة الدم على عتبتها مستخدمًا عدسته المكبرة، ثم قال: «حسنًا، لا يمكن أن يغفلوه إلا إذا كان لديه جحر قريب أو ملابس جاهزة، لكنهم أغفلوه حتى الآن! هذا دَوس حذاء بكل وضوح، وهو عريض على نحو بارز؛ أي يمكن التكهن أن لصاحبه قدمًا مسطحة. أمر غريب، لأنه ما دام بوسع المرء تقفي أثر أي طبعة قدم إلى هذه الزاوية الملطخة بالطين، فإنه ليتوقع أن يكون أثرًا لنعلٍ أحسن شكلًا، ومع ذلك، هذه الآثار غير واضحة بتاتًا. ما هذا الذي تحت الطاولة الجانبية؟»

قال أيمس: «إنها أثقال السيد دوغلاس».

– تقصد ثِقل السيد دوغلاس، لا يوجد إلا واحد، أين الآخر؟

– لا أدري يا سيد هولمز، ربما لم يكن هناك إلا واحد، فلم ألحظها منذ أشهُر.

«ثِقل واحد...» قال هولمز بجدية؛ لكن طرقة حادة على الباب قاطعت ملاحظاته.

نظر إلينا عند الباب رجل طويل حليق الوجه ذو مظهر قوي، ولم أواجه صعوبة في تخمين أنه سيسيل باركر الذي سمعتُ عنه. طافتْ عيناه البارعتان سريعًا بنظرة مساءلة بين الوجوه.

وقال: «آسفُ على مقاطعة مباحثاتكم، لكن يجب أن تسمعوا آخر الأخبار».

– اعتقال؟

– لم يحالفنا حظ كهذا بعد، لكنهم عثروا على دراجته الهوائية، فقد تركها خلفه. تعالوا وألقوا نظرة، إنها تبعد أقل من مئة ياردة عن الباب الداخلي.

وجدنا ثلاثة أو أربعة من ساسة الخيول والمتسكّعين في الطريق يتفحصون دراجة انتُشلت من دغل شجرات دائمة الخضرة كانت مخفية فيه. كانت دراجة من طراز رودج ويتوورث مستعملة استعمالًا طويلًا، وملطخة كما لو أنها خاضت رحلة جسيمة. وُجدَ عليها سرج فيه مفكّ ومِزيَتة، لكن لا دليل على مالكها.

قال المفتش: «ستكون هذه الأغراض ذات نفع عظيم للشرطة إذا ما كانت مرقّمة ومسجّلة، لكن علينا أن نكون شاكرين لما وجدناه، فإذا لم نستطع معرفة وجهة القاتل، بوسعنا على الأقل معرفة من أين جاء. لكن ما الذي دفعه لتركها خلفه بحق كل ما هو عجيب؟ وكيف بحقّ السماء فرّ بدونها؟ لا يبدو أن لدينا أي بصيص ضوء في هذه القضية يا سيد هولمز».

فأجاب صديقي بتمعُّن: «حقًا؟ أشكّ في ذلك!»

الفصل الخامس

أهلُ الفاجعة

سأل وايت ميسون حين دخلنا المنزل مجددًا: «أرأيتَم كل ما ترغبون برؤيته من المكتب؟»

فقال المفتش: «للوقت الراهن»، وأومأ هولمز.

– إذًا ربما ترغبُون في سماع إفادة بعض أهل المنزل، يمكننا استخدام غرفة الطعام يا أيمس، وأرجو أن تأتي أولًا وتخبرنا بما تعرف.

كانت حكاية رئيس الخدم بسيطة وواضحة، وأعطى انطباعًا مقنعًا بالصدق. شغل وظيفته قبل خمس سنوات، حينما جاء دوغلاس إلى بِرلستون أول مرة، وقد فهِم أنه رجل نبيل ثريّ جمع ماله في أمريكا. كان رب عمل لطيفًا ومتفهمًا، ليس ما كان أيمسُ معتادًا عليه تمامًا؛ لكن لا يمكن للمرء الظفر بكل شيء. لم يرَ أي علامات توجس على السيد دوغلاس قط، بل العكس، فقد كان أجسر الرجال الذين عرفهم على الإطلاق، وقد أمر برفع الجسر المتحرك كل مساء؛ لأنه تقليد قديم من تقاليد البيت العتيق، وكان يحب الحفاظ على التقاليد القديمة.

قلّما ذهب السيد دوغلاس إلى لندن أو غادر القرية؛ لكنه كان يتسوق في تونبريدج ويلز في اليوم السابق للجريمة. لاحظ أيمس بعض القلق والانفعال على السيد دوغلاس في ذلك اليوم؛ إذ بدا نزِقًا وقليل الصبر على غير عادته. لم يخلد إلى السرير في تلك الليلة، بل كان في غرفة المؤن في آخر المنزل يوضب الفضّيات حين سمع الجرس يُضرب بعنف. لم يسمع صوت الطلقة؛ فاحتمال أن يسمعها ضئيل جدًّا لكون غرفة المؤن والمطابخ في أقصى نهاية المنزل، وثمة أبواب مغلقة عدة وممرات طويلة بينها. كانت مدبرة المنزل قد خرجت من غرفتها بعد أن جذبها ضرب الجرس العنيف، وذهبا معًا إلى مقدمة المنزل.

عندما بلغا أسفل الدرج، رأى السيدة دوغلاس تهبطه. لا، لم تكن مستعجلة؛ ولم يبدُ عليها تأثر خاص، وحينما وصلتْ إلى الأسفل كان السيد باركر قد هرع خارجًا من المكتب وأوقفها متوسلًا إليها أن ترجع.

صاح قائلًا: «ارجعي إلى غرفتك حبًّا بالله! جاك المسكين مَيْت! ولا شيء يمكنك فعله. بالله عليك ارجعي!».

رجعتْ السيدة دوغلاس بعد عدة محاولات لإقناعها على الدرج. لم تصرخ، ولم تفتعل ضجة أيًّا كانت. أخذتها السيدة آلن، مدبرة المنزل، إلى الطابق العلوي وبقيت معها في غرفة النوم. عاد أيمس والسيد باركر إلى المكتب حيث وجدا كل شيء كما رأته الشرطة بالضبط. لم تكن الشمعة مشتعلة في ذاك الوقت؛ لكن الفانوس كان متقدًا، فنظرا خارجًا من النافذة؛ لكن الليل كان حالكًا جدًّا ولم يكن بالإمكان رؤية أي شيء أو سماع شيء. ثم هرعا إلى الردهة حيث أدار أيمس المِرفاع الذي أنزل الجسر المتحرك، وأسرع السيد باركر بعد ذلك إلى قسم الشرطة.

هكذا كانت إفادة رئيس الخدم في جوانبها الأساسية.

أما حكاية السيدة آلن، مدبرة المنزل، فكانت –بقدر ما سَرَدَت منها– تأييدًا لحكاية زميلها الخادم. غرفة المدبرة أقرب إلى مقدمة المنزل من غرفة المؤن التي كان أيمس يعمل فيها، وكانت تتجهّز للنوم حينما نبهها رنُّ الجرس الصاخب. هيَ ثقيلة السمع بعض الشيء، وربما لهذا السبب لم تسمع صوت الطلقة؛ لكن المكتب كان بعيدًا جدًّا بأي حال. تذكّرَتْ أنها سمعت صوتًا ما تخيلَتْه صفقَ باب، وكان هذا أبكرَ، قبل قرع الجرس بنصف ساعة على الأقل. عندما أسرع السيد أيمس إلى المقدمة ذهبت معه، ورأت السيد باركر يخرج من المكتب شاحبًا وشديد الانفعال، واعترضَ السيدة دوغلاس التي كانت تهبط الدرج، فاستحلفها العودة وأجابت طلبه، لكن لم يكن ما قالتْه مسموعًا.

قال للسيدة آلن: «خذيها إلى الأعلى! وابقي معها!»

أخذَتْها بالتالي إلى غرفة نومها، وحاولت تهدئتها. كانت مضطربة أشد الاضطراب، والرعشة تخضّ جسدها بأكمله، لكنها لم تحاول النزول مرة أخرى، وكان حسبها الجلوس برداء نومها بجوار موقد غرفتها دافنة وجهها بين يديها. بقيَتْ السيدة آلن معها معظم الليل. أما عن بقية الخدم، فكانوا قد خلدوا إلى الفراش كلهم ولم يتنبهوا إلا قبل وصول الشرطة بقليل، إذ كانوا ينامون في أقصى غرف المنزل، حيث لا يمكن أن يسمعوا شيئًا.

لم يكن بمقدور مدبرة المنزل إضافة أي شيء أكثر من هذا إلى الاستجواب الحضوري إلا النحيب وتعابير الذهول.

تلا السيدة آلن في الشهادة سيسيل باركر، وبالنسبة لمجريات الليلة السابقة، فلم يكن لديه إلا القليل جدًّا لكي يضيفه على ما كان قد أخبر به الشرطة بالفعل. كان مقتنعًا بصفة شخصية أن القاتل فرّ عبر النافذة، فرأيه عن الموضوع أن لطخة الدماء دليل حاسم، إلى جانب أنه ولكون الجسر مرفوعًا، لا يوجد طريق آخر محتمل للهروب. لم يكن بوسعه تفسير مصير القاتل أو لمَ لم يأخذ دراجته، إذا ما كانت دراجته فعلًا،

وليس ممكنًا أن يكون قد غرق في الخندق الذي لا يتجاوز عمقه ثلاثة أقدام في أي نقطة.

كان قد شكل نظرية حاسمة جدًّا في رأيه الشخصي عن القاتل، فدوغلاس رجل متكتّم، وثمة فصول من حياته لم يتكلم عنها قط. هاجر إلى أمريكا وهو صغير جدًّا، وازدهر جيدًا، والتقى بباركر للمرة الأولى في كاليفورنيا، حيث صارا شريكين في منطقة تعدين مرخصة ناجحة في مكان يدعى أخدود بينيتو. أنجزا عملًا جيدًا جدًّا؛ لكن دوغلاس باع حصته بالكامل فجأة وانطلق إلى إنجلترا، وكان أرمل آنذاك. جنى باركر ماله بعدئذٍ وجاء ليعيش في لندن، وهكذا جددا صداقتهما.

أعطاه دوغلاس انطباعًا بأن خطرًا ما يتهدده، ودائمًا ما اعتبرَ مغادرته المفاجئة إلى كاليفورنيا، وكذلك استئجاره منزلًا في مكان بهذا الهدوء من إنجلترا، أمرين متعلقَين بهذا الخطر. كان يتصور أن جماعة سريةً أو منظمة حاقدة ما تتعقب دوغلاس، وأنها لن يهنأ لها بال حتى تقتله. أعطته بعض تعليقات الأخير هذه الفكرة؛ رغم أنه لم يطلعه قَط على ماهية هذه الجماعة ولا طريقة إساءته إليها، ولم يكن بمقدوره إلا افتراض أن النقش على البطاقة يشير بطريقة ما إلى هذه الجماعة السرية.

سأله المفتش ماكدونالد: «كم من الوقت قضيتَ مع دوغلاس في كاليفورنيا؟»

– خمس سنوات معًا.

– قلتَ إنه كان عازبًا؟

– بل أرمل.

– هل سمعتَ شيئًا عن مسقط رأس زوجته قط؟

– لا، سمعته يقول إنها من نسب ألماني، ورأيت صورة لها. كانت امرأة جميلة جدًّا وتوفيت بالتيفوئيد قبل أن ألتقيه.

– ألا يمكنك ربط ماضيه بأي جزء محدد من أمريكا؟

– سمعته يتكلم عن شيكاغو، وكان يعرف المدينة جيدًا لأنه عمِلَ فيها، وتكلم أيضًا عن مقاطعة الفحم والحديد. كان كثير السفر في أيامه.

– أكان رجل سياسة؟ وهل لهذه الجماعة السرية أي علاقة بها؟

– لا، لم يكن في السياسة ما يهمه.

– أليس لديك أي سبب للاعتقاد أنه كان مجرمًا؟

– على العكس، لم أقابل طوال حياتي رجلًا أكثر استقامة منه.

– هل كان ثمة شيء مثير للفضول بالنسبة لحياته في كاليفورنيا؟

– كانت الإقامة بين الجبال والعمل فيها أكثر شيء يفضله، ولم يكن ليذهب لمكان فيه رجال آخرون على الإطلاق لو أمكنه ذلك، وهذا ما سبَّب ظني أول الأمر بأن شخصًا ما يطارده، ثم غادر فجأة إلى أوروبا فتأكدتُ أن ثمة شيئًا من هذا القبيل. أعتقدُ أنه تلقى تحذيرًا من نوعٍ ما، فقد جاء ستة رجال يحققون في أمره في غضون أسبوع من مغادرته.

– رجال من أي نوع؟

– حسنًا، لقد كانوا زمرة جبابرة ذوي مظهر خشِن، جاؤوا إلى أرضنا وأرادوا معرفة مكانه، فأخبرتهم بأنه غادر إلى أوروبا وأني لا أعرف مكانه. لم تكن نيتهم طيبة تجاهه، كان هذا واضحًا.

– هل كان هؤلاء الرجال أمريكيين؟ كاليفورنيّين؟

– حسنًا، لا أعرف ما إذا كانوا كاليفورنيّين، لكنهم كانوا أمريكيين بالتأكيد، بيدَ أنهم ليسوا عمّال مناجم. لم أعرف ماهيتهم، لكن سرَّني جدًّا أن أراهم يغادرون.

– كان هذا منذ ست سنوات؟

– أقرب إلى السبع.

– ثم قضيتم خمس سنوات معًا في بِرلستون، إذًا يعود هذا الأمر لإحدى عشرة سنة على الأقل؟

– هذا صحيح.

– لا بدّ أنها ضغينة في غاية الثقل حتى تُحمَل بهذه الجدية طوال هذه المدة، ولن يكون أمرًا تافهًا ذاك الذي أيقظها.

– أعتقد أنها كدّرت حياته بأكملها، ولم تخرج من ذهنه تمامًا البتّة.

– لكن إذا كان ثمة خطر يتهدّد رجلًا ما، وكان هذا الرجل يعرف ماهيته، ألا تعتقد أنه كان ليلجأ إلى الشرطة طلبًا للحماية؟

– ربما كان خطرًا لا يمكن حمايته منه. ثمة شيء يجب أن تعرفه؛ هوَ أنه كان يتحرك مسلحًا طوال الوقت، ولم تفارق طبنجته جيبه قط، لكنه ولسوء الحظ كان مرتديًا رداء نومه تاركًا طبنجته في غرفة النوم ليلة البارحة. أعتقد أنه ظن نفسه في مأمنٍ بعد رَفع الجسر.

فقال ماكدونالد: «أرغب في استيضاح هذه التواريخ قليلًا بعد: مرّت ست سنوات تقريبًا منذ غادر دوغلاس كاليفورنيا، ولحِقتَ به في العام التالي، أليس كذلك؟»

– هذا صحيح.

– وهو متزوج منذ خمس سنوات، إذًا لا بدّ أنك رجعتَ نحوَ وقت زيجته.

– قبلها بشهر تقريبًا. كنتُ وَصيفه.

– هل عرفتَ السيدة دوغلاس قبل زواجها؟

– لا لم أعرفها، كنتُ قد أمضيتُ عشر سنوات خارج إنجلترا.

– لكنك رأيتها كثيرًا منذ ذاك الوقت.

نظر باركر بصرامة إلى المحقق، وأجاب: «لقد رأيتهُ كثيرًا منذ ذاك الوقت، وإن كنتُ قد رأيتها، فذلك لأنه لا يمكنك زيارة رجلٍ دون معرفة زوجته، وإن كنتَ تتصوّر وجودَ أي رابطة...».

– أنا لا أتصوّر شيئًا يا سيد باركر، أنا ملزمٌ بطرح كل سؤال قد يؤثر في القضية، لكني لا أقصد أي إساءة.

فأجاب باركر بسُخط: «بعض الأسئلة مسيء».

– لا نريد إلا الحقائق، ومن مصلحتك ومصلحة الجميع أن يجري استيضاحها. هل كان السيد دوغلاس راضيًا قلبًا وقالبًا عن صداقتك مع زوجته؟

ازداد باركر شحوبًا، وانقبضت يداه الضخمتان القويتان معًا بشيء من التشنج، وصاح: «ليس لك الحقّ في أن تسأل سؤالًا كهذا! ما علاقة هذا بالمسألة التي تحققُ فيها؟»

– أنا مُلزم بإعادة السؤال.

– حسنٌ، وأنا أرفض الإجابة.

– يمكنك أن ترفض الإجابة؛ لكن يجب أن تكون مدركًا أن رفضكَ يُعَد إجابةً في حد ذاته، لأنك ما كنتَ لترفض لو لم يكن ثمة ما تخفيه.

وقف باركر لوهلة متجهّم الوجه مُخفضًا حاجبيه الأسودين القويين في تفكّرٍ حاد، ثم رفع رأسه مبتسمًا، وقال: «حسنًا، أظن أنكم تقومون بواجبكم الخالص فقط في النهاية أيها السادة، وليس من حقّي الوقوف في طريقه. لن أطلب منكم سوى أن لا تُقلقوا السيدة دوغلاس بهذه المسألة؛ فلديها ما يثقل كاهلها بما فيه الكفاية الآن. لعلّي أخبركم

أن شائبةً لم تشُب دوغلاس التعِس على الإطلاق إلا غِيرَته، فقد كان مولعًا بي لدرجة أن لا رجل يمكن أن يكون مولعًا بصديقه أكثر، وكان مخلصًا لزوجته. كان يحب أن أزوره هنا، ودائمًا ما كان يرسل في طلبي، ومع ذلك، كانت تعبره موجة غيرة إذا ما تكلمتُ مع زوجته أو بدا بعض الانسجام بيننا، فتثور ثائرته ويطلق أكثر الألفاظ جموحًا في لحظة. أقسمتُ أكثر من مرة بأنني لن آتي لذلك السبب، لكنه كان يكتب لي رسائل نادمة متوسّلة فأصيرُ مضطرًّا إلى المجيء. لكن صدقوني عندما أقول لكم أيها السادة، حتى وإن كان هذا آخر أقوالي، إن رجلًا لم يحظَ بزوجة أكثر حنانًا وإخلاصًا منه، ويمكنني القول أيضًا إن صديقًا لا يمكن أن يكون أكثر وفاءً مني!».

قال ما قاله بتأجج وإحساس، لكن لم يكن المفتش ماكدونالد قادرًا على ترك الموضوع رغم ذلك.

وقال: «هل أنت مدركٌ أن خاتم زواج المتوفى نُزِع من إصبعه؟».

فقال باركر: «هكذا يبدو».

- ماذا تقصد بقولك «يبدو»؟ أنت تعرف أن هذه حقيقة.

بدا الرجل مرتبكًا وحائرًا.

- عندما قُلت «يبدو»، كنتُ أرمي إلى احتمالية خلعه الخاتم بنفسه.

- إن مجرّد حقيقة غياب الخاتم، أيًّا كان مَن انتزعه من إصبعه، من شأنها أن توحي للذهن بأن الزواج والمأساة متصلان، أليس كذلك؟

هز باركر كتفيه العريضتين، وأجاب: «لا يمكنني الادعاء بأنني أعرف معنى ذلك، لكن إن كنتَ تقصد التلميح إلى أنه قد يمس بشرف هذه السيدة بأي طريقة...» -التهبتْ عيناه لبرهة، لكنه ضبط مشاعره الشخصية بجهد بيّن- «حسنًا، أنت تسير في الاتجاه الخاطئ إذًا، هذا كل ما في الأمر».

فقال ماكدونالد ببرود: «لا أظن أن لديّ لك أي أسئلة أخرى في الوقت الراهن».

عقّب شيرلوك هولمز: «ثمة نقطة صغيرة واحدة: عندما دخلتَ الغرفة لم يكن فيها إلا شمعة مضاءة على الطاولة، أليس كذلك؟»

- بلى، هذا ما كان.

- وعلى ضوئها رأيتَ أن حادثًا رهيبًا قد حدث؟

- تمامًا.

- وضربت الجرس على الفور طلبًا للمساعدة.

– بلى.

– وقد وصَلَتْ على جناح السرعة؟

– خلال دقيقة أو نحو ذلك.

– لكنهم حينما وصلوا وجدوا الشمعة مطفأة والفانوس موقَدًا. هذا يبدو غريبًا جدًّا.

مجددًا، أظهر باركر بعض علامات الارتباك، وأجاب بعد وَقفة: «لستُ أراه غريبًا يا سيد هولمز، فقد كان ضوء الشمعة ضعيفًا جدًّا، وأول ما مرَّ ببالي أن أجيء بإضاءة أفضل منها، والفانوس كان على الطاولة؛ لذا أشعلتُه».

– وأطفأت الشمعة؟

– بالضبط.

لم يسأل هولمز أي سؤال آخر، وبعد أن نقّل باركر نظرة مستقصية بيننا واحدًا واحدًا، والتي، كما بدا لي، حملت شيئًا من التحدي، استدار وخرج من الغرفة.

كان المفتش ماكدونالد قد أرسل خطابًا إلى الطابق العلوي مفاده أنه سينتظر السيدة دوغلاس في غرفتها؛ لكنها أجابت بأنها ستلتقينا في غرفة الطعام. دخلت علينا، وكانت امرأة طويلة جميلة في ثلاثينياتها، محتشمة ووقورة إلى درجة استثنائية، ومختلفة جدًّا عن الشخصية البائسة والمشتتة التي تخيلتُها. صحيحٌ أن وجهها كان شاحبًا ومرهقًا كوجه مَن تحمّل صدمة عظيمة؛ لكنّ صورتها كانت رزينة، ويدها الرفيعة التي أراحتها على حافة الطاولة كانت ثابتة بقدرِ يدي. تنقّلت عيناها الحزينتان الفاتنتان بيننا واحدًا واحدًا، يعلوهما تعبير متسائل على نحو غريب، وفجأة حولتْ هذه النظرة المسائلة نفسها إلى خطاب فجّ.

سألت: «هل توصلتم إلى شيء حتى الآن؟»

أكان من وحي خيالي أن سؤالها حملَ مسحةَ خوف بدلًا عن الأمل؟

قال المفتش: «لقد اتخذنا كل إجراء ممكن يا سيدة دوغلاس، ويمكنك الراحة مطمئنة أن لا شيء سيُهمل».

فقالت بصوتٍ هادئٍ هامِد: «لا توفّر مالًا، إن رغبتي أن يُبذل كل جهد ممكن».

– لعل بوسعك إخبارنا شيئًا من شأنه إلقاء بعض الضوء على القضية.

– لا أعتقد ذلك؛ لكن كل ما أعرفه تحت تصرفكم.

– عرفنا من السيد سيسيل باركر أنك لم ترَي المأساة بعينِك في الواقع، أي إنك لم تدخلي الغرفة التي حدثت فيها قط، صحيح؟

– صحيح، فقد ردّني على الدرج، وتوسّل إلي أن أعود لغرفتي.

– جيد. سمعتِ الطلقة، ونزلتِ على الفور.

– ارتديتُ رداء نومي ثم نزلت.

– كم مضى من الوقت بعد أن سمعتِ الطلقة حتى أوقفك السيد باركر على الدرج؟

– دقيقتان ربما، إذ يصعب تقدير الوقت في لحظة كهذه. توسّلَ إليّ ألا أتابع المضيّ، وجزمَ لي أن لا شيء يمكنني فعله، ثم قادتني السيدة آلن مدبرة المنزل إلى الطابق العلوي مجددًا. كان كل شيء مثل كابوس مريع.

– أيمكنك إعطاؤنا أي فكرة عن المدة التي قضاها زوجك في الأسفل قبل سماعك الطلقة؟

– لا، أعجز عن ذلك، فقد ذهب من غرفة تبديل ملابسه ولم أسمعه يخرج. كان يقوم بجولة في المنزل كل يوم؛ لأنه كان يخشى نشوب حريق، وهوَ الشيء الوحيد الذي عرفتُ أنه يخشاه قط.

– تلك هي النقطة التي أردتُ بلوغها تمامًا يا سيدة دوغلاس، لقد عرفتِ زوجكِ في إنجلترا فقط صحيح؟

– بلى، نحن متزوجان منذ خمس سنوات.

– هل سمعتِه يتحدث عن أي شيء حدث في أمريكا وقد يسبب تربُّصَ خطر ما به؟

فكرت السيدة دوغلاس بجدية قبل أن تجيب، وقالت أخيرًا: «بلى، لطالما شعرتُ أن خطرًا ما كان يتهدّده، ورفض مناقشته معي. لم يكن ذلك بسبب قلة ثقته بي –فقد كان بيننا أتمّ الحب والثقة– بل كان بسبب رغبته في إبعاد أي قلق عني. كان يعتقد أنني سأقلق وأفكر كثيرًا إذا ما عرفتُ كل شيء، لذا ظل صامتًا».

– إذًا كيف عرفتِ؟

أضاءت ابتسامة سريعة وجه السيدة دوغلاس: «أيمكن لزوجٍ أبدًا أن يحمل سرًّا طوال حياته دون أن تشتبه امرأة تحبّه بماهية هذا السر؟ عرفتُ ذلك من رفضه الحديث عن بعض وقائع حياته الأمريكية، وكذلك من بعض الإجراءات الوقائية المعينة التي كان يتخذها، عرفتُه من كلمات سقطت منه سهوًا، ومن الطريقة التي كان ينظر بها إلى الغرباء غير المنتظرين. كنتُ على يقين تام بأن لديه أعداء عُتاة، وبأنه يعتقد أنهم

يتعقبونه، ودائمًا ما كان يحترس منهم. كنتُ متأكدة من ذلك لدرجة أنني ولسنوات كنتُ أهلع إذا ما رجع إلى المنزل في وقت متأخر عن المتوقع».

سأل هولمز: «هل لي أن أسأل ما كانت الكلمات التي جذبت انتباهك؟»

أجابت السيدة: «وادي الذُّعر؛ كان هذا التعبير الذي استخدمه حينما ساءلتُه. قال: «كنتُ في وادي الذعر، ولم أخرج منه بعد»، وسألته عندما رأيته أكثر جدية من المعتاد: «ألن نخرج البتة من وادي الذُّعر؟»، فأجاب: «أحيانًا أظن أننا لن نخرج أبدًا»».

– وقد سألتِه عن قصده بوادي الذُّعر بالتأكيد، أليس كذلك؟

– فعلتُ؛ لكنه أخذ يهزّ رأسه وصار وجهُه أكثر قتامة، وقال لي: «يكفي أن أحدنا قد رزح تحت وطأة ظله، وإني أتضرّع إلى الله ألا يسقط هذا الظل عليكِ!». كان واديًا حقيقيًّا عاش فيه، وتعرَّض هناك لأمر فظيع؛ أنا متأكدة من ذلك، لكن ليس بوسعي أن أخبرك بالمزيد.

– ولم يذكر أي أسماء قط؟

– بلى، كان يهذي بفعل الحمّى بعد حادث الصيد الذي أصابه منذ ثلاث سنوات، وأذكرُ اسمًا نطَقه حينها عدة مرات. كان يقوله بنبرة غاضبة يتخللها شيء من الرعب، وهو ماكجينتي؛ الرئيس ماكجينتي، وحينما استرد عافيته سألته من هو الرئيس ماكجينتي، ورئيس مَن يكون، فأجابني ضاحكًا: «ليس رئيسي والحمد لله!»، وهذا كل ما تمكنت من استخراجه منه، لكن ثمة صلة بين الرئيس ماكجينتي ووادي الذُّعر بالتأكيد.

فقال المفتش ماكدونالد: «هناك نقطة أخرى، لقد التقيتِ بالسيد دوغلاس في بنسيون في لندن وخطبكِ هناك، صحيح؟ هل كانت هناك أية قصة حب، أي شيء سري أو غامض فيما يخص الزواج؟»

– كان ثمة قصة حب، دائمًا ما توجد قصة حب، لكن لا شيء غامض.

– ألم يكن لديه منافس؟

– لا، كنت حرةً تمامًا.

– لقد سمعتِ لا شكّ أن خاتم زواجه مفقود، فهل يوحي إليك هذا بأي شيء؟ وعلى فرضٍ أن عدوًّا ما من حياته السابقة قد تقفى أثره وارتكب الجريمة، فأي سبب قد يدفعه لأخذ خاتم زواجه؟

لوهلةٍ، أمكنني أن أُقسم بأنّ شبح ابتسامة خافتة جدًّا أخذ يرتعش على شفتي المرأة.

وأجابت: «حقًّا لا أعرف، إنه أمر شديد الغرابة من دون شكّ».

فقال المفتش: «حسنًا، لن نؤخرك أكثر من ذلك، ونعتذر عن إزعاجك في وقت كهذا. ثمة نقاط أخرى حتمًا؛ لكننا سنرجعُ إليكِ حين تطرأ».

نهضَت، وأحسستُ مرة أخرى بتلك النظرة السريعة المسائلة التي فحصتنا بها، وكأنها تسألنا: «أيّ انطباع تركَته إفادتي عليكم؟»، ثم انحنَت وانسحبَت من الغرفة.

قال ماكدونالد بتفكُّر بعد أن انغلقَ الباب خلفها: «إنها امرأة جميلة، جميلة جدًّا، وكان هذا الرجل باركر يأتي إلى هنا كثيرًا دون شك. هوَ رجل قد تجده النساء جذابًا، وهو يعترف أن الميت كان غيورًا، ولربما يعرف جيدًا في قرارة نفسه سبب غيرته. ثم هناك خاتم الزواج، وهو أمر لا يمكن التغاضي عنه. الرجلُ الذي يخلع خاتم زواج من يد رجل ميت... ما قولك في هذا يا سيد هولمز؟»

كان صديقي جالسًا ورأسه متكئ على يديه غارقًا في أعمق أفكاره، فنهض ورنّ الجرس، وقال بعدما دخل رئيس الخدم: «أين السيد سيسيل باركر الآن يا أيمس؟».

- سأرى يا سيدي.

وعاد بعد لحظة ليقول إن باركر في الحديقة.

- أيمكنكَ تذكر ما كان السيد باركر ينتعله ليلة البارحة عندما انضممتَ إليه في المكتب يا أيمس؟

- بلى يا سيد هولمز، كان ينتعل خفّي غرفة النوم، وقد جلبتُ له جزمته عندما ذهب ليستدعي الشرطة.

- أين الخفّان الآن؟

- ما زالا تحت الكرسي في الردهة.

- جيد جدًّا يا أيمس، فمن المهم لنا بالطبع أن نعرف أي آثار هي للسيد باركر وأيها من الخارج.

- أجل يا سيدي، ويمكنني القول إنني لاحظت كونَ الخفين ملطخين بالدم، وكذا كان خفاي في الحقيقة.

- هذا طبيعي جدًّا بالنظر إلى حالة الغرفة. جيد جدًّا يا أيمس، سنضرب الجرس إذا ما احتجنا إليك.

بعد عدة دقائق كنا في المكتب، وكان هولمز قد جلب معه خفاف السجادة من الردهة، وكما لاحظ أيمس، كان نعلا كليهما ملطخين بالدم.

غمغم هولمز بعد أن وقف في ضوء النافذة وعاينها بدقة: «غريب! غريب جدًّا حقًّا!»

انحنى منقضًّا في واحدة من انقضاضاته السريعة الماكرة، واضعًا الخف فوق علامة الدم على عتبة النافذة، فتطابقا تمامًا، وابتسم لزملائه ابتسامة صامتة.

تبدلَت هيئة المفتش وخضّها الحماس، وجلجلتْ لكنته الأصلية مثل عصاة تمر على قضبان درابزين.

وهتف: «الأمر حتميّ يا رجل! لقد علّم باركر النافذة بنفسه. العلامة أعرض بكثير من علامة أي حذاء، وأذكر قولكَ إنها قدم مسطحة، وها هوَ التفسير، لكن ما اللعبة يا سيد هولمز؟ ما اللعبة؟»

فردّد صديقي بتمعّن: «نعم، ما اللعبة؟»

قهقه وايت ميسون وفركَ يديه السمينتين ببعضهما في رضًا مهنيّ، وصاح: «لقد قلتُ إنها فريدة جدًّا! وقد تبين أنها فريدة جدًّا بحق!».

الفصل السادس

ضوءٌ بازغ

كان لدى المحققين الثلاثة العديد من المسائل والتفاصيل ليتحروها؛ لذا عدتُ وحدي إلى غرفنا المتواضعة في نُزُل القرية، لكن قبل أن أفعل هذا، ذهبت في جولة إلى الحديقة عتيقة الطراز المتاخمة للمنزل. تزنّرت الحديقة بصفوف من شجرات الطقسوس بالغة القِدم والمقصوصة إلى أشكال غريبة، وكان بداخلها بساط عشبي جميل في وسطه ساعة شمسية قديمة، وأعطى كل شيء أثرًا مهدئًا ومريحًا رحبت به أعصابي المشدودة إلى حد ما.

في ذلك الجو المسالم حتى أعماقه، يمكن للمرء أن ينسى المكتب المكفهرّ والجسد المسجى على أرضيته مضرجًا بدمائه، أو ربما يتذكره ككابوس مذهل فحسب، لكن وبينما كنتُ أتجول فيها، وأحاول غمس روحي في بلسمها الناعم، حدث حادث غريب أعادني إلى المأساة وتركَ أثرًا مشؤومًا في ذهني.

قلتُ سابقًا إن الحديقة كانت مسوّرة بصفوف من شجرات الطقسوس. في الطرف الأبعد عن المنزل، تزايدت كثافة هذه الشجرات لتصير سياجًا نباتيًّا متصلًا، وعلى الناحية الأخرى من هذا السياج، كان ثمة مقعد حجري مخفي عن عيني أي شخص يأتي من ناحية المنزل، أدركتُ مع اقترابي من تلك البقعة سماعي أصواتًا؛ كلامٌ ما قيل بنغمات عميقة صادرة عن رجل، أُجيب بموجة ضحك أنثوية صغيرة.

وصلتُ إلى نهاية السياج بعد بُرهة ووقعت عيناي على السيدة دوغلاس والرجل المدعو باركر قبل أن يعيا وجودي. سبّب مظهرها صدمة لي، فقد كانت محتشمة رصينة في غرفة الطعام، أما الآن فاندثر كل تظاهر بالحزن فيها، وأشرقت عيناها ببهجة الحياة، وارتعش وجهها تسليةً إثر كلام ما قاله رفيقها. كان جالسًا منحنيًا إلى الأمام شابكًا يديه ومتكئًا بساعديه على ركبتيه، وتعلو وجهه الجريء الجميل ابتسامة عفوية. استعادا في لحظة واحدة قناعيهما الكئيبين حينما لاح وجهي من بعيد، لكنها كانت لحظة متأخرة جدًّا، وتبادلا كلمة أو اثنتين على عجل، ثم نهض باركر وتقدم باتجاهي.

وقال: «المعذرة يا سيدي، ألستَ الدكتور واتسون؟»

انحنيتُ ببرودةٍ أظهرَتْ، مثلما أفترض، الأثر الذي تملّك عقلي بوضوح جليّ.

- كنّا نعتقدُ أن هذا أنت على الأرجح، فصداقتكَ بالسيد شيرلوك هولمز شهيرة جدًّا. أتمانع المجيء والتكلم مع السيدة دوغلاس للحظة؟

تبعتُه بوجه كالحٍ، فقد كنتُ أرى بعين عقلي ذاك الجسد المهشّم الممدد على الأرض بغاية الوضوح، وها هُنا بعد عدة ساعات من المأساة أرى زوجته وأعز أصدقائه يضحكان معًا خلف دغل في الحديقة التي كانت حديقته. حيّيتُ السيدة بتحفظ، فقد حزنتُ لحزنها في غرفة الطعام، والآن أرى نظرتها الفاتنة بعين هاملة.

قالت: «أخشى أنك تظنني قاسية وغليظة القلب».

فهززتُ كتفيّ وقلت: «الأمر لا يخصّني».

- ربما تُنصِفني يومًا ما، لو أنك تدرك وحسب...

فقال باركر سريعًا: «لا حاجة لأن يدرك الدكتور واتسون، فكما قال بلسانه: الأمر لا يمكن أن يخصّه».

قلتُ: «بالضبط، ولهذا أستأذنكما في المغادرة لأستأنف مشواري».

فهتفت المرأة بصوت محتجّ: «لحظة يا دكتور واتسون؛ ثمة سؤال واحد يمكنك الإجابة عليه جوابًا موثوقًا أكثر من أي شخص في العالم، وقد يشكل فارقًا عظيمًا جدًّا بالنسبة لي. أنتَ تعرف السيد هولمز وعلاقاته مع الشرطة أكثر من الجميع، فعلى فرض أنه أُطلع على مسألة ما بصورة سرية، هل هوَ مضطرٌ حتمًا إلى إطلاع المحققين عليها؟»

قال باركر بلهفة: «أجل، هذا هو الموضوع، أهوَ مستقلّ أم يعمل معهم كليًّا؟»

- لا أعرف حقًّا ما إذا كان مسموحًا لي مناقشة نقطة كهذه.

- أرجوك، أستحلفكَ أن تفعل يا دكتور واتسون! أجزم لكَ أننا بحاجة لمعاونتك، وستساعدني كثيرًا لو أنك أرشدتنا حول هذه النقطة.

كان ثمة رنّة صدق في صوت المرأة جعلتني أنسى رعونتها في لحظة وأندفع إلى تحقيق رغبتها.

قلت: «السيد هولمز محقق مستقل، هو سيد نفسه، ويتصرف بحسب ما يتوجه حُكمه الخاص، وفي الوقت نفسه، هو يشعر بالولاء تجاه الضباط الذين يعملون على القضية نفسها، ولم يكُن ليخفي عنهم أي شيء من شأنه مساعدتهم على إخضاع مجرم لحكم العدالة. لا يمكنني الإضافة على ما قُلت، وسأوجهكما إلى السيد هولمز نفسه إذا أردتما معلومات أكثر».

قلتُ هذا ورفعتُ قبعتي ومضيتُ في طريقي، تاركًا إياهما جالسَين خلف ذاك السياج الساتِر. نظرتُ خلفي بعد أن بلغتُ الطرف الأقصى من الحديقة، ورأيتهما ما يزالان يتحادثان بجدية بالغة، ومن متابعتهما إياي بنظرهما، كان واضحًا أن مقابلتنا الصغيرة هي موضوع نقاشهما.

قال هولمز عندما أبلغتُه بما حدث: «لا أرغب بشيء من أسرارهما». كان قد أمضى الظهيرة بأكملها في القصر يتشاور مع زميليه، وعاد في نحو الساعة الخامسة بشهيّة نِهمة لوجبة شاي كنتُ قد طلبتها له. «لا أسرار يا واتسون؛ فسيكونان مُحرجَين أشد الإحراج إذا ما بلغ الأمر الاعتقال بتهمة التآمر والقتل».

– أتظنّ أن الأمر سيبلغ هذا الحد؟

كان مزاجه في أقصى البشاشة والمَرَح، وقال: «يا عزيزي واتسون، عندما أقضي على تلك البيضة الرابعة، سأكون مستعدًّا لإطلاعك على مجريات الوضع بأكمله. لستُ أقول إننا فهمناه، لكن بعيدًا عن ذلك، وقتما تعقبنا الثِّقل المفقود...»

– الثِّقل!

– يا إلهي، أيُعقل أنك لم تنفُذ إلى حقيقة كونِ القضية قائمة على الثقل المفقود يا واتسون؟ حسنًا حسنًا، لا داعيَ لأن تغتمّ؛ فبيني وبينك لا أظن أن أيًّا من المفتش ماك أو المختصّ المحليّ الممتاز قد أحكم قبضته على الأهمية العارمة لهذه الواقعة. ثِقل واحد يا واتسون! تخيّل رياضيًّا بثقل واحد! تصوّر في رأسك التطور أحادي الجانب، والخطر المتوقّع لحدوث انحناء في العمود الفقري. الأمر صادم يا واتسون، صادم!

جلَس بفمٍ ملآن بالخبز المحمص وعينين تقدحان خبثًا يراقب ارتباكي الفكريّ. كان منظر شهيته المفتوحة لوحده تأكيدًا على النجاح، إذ أذكرُ جيدًا قضاءه أيامًا بلياليها دون أن يفكر بالطعام، حينما كان عقله الحائر يصارع مشكلةً ما، في حين تصير ملامحه الحادة المتلهفة ألطفَ بفعل التقشّف الذي يفرضه التركيز الذهني الكامل. أشعل غليونه أخيرًا، وبدأ الحديث، وهو جالسٌ في ركن الموقد الخاص بالنزل القروي القديم، بأناة وعشوائية عن قضيته على نحوٍ أقرب إلى شخصٍ يفكّر بصوت عالٍ من شخصٍ يدلي ببيان مدروس.

«كذبةٌ يا واتسون، إننا على أعتاب كذبة بليغة وكبيرة وبدينة وواضحة وعنيدة! وتلك نقطة بدايتنا. القصة التي يرويها باركر كذبة بأكملها، لكن السيدة دوغلاس تؤيد قصة باركر، وعليه فهي كاذبة أيضًا. كلاهما كاذب ومتآمر، وهكذا يصير لدينا مشكلة واضحة: لمَ يكذبان؟ وما الحقيقة التي يحاولان جاهدين إخفاءها؟ فلنحاول أنا وأنت يا واتسون، ولنرَ ما إذا كان بوسعنا تخطي الكذبة وإعادة إنشاء الحقيقة.

كيف أعرفُ أنهما يكذبان؟ لأنها مخادعة خرقاء لا يمكنها ببساطة أن تكون صادقة. تأمّل! وفق القصة التي قُصت علينا: كان أمام القاتل أقل من دقيقة بعد ارتكابه الجريمة لكي ينتزع الخاتم الذي كان تحت خاتم آخر من إصبع الميت، ويعيد الخاتم الآخر – وهو أمر لم يكن ليفعله بكل تأكيد – ويضع البطاقة الفريدة بجوار ضحيته، وهذا برأيي مستحيل بصورة جليّة.

قد تُجادِل بأن الخاتم ربما نُزع قبل قَتل الرجل، لكني أكنّ احترامًا كبيرًا لحُكمك يمنعني من الظن بأنك ستفعل ذلك يا واتسون، فحقيقة كون الشمعة لم تشتعل إلا وقتًا وجيزًا تثبت غياب أي مواجهة طويلة، ومما سمعناه عن شخصية دوغلاس الجسور، أتعتقد أنه كان رجلًا يُرجح أن يتخلى عن خاتم زواجه في مدة قصيرة كهذه؟ أو هل تتصوّر أنه قد يتخلى عنه أصلًا؟ لا، لا يا واتسون، لقد حظي القاتل ببعض الوقت وحيدًا مع الميت والفانوس متّقد، ولا شكّ عندي في هذا على الإطلاق.

لكن طلقة البندقية هي سبب الوفاة في ظاهر الأمر، وبالتالي لا بدّ أنها قد أُطلقت في وقتٍ سابق لما قيل لنا، غير أن مسألة كهذه لا تحتمل الخطأ، ما يعني أننا في حضرة مؤامرة مدروسة رسمها الشخصان اللذان سمعا صوت الطلقة، أي الرجل باركر والمرأة دوغلاس، وحين أتمكن فوق كل هذا من إظهار كون علامة الدم التي على عتبة النافذة قد وُضعت عمدًا من قِبل باركر، لتضليل الشرطة بدليل زائف، ستُقرُّ بأن القضية تُضيّق الخناق عليه.

الآن علينا أن نسأل نفسينا في أي ساعة حدثت الجريمة حقًّا؟ حتى الساعة العاشرة والنصف كان الخدم ما يزالون يتحركون بداخل المنزل؛ لذا لم تكن قبل ذلك الوقت قطعًا، وفي الحادية عشرة إلا الربع كانوا قد ذهبوا كلهم إلى غرفهم باستثناء أيمس، الذي كان في غرفة المؤن. حاولتُ بعض التجارب بعد أن ترَكتَنا هذه الظهيرة، ووجدتُ أن لا ضجة أحدثها ماكدونالد في المكتب أمكنها النفاذ إليّ في غرفة المؤن في حال كانت كل الأبواب مغلقة.

يختلف الأمر مِن غرفة مدبرة المنزل مع ذلك، إذ إنها ليست بعيدة في الممر، وأمكنني مِنها سماع الصوت على نحو مُبهم حين رُفع لدرجة صاخبة على نحو ما، وصوت البندقية ينكتم إلى حد ما حين تُطلق من مدى قريب جدًّا، مثلما هي الحال في هذه الحادثة دون شك، لذا لن يكون صخبه شديدًا، لكنه سينفذ بسهولة إلى غرفة السيدة آلن في هدأة الليل، والسيدة آلن، مثلما أخبرَتْنا، صمّاء نوعًا ما؛ لكنها رغم ذلك ذكرت في إفادتها سماع صوتٍ يشبه صفق باب قبل ضرب الإنذار بنصف ساعة، وقبل ضرب الإنذار بنصف ساعة يعني أن الساعة كانت الحادية عشرة إلا الربع. لا شكّ لديّ في أن ما سمعَتْه هو دويّ البندقية، وأن هذه هي لحظة الجريمة الحقيقية.

إذا كان هذا ما حدث، يصبح علينا أن نحدد ما كان باركر والسيدة دوغلاس -على فرض أنهما ليسا القاتلين- يفعلانه بين الحادية عشرة إلا ربعًا، وقتما أنزلهما صوت الطلقة إلى الأسفل، والحادية عشرة والربع، وقتما ضربا الجرس واستدعيا الخدم. ما الذي كانا يفعلانه؟ ولمَ لم يطلقا الإنذار على الفور؟ هذا هو السؤال الذي يواجهنا، وحينما نجد إجابته ستساعدنا في حل مشكلتنا بكل تأكيد».

قُلت: «أنا عن نفسي مقتنع بوجود تفاهم ما بين هذين الاثنين، ولا بدّ أن تكون هذه المرأة مخلوقًا متحجّر القلب لكي تجلس ضاحكةً على دعابة ما بعد بضع ساعات من مقتل زوجها».

- تمامًا، وهي لا تتألق بصفتها زوجة حتى في روايتها الشخصية للأحداث. لستُ معجبًا من قلبي بجنس النساء كما تعلمُ يا واتسون، لكن خبرتي في الحياة علمتني أن قلة من النساء، اللاتي يكننّ أي احترام لأزواجهنّ، كُنّ ليسمحن لكلمة قالها أي رجل بالحيلولة بينهنّ وبين جثة زوجهنّ الميت، وإذا ما تزوجتُ يومًا ما يا واتسون، آملُ أن أثير في زوجتي بعض المشاعر التي تمنعها من المغادرة مع مدبرة المنزل بينما ترقد جثتي بعيدةً عنها بضع ياردات. لقد جرى إخراج المشهد على نحو سيئ؛ فحتى أكثر التحقيقات سذاجة لا بدّ أن تستغرب غياب الولولة الأنثوية المعتادة، وحتى لو لم يكن ثمة أي شيء آخر، فإن هذه الحادثة لوحدها كانت لتوحي إلى ذهني بوجود مؤامرة مُعدة مسبقًا.

- إذًا تعتقدُ أن باركر والسيدة دوغلاس قطعًا مذنبان بجرم القتل؟

فقال هولمز وهو يشير بغليونه ناحيتي: «ثمة صراحة مرعبة في سؤالك تأتيني مثل الرصاص يا واتسون، فلو قلتَ إن السيدة دوغلاس وباركر يعرفان حقيقة الجريمة ويتآمران لإخفائها، لأمكنني منحك إجابة قلبية، لأنني متأكد من ذلك، لكن اقتراحك الأكثر فتكًا ليس واضحًا جدًّا، فدعنا نتأمل العراقيل التي تقف في طريقنا للحظة.

- سنفترض أن هذا الثنائي تجمعه رابطة الحب الأثيم، وأنهما قد قررا التخلص من الرجل الذي يقف بينهما، وهذا افتراض ضخم؛ لأن الاستجواب الحذر للخدم وغيرهم قد فشل في تأييده بأية طريقة ممكنة، بل على العكس، إذ ثمة الكثير من الأدلة على أن دوغلاس وزوجته كانا متعلقين جدًّا ببعضهما.

فقلتُ وأنا أفكر بالوجه الجميل المبتسم في الحديقة: «أنا متأكد من أن هذا ليس صحيحًا على الإطلاق».

- حسنًا، لقد أعطيا هذا الانطباع على الأقل، ومع ذلك، سنفترض أنهما ثنائي ذكي بصورة استثنائية وتمكنا من خداع الجميع فيما يتعلق بهذه النقطة، ويتآمران لقتل

الزوج، وصادف أنه رجل يتربص به خطر ما...

– لا دليل لدينا على ذلك إلا من كلامهما.

بدا هولمز مستغرقًا في التفكير. «فهمتُ يا واتسون، أنت تنشئ نظرية يكون وفقها كل ما قالاه منذ البداية زورًا، فبحسبِ فكرتِك: لم يكن ثمة أي تهديد، أو جماعة سرية، أو وادي ذعر، أو الرئيس فلان، أو أي من ذلك قطّ. حسنٌ، هذا تعميم ساحقٌ وجيِّد، فدعنا نرى إلى أين سيؤدي بنا. لقد اخترعا هذه النظرية لتفسير الجريمة، ثم تصرّفا وفقًا لهذه الفكرة وتركا دراجة هوائية في المنتزه لكي تكون دليلًا على وجود دخيل ما، واللطخة على عتبة النافذة توصل الفكرة نفسها، وكذلك البطاقة التي وضعت فوق الجثة، والتي ربما جُهِّزت بداخل المنزل. كل هذا يتوافق مع نظريتك يا واتسون، لكن تواجهنا الآن القطع البغيضة الجلفة العنيدة التي لن تطاوع أماكنها: لمَ البندقية المقصوصة من بين كل الأسلحة؟ ولمَ واحدة أمريكية؟ أنّى لهما هذه الثقة أن صوتها لن يستجلب أحدًا؟ إنها صدفة بحتة، تمامًا كعدم انطلاق السيدة آلن لتحري أمر الباب المصفوق، الذي هو صدفة أخرى. لم فعلَ ثنائيكَ الآثم كل هذا يا واتسون؟»

– أعترف أنني عاجز عن تفسير ذلك.

– ثم مجددًا، إذا ما تآمرت امرأة وعشيق على قتل زوج، فهل سيُذيعان إثمهما بتفاخُر عبر نزع خاتم زواجه بعد الوفاة؟ هل ترى هذا أمرًا محتملًا يا واتسون؟

– لا، لا أراه محتملًا.

– وأيضًا، إذا ما خطرت لك فكرة ترك دراجة مخفية بالخارج، هل كانت لتبدو جديرة بالتنفيذ حقًّا حين يكون بوسع أبلدِ المحققين معرفة أنها خدعة واضحة بطبيعة الحال، كَون الدراجة أول ما يحتاجه الفار لتأمين فراره؟

– لا يمكنني تصور أي تفسير.

– ومع ذلك، لا يجب أن توجد تركيبة أحداث لا يمكن لفطنة الإنسان تصوّر تفسير لها. دعني أشير إلى مسار تفكيرٍ مُحتمل باعتباره تمرينًا ذهنيًّا بسيطًا، دون أي تأكيد على كونه صحيحًا. أعترف أنه محض تخيُّل، لكن كم مرة كانت المخيلة أمَّ الحقيقة؟

سنفترض أن ثمة سرًّا آثمًا، سرًّا مُخزيًا حقًّا في حياة هذا الرجل دوغلاس، قاد إلى قتله على يد شخص ما سنفترض أنه مُنتقم، وهو شخص من خارج المنزل. أخذ هذا المنتقم خاتم زواج الميت لسبب لا أزال مفتقدًا لتفسيره. من الجائز أن يكون الثأر عائدًا إلى زواج الرجل الأول، وأن الخاتم تم انتزاعه بسبب ذلك.

وصل باركر والزوجة إلى الغرفة قبل أن يلوذ المنتقم بالفرار، فأقنعهما بأن أية محاولة لاعتقاله ستفضي إلى إشاعة فضيحة شنيعة ما، فانقلبا إلى هذه الفكرة وفضلا تركه يرحل. على الأرجح أنهما أنزلا الجسر لهذا السبب، الأمر الذي يمكن فعله بلا ضوضاء تقريبًا، ومن ثم رفعاه مجددًا. أمّن القاتل طريق هروبه، ولسبب ما اعتقد أن فراره سيرًا على الأقدام أكثر أمانًا منه على الدراجة، فترك مركبته حيث لن تُكتشف حتى يكون بعيدًا وآمنًا. ما زلنا حتى الآن في حدود الممكن، صحيح؟

فقلتُ ببعض التحفُّظ: «حسنًا، هذا ممكن بلا شك».

– علينا أن نتذكر يا واتسون أن ما حدث –مهما كان– هو أمر خارج عن المعتاد بالتأكيد، والآن لنكمل قضيتنا الخياليّة: أدرك الثنائي –وليسا بالضرورة ثنائيًّا مذنبًا– بعد فرار القاتل أنهما قد وضعا نفسيهما في موقف يصعب لهما فيه إثبات أنهما لم يفعلا الفعلة بأيديهما ولا تآمرا فيها، فعالجا الأمر بطريقة سريعة وخرقاء بعض الشيء، وضع باركر العلامة بخُفِّه الملطخ بالدم على عتبة النافذة، ليوحي بطريقة فرار القاتل. من الواضح أنهما كانا الشخصين اللذين لا بدّ سمعا صوت البندقية؛ لذا أطلقا الإنذار تمامًا كما كانا سيفعلان، لكن بعد الحدث بنصف ساعة قيّمة.

– وكيف تقترح إثبات كل ذلك؟

– حسنًا، إن كان ثمة دخيل، فقد يجري تعقبه والقبض عليه ويكون هذا أكثر دليل دامغ وفعال بين الأدلة، وإن لم يكن، فالقدرة العلمية لا يمكن استنزافها، وأعتقد أن أمسية أقضيها وحدي في المكتب كفيلة بمساعدتي كثيرًا.

– أمسية لوحدك!

– أقترحُ الذهاب إلى هناك على الفور، فقد رتبت الأمر مع المحترم أيمس، وهو غير مخلصٍ لباركر على الإطلاق. سأجلس في الغرفة وأرى ما إذا كان جوّها سيلهمني، فأنا مؤمن بروح المكان. يمكنك الابتسام يا صديقي واتسون، سنرى. بالمناسبة، جلبتَ معك مظلّتك الكبيرة تلك؟

– إنها معي.

– حسنًا، سأستعيرها إذا أمكن.

– بالطبع، لكن يا لها من سلاح بائس! إذا كان ثمة خطر...

– لا شيء خطر يا عزيزي واتسون، وإلا لكنتُ طلبتُ مساعدتك بكل تأكيد، لكنني سآخذ المظلّة. إنني منتظرٌ حاليًّا عودة زميلينا من تونبريدج ويلز، حيث يحاولان في الوقت الراهن العثور على مالك محتمل للدراجة.

هبط الليل قبل أن يرجع المفتش ماكدونالد ووايت ميسون من بعثتهما؛ وصلا فرحين، وأخذا يفيدان بتحقيق تقدم عظيم في الاستطلاع.

قال ماكدونالد: «يا رجل، أعترف أني كنت أشك بوجود دخيل أصلًا، لكن هذا صار في الماضي الآن، فقد تحققنا من هوية الدراجة، وصار لدينا وصف لرجلنا المنشود؛ وهكذا نكون قطعنا شوطًا طويلًا من رحلتنا».

فقال هولمز: «يبدو لي الأمر وكأنه بداية النهاية، وأهنئكما بالطبع من أعماق قلبي».

– حسنًا، بدأت من حقيقة أن السيد دوغلاس بدا مضطربًا منذ اليوم السابق، وقتما كان في تونبريدج ويلز، إذًا فقد وَعى لوجود خطر ما فيها، بالتالي صار واضحًا أنه في حال جاء أحدهم راكبًا دراجة فمن المتوقع أن يكون قادمًا من تونبريدج ويلز. أخذنا الدراجة معنا وصرنا نعرضها في الفنادق، فتعرف عليها فورًا مالك فندق إيغل كوميرشال باعتبارها ملك رجل يدعى هارغريف كان قد استأجر غرفة هناك قبل يومين. كانت الدراجة وحقيبة صغيرة تشكلان كامل ممتلكاته، وقد سجل اسمه على أنه قادم من لندن لكنه لم يسجل عنوانًا. كانت الحقيبة من صناعة لندنية، ومحتوياتها بريطانية؛ لكن الرجل نفسه كان أمريكيًّا دون شك.

قال هولمز ببهجة: «جميل جميل، لقد قمتَ بعملٍ ممتاز حقًّا بينما كنتُ جالسًا أدوّر النظريات مع صديقي! هذا درسٌ في العمليّة يا سيد ماك».

فقال المفتش ماك برضى: «أجل، إنه كذلك تمامًا يا سيد هولمز».

عقبتُ قائلًا: «لكن قد ينسجم كل هذا مع نظرياتِك».

– قد ينسجمُ وقد لا ينسجم، لكن دعنا نسمع النهاية يا سيد ماك، ألم تجد شيئًا يساعد في تحديد هوية هذا الرجل؟

– قليل جدًّا، فقد كان واضحًا أنه حصّن نفسه بحذر ضد تحديد الهوية. لم نجد أي أوراق أو رسائل، ولم تحمل الملابس أية علامات. كان ثمة خريطة دراجات للمقاطعة مبسوطة على طاولة غرفة نومه، وكان قد غادر الفندق بعد الفطور صباح البارحة، ولم يُسمع عنه شيء حتى بدأت تحقيقاتنا.

فقال وايت ميسون: «هذا ما يربكني يا سيد هولمز، فإن المرء ليتصوّر أن الرجل كان سيرجع إلى الفندق ويبقى فيه مثل أي سائح مسالم إذا لم يرغب في إثارة اللغط من حوله، أما على هذه الحال، فلا بدّ أنه يعرف أن مدير الفندق سيبلغ عنه الشرطة، وأن اختفاءه سيُربط بالجريمة».

– هذا ما كان المرء ليتصوره، ومع هذا، يُشهَد له بالفطنة لكونه لم يُلقَ القبض عليه حتى الآن بأي حال. لكن بالنسبة لأوصافه، ماذا عنها؟

أشار ماكدونالد إلى مفكرته: «لدينا إياها هنا بقدر ما استطاعوا شرحها. لم يبدُ أنهم علقوا أية أهمية شخصية عليه؛ لكن رغم ذلك، فقد اتفق البواب، والسكرتير، وعاملة خدمة الغرف على أن هذه تفي بالغرض تقريبًا: كان رجلًا طوله نحو خمسة أقدام وتسع بوصات، في الخمسين أو نحو ذلك، شعره أشيب قليلًا، وله شارب يميل إلى الرمادي، وأنف معقوف، ووجه وصفه جميعهم بأنه شرس ومنفِّر».

فقال هولمز: «حسنًا، باستثناء سيمائه، قد يكون هذا وصفًا تقريبيًّا لدوغلاس نفسه، فهو فوق الخمسين بقليل، وشعره وشاربه أشيبان، وفي نفس الطول تقريبًا، أحصلتَ على غير هذا؟»

– كان مرتديًا بذلة رمادية ثقيلة وسترة، وفوقها معطف أصفر وقبعة خفيفة.

– وماذا عن البندقية؟

– كان طولها أقل من قدمين، ومن الممكن أن تتسع حقيبته الصغيرة لها على نحو ممتاز، وكان بوسعه حملها داخل معطفه دون مشقة.

– وكيف يؤثر كل هذا على القضية العامة برأيك؟

قال ماكدونالد: «حسنًا يا سيد هولمز، حينما نقبض على رجلنا المنشود –ولكَ أن تتأكد أنني قد عممتُ هذه الأوصاف عبر التلغراف بعد سماعي إياها بخمس دقائق– سنكون قادرين على الحكم على نحو أفضل، وحتى في الظروف الحالية، فقد قطعنا شوطًا طويلًا، إذ صرنا نعرف أن رجلًا أمريكيًّا يدعو نفسه هارغريف جاء إلى تونبريدج ويلز قبل يومين برفقة دراجة هوائية وحقيبة صغيرة، حاملًا في الأخيرة بندقية صيد مقصوصة؛ أي إنه جاء بغرض مدروسٍ هو الجريمة. انطلق صباح البارحة إلى هذا المكان على دراجته، مُخفيًا بندقيته في معطفه. لم يره أحد حين وصل بقدر ما عرفنا؛ لكنه لم يكن مضطرًّا إلى عبور القرية ليصل إلى بوابات الحديقة، وثمة العديد من الدراجين على الطريق. على ما يبدو أنه قد أخفى الدراجة فورًا بين شجرات الغار حيث وُجدت، وربما كمَن نفسه هناك مترصدًا المنزل، ومنتظرًا خروج السيد دوغلاس، فالبندقية سلاح مُستغرب استخدامه داخل المنزل؛ لكنه كان ينوي استخدامه خارجًا حيث يكون له ميزات بدهية جدًّا، مثل استحالة الإخفاق في إصابة الهدف، والشيوع الكبير لصوت الطلقات في حي إنجليزي رياضي لدرجة أن أحدًا لن ينتبه إلى هذه بالتحديد».

قال هولمز: «كل هذا واضح جدًّا».

– حسنًا، لم يظهر السيد دوغلاس، فما كانت خطوته التالية؟ ترك دراجته واقترب من المنزل في الظلام، ووجد الجسر مخفوضًا ولا أحد قريب، فاستغل الفرصة وفي نيته اختلاق عذر ما إذا ما قابل أحدهم دون شك. لم يقابل أحدًا، فانزلق إلى أول غرفة رآها، واختبأ خلف الستارة، لذا استطاع رؤية الجسر يُرفع، وعرف أن عبور الخندق هو مفرّه الوحيد. انتظر حتى الحادية عشرة والربع، حين جاء السيد دوغلاس إلى الغرفة في أثناء جولته الليلية المعتادة، فأطلق النار عليه وفرَّ كما هو مُعدّ. عرف أن طاقم الفندق سيصف الدراجة وأن هذا سيكون دليلًا ضده؛ لذا تركها هناك وانطلق بوسيلة أخرى إلى لندن أو إلى مخبأ آمن آخر كان قد جهّزه مسبقًا، ما رأيك بهذا يا سيد هولمز؟

– حسنٌ يا سيد ماك، هذا جيد جدًّا وواضح جدًّا حتى الآن، وهو نهاية القصة بالنسبة إليك، أما بالنسبة لي، فالجريمة قد ارتُكبت قبل نصف ساعة من الوقت الذي أُبلغنا فيه؛ والسيدة دوغلاس وباركر مشتركان في مؤامرة لإخفاء شيء ما؛ وقد أعانا القاتل في فراره –أو على الأقل وصلا إلى الغرفة قبل فراره– ولفّقا دليل هروبه عبر النافذة، وفي أغلب الظن هما من خفض الجسر له وتركاه يذهب. هذه قراءتي للنصف الأول.

هزّ المحققان رأسيهما.

وقال المفتش اللندنيّ: «حسنًا يا سيد هولمز، إن كان هذا صحيحًا، فإننا لا نفعل شيئًا إلا التشَقلُب من لغز إلى آخر».

وأضاف وايت ميسون: «وإلى لغز أوخَم نسبيًّا. لم تذهب السيدة إلى أمريكا في حياتها، فأي رابطة قد تجمعها بقاتل أمريكي وتدفعها إلى حمايته؟»

قال هولمز: «أعترف بالصعوبات صراحةً، وأقترح أن أقوم بتحرٍّ صغير بمفردي هذه الليلة، قد يساهم بشيء في القضية المشتركة».

– أيمكننا مساعدتك يا سيد هولمز؟

– لا لا! رغباتي بسيطة: الظلمة ومظلة الدكتور واتسون، وأيمس، أيمس المخلص، الذي سيغض النظر عني دون شك. كل خطوط تفكيري تقودني عودةً إلى السؤال الأوحد الثابت: ما الذي يدفع رجلًا رياضيًّا إلى تطوير بنيته معتمدًا على أداة غير طبيعية مثل ثِقل مفرد؟

عاد هولمز من رحلته الانفرادية في وقت متأخر من تلك الليلة، وكنا ننام في غرفة ذات سريرين هي أفضل ما تمكن ذاك النُّزُل الريفي الصغير من تأمينه لنا. كنتُ نائمًا بالفعل حينما أيقظني دخوله إلى حد ما.

غمغتُ: «حسنًا يا هولمز، هل اكتشفتَ شيئًا؟»

وقفَ بجواري صامتًا وحاملًا شمعته بيده، ثم انحنت قامته الطويلة النحيلة ناحيتي وهَمَس: «أتخاف النوم في غرفة واحدة مع معتوه، مع رجل مصاب بِلِين الدماغ، مع أبله فقد عقله؟»

فأجبت بذهول: «على الإطلاق».

فقال: «آه، من حسن الحظ»، ولم ينبس بكلمة أخرى في تلك الليلة.

الفصل السابع

الحل

بعد فطور الصباح التالي، وجدنا المفتش ماكدونالد ووايت ميسون جالسين يتشاوران في صالة الاستقبال الصغيرة الخاصة برقيب الشرطة المحلي. كانت على الطاولة أمامهما كومة من الرسائل والبرقيات التي كانا يفرزانها ويلخّصانها بحذر، وقد وضعا جانبًا ثلاثةً منها.

سأل هولمز بمَرح: «أما زلتما تتعقبان الدراجة المُضلِّلة؟ ما آخر أخبار البربريّ؟»

أشار ماكدونالد بأسفٍ إلى ركام المراسلات خاصته.

– أُبلغ عن وجوده حاليًّا في ليستر، ونوتينغهام، وساوثامبتون، وديربي، وإيستهام، وريتشموند، وأربعة عشر مكانًا آخر. حُدد بوضوح في ثلاثة منها هي إيستهام وليستر وليفربول، واعتُقل بالفعل. يبدو أن البلاد مليئة بالفارين المرتدين معاطف صفراء.

فقال هولمز بتعاطف: «يا الله! الآن يا سيد ماك، وأنت يا سيد وايت ميسون، أرغب بإسدائكما نصيحة جدية للغاية. حينما انضممتُ إلى هذه القضية معكما، ساومتُكما على أنني لن أقدّم لكما نظريات نصف مثبتة كما تذكران، وإنما سأحتفظ بأفكاري الخاصة وأعمل عليها حتى أرضى عنها وأقتنع تمامًا بصحّتها، ولهذا السبب لن أخبركما الآن كل ما يدور في رأسي. لكنني قلتُ إني سألعب اللعبة بنزاهة معكما، ولا أظنها نزاهةً أن أسمح لكما بإهدار طاقتيكما سدًى للحظة واحدة على مهمة عديمة الجدوى. لذا أنا هنا لأنصحكما في هذا الصباح، ونصيحتي لكما تتلخّص في ثلاث كلمات: انصرفا عن القضية».

حدق ماكدونالد ووايت ميسون بدهشة إلى زميلهما الشهير.

صاح المفتش: «أنت تراها ميؤوسًا منها!»

– أرى حجتكما ميؤوسًا منها، ولا أرى الوصول إلى الحقيقة ميؤوسًا منه.

– لكن راكب الدراجة ليس مخترَعًا اختراعًا، فلدينا أوصافه، وحقيبته، ودراجته، ولا بد أن الشخص في مكان ما، فلمَ لا نقبض عليه؟

– أجل أجل، هو في مكان ما دون شك، وسنقبض عليه حتمًا؛ لكني لن أدعكما تُهدرا طاقتيكما في إيستهام أو في ليفربول، فأنا واثق أن بوسعنا إيجاد طريق مختصر يؤدي

بنا إلى نتيجة.

انزعج المفتش وقال: «أنت تكتم شيئًا ما، وهذه ليست نزاهة من طرفك يا سيد هولمز».

– أنت تعرف الأساليب التي أعمل وفقها يا سيد ماك، لكنني سأكتم ذلك لأقصر وقتٍ ممكن. لا أرغب إلا في التأكد من التفاصيل التي لديّ بإحدى الطرائق، وهو أمر يمكن إنجازه بغاية اليُسر، ثم ألتفّ عائدًا إلى لندن تاركًا كل نتائجي طوع بنانكما تمامًا. أدين لكما بالكثير لتفعلا ذلك؛ إذ إنني لا أذكر دراسة أكثر تفردًا وتشويقًا من هذه بين جميع تجاربي.

– لا أفهم هذا أبدًا يا سيد هولمز، إذ رأيناك عندما عدنا من تونبريدج ويلز ليلة البارحة، وكنتَ على وفاق عام مع نتائجنا، فما الذي حدث منذ ذلك الحين ليعطيك فكرة جديدة تمامًا عن القضية؟

– حسنًا، بما أنك سألت، فقد قضيت بعض الساعات من ليلة البارحة في القصر، كما قلتُ لك إني سأفعل.

– ثم؟ ما الذي حدث؟

– آه، لا يمكنني منحك إلا جوابًا عامًّا جدًّا على هذا السؤال حاليًّا. بالمناسبة، كنتُ أقرأ قصة قصيرة لكنها واضحة ومشوقة عن البناء القديم، وعن شرائه بمبلغ متواضع جدًّا قدره بنس واحد من التباغ المحلي.

هنا أخرج هولمز رقعة صغيرة، مزوّقة برسوم تقريبية للقصر العتيق من جيب صدريته.

– يزداد التحقيق رفعةً حين يكون المرء في حالة تناغم شعوري مع الجو التاريخي المحيط به يا سيد ماك. لا تبدونّ عليك الضجر هكذا؛ فأنا أجزم لك أن حتى رواية بسيطة كهذه تثير نوعًا من الصور في ذهن المرء. اسمح لي أن أُريك عينة: «بتشييده في العام الخامس من عهد الملك جيمس الأول، وانتصابه فوق موقع بناء أقدم منه بكثير، يظهر قصر بِرلستون كواحد من أحسن الأمثلة الباقية على المساكن اليعقوبية المحاطة بخنادق...»

– أنت تسخر منا يا سيد هولمز!

– تؤ تؤ يا سيد ماك! هذه أول علامة انفعال أراها منك. طيب، لن آخذ الكلام بحرفه بما أن مشاعرك حول الموضوع بهذا الجموح، لكن حين أخبرك أن ثمة حكاية ما عن اتخاذ كولونيل برلماني للمكان في عام 1644، وعن اختفاء الملك تشارلز عدة أيام في

خضم الحرب الأهلية، وأخيرًا عن زيارة الملك جورج الثاني له، ستُقرُّ بأن هناك العديد من الجمعيات المهمة التي تربطها علاقة ما بهذا المنزل العتيق.

– لا أشك في هذا يا سيد هولمز، لكنه ليس من شأننا.

– ليس من شأننا؟ ليس من شأننا؟ إن اتساع الرؤية من أساسيات مهنتنا يا عزيزي السيد ماك، وغالبًا ما يكون تفاعل الأفكار والاستخدامات الملتوية للمعرفة على قدر عظيم من الأهمية. اعذر هذه الملاحظات من شخص رغم كونه جهبذًا في عالم الجريمة، ما يزال أكبر سنًّا بعض الشيء وربما أكثر خبرة من حضرتك.

فقال المحقق بودّ: «إنني أول من يعترف بهذا، وأعترف بأنك تبلغ النقطة التي تريد؛ لكن لديك طريقة ملتفة لعينة في فعل ذلك».

– حسنًا حسنًا، سأتجاوز التاريخ الماضي وأبدأ بحقائق أيامنا هذه. لقد عرجتُ البارحة كما قلتُ لك إلى القصر، ولم أقابل باركر ولا السيدة دوغلاس، إذ لم أرَ ضرورة لإقلاقهما؛ لكن سرّني سماع أن لوعة السيدة لم تكن بادية، وأنها شاركت في تناول وجبة عشاء ممتازة. كانت زيارتي مخصصة للسيد أيمس الطيب، الذي تبادلتُ معه بعض الودّ، وانتهى ذلك إلى سماحه لي بالجلوس وحدي في المكتب دون أن يخبر أحدًا.

هتفتُ: «ماذا! برفقة الجثة؟»

– لا لا، كل شيء مرتب ومنظم الآن، وقد أُبلغت أنك سمحت بذلك يا سيد ماك. كانت الغرفة في حالتها الطبيعية، وقضيت فيها ربع ساعة حافلة بالمعلومات.

– ماذا كنت تفعل؟

– حسنًا، كي لا أجعل من مسألة بسيطة لغزًا، كنت أبحث عن الثِّقل المفقود، فلطالما كان أمرًا جللًا في تقديراتي للقضية، وانتهيت إلى إيجاده.

– أين؟

– آه، هنا نصل إلى حافة المجهول. دعاني أتقدم قليلًا بعد، قليلًا جدًّا بعد، وأعدكما أنكما ستعرفان كل ما أعرفه.

فقال المفتش: «حسنًا، نحن ملزمان بالقبول بشروطك الخاصة، لكن حين يبلغ الأمر مبلغ قولِكَ لنا أن ننصرف عن القضية، فلمَ بحق الله علينا أن ننصرف عن القضية؟»

– لسبب بسيط يا عزيزي السيد ماك، هو أنكما لا تملكان أدنى فكرة عما تتحريان.

– إننا نتحرى مقتل السيد جون دوغلاس القاطن في قصر بِرلستون.

– بلى بلى، هذا ما تفعلانه، لكن لا تتكبدا عناء مطاردة السيد الغامض راكب الدراجة، أجزم لكما أن ذلك لن يساعدكما.

– إذًا ماذا تقترح أن نفعل؟

– سأخبركما بالضبط بما يجب أن تفعلاه، إذا كنتما تنويان فعله.

– حسنٌ، يتعين عليّ القول إنني لطالما وجدت لديك أسبابك الكامنة خلف كل أساليبك المُريبة، لذا سأفعل ما توصينا بفعله.

– وأنت يا سيد وايت ميسون؟

نقّل المحقق الريفي نظره عاجزًا من واحد إلى آخر، إذ كان هولمز وأساليبه جديدين عليه، وقال أخيرًا: «حسنًا، إذا كان هذا يرضي المفتش، فهو يرضيني».

فقال هولمز: «عظيم! حسنٌ جدًّا، سأوصي كليكما بنزهة ريفية لطيفة ومرحة. لقد سمعتُ أن الإطلالة من نتوء بِرلستون الجبلي على ويلد استثنائية للغاية، ولا شك أن بوسعكما تأمين الغداء من خان مناسب هناك؛ رغم أن جهلي بالريف يمنعني من نصحكما بواحد معين، وفي المساء، متعَب لكن سعيد…»

صاح ماكدونالد وهو ينهض غاضبًا من كرسيه: «لقد تعدى الأمر المزحة يا رجل!»

فقال هولمز وهو يربّت بمرح على كتفه: «حسنًا حسنًا، أمضِيا النهار كما تشاءان، افعلا ما يحلو لكما واذهبا أينما تريدان، لكن لاقياني هنا قبل الغروب مهما كلف الأمر، مهما كلف الأمر يا سيد ماك».

– هذا يبدو أكثر تعقّلًا.

– كانت نصيحة جيدة بمجملها؛ بيد أنني لا أصر ما دمتما موجودين حينما أحتاجكما، لكن الآن، وقبل أن نفترق، أريدك أن تكتب خطابًا للسيد باركر.

– ثم؟

– سأمليه عليك إن كنت ترغب، جاهز؟

– سيدي العزيز:

لقد عرَض لي أن من واجبنا تجفيف الخندق، آملين أننا قد نجد بعض الـ..

قال المفتش: «هذا مستحيل، لقد أجريت استكشافًا».

– تؤ تؤ! سيدي العزيز، أرجوك أن تفعل ما أطلبه منك.

– حسنًا، تابِع.

– ... آملين أننا قد نجد شيئًا ما مهمًّا لتحقيقاتنا. لقد قمتُ بالترتيبات اللازمة، وسيباشر العمال عملهم باكرًا صباح الغد لتحويل مجرى الجدول...

– محال!

– ... لتحويل مجرى الجدول؛ لذا اعتقدتُ أنه من الأفضل إيضاح الأمور مسبقًا.

والآن قُم بإمضائه، وارسله باليد نحو الساعة الرابعة، وعندها سنلتقي مجددًا في هذه الغرفة. فليفعل كل منا ما يشاء حتى ذلك الوقت؛ إذ أنني أجزم لكما أن هذا التحقيق قد بلغ وقفة محتومة.

كان ستار المساء ينسدل حينما اجتمعنا مجددًا. كان هولمز جديًّا جدًّا في سلوكه، وكان فضولي قد بلغ ذروته، في حين بدا على المحققين التوتّر والانزعاج.

قال صديقي عابسًا: «حسنٌ أيها السادة، إنني أطلب منكم الآن اختبار كل ما لديّ، وستحكمون بأنفسكم ما إذا كانت الملاحظات التي قمت بها تسوغ النتائج التي خلصتُ إليها. إنها لأمسية باردة، ولست أدري كم قد تطول حَملتنا؛ لذا أرجوكم أن تلبسوا أدفأ معاطفكم. أولويتنا هي أن نكون في أماكننا قبل أن يحلّ الظلام؛ لذا سننطلق حالًا بعد إذنكم».

مررنا على الحدود الخارجية لحديقة القصر حتى وصلنا مكانًا حيث توجد ثغرة في القضبان الحديدية المسيّجة لها فانزلقنا عبرها، ثم تبعْنا هولمز تحت ستار الظلمة إلى شجيرات تقبع قبالة الباب الرئيسي للجسر المتحرك تقريبًا، ولم يكُن الجسر مرفوعًا. جلس هولمز القرفصاء خلف ساتر من شجر الغار، وحذا ثلاثتنا حذوه.

سأل ماكدونالد بشيء من الفظاظة: «حسنًا، ماذا سنفعل الآن؟»

فأجاب هولمز: «نغمس أرواحنا بالصبر ونتحرّى الهدوء قدر الإمكان».

– لمَ نحن هنا في جميع الأحوال؟ أظن حقًّا أن عليك معاملتنا بقدر أكبر من الصراحة.

ضحك هولمز وقال: «يصرّ واتسون على كوني مسرحيًّا على أرض الواقع، فباطنتي تجود بلمسة فنان، وتطالب ملحّة بأداء حسن الإعداد. ستكون مهنتنا مهنة باهتة وشحيحة بالتأكيد يا سيد ماك إن لم نهيئ الأجواء بين الحين والآخر لتمجيد نتائجنا. بمَ تفيد المرء خاتمة مثل الاتهام الفجّ، والضربة الهمجية على الكتف؟ أما الاستنباط السريع، والحيلة الحاذقة، والتنبؤ المحنّك بالأحداث الآتية، والدفاع المنتصر عن النظريات الجريئة، أليست هي فَخَار عمل حياتنا وذريعته؟ لكَ أن تستمتع حاليًّا بسحر الحالة وترصّد الصيد، فأين التشويق إذا ما كنتُ دقيقًا كجدول زمني؟ لا أطلب إلا بعض الصبر يا سيد ماك، وسيتَّضح كل شيء أمامك».

فقال المحقق اللندنيّ بانقياد هزلي: «حسنٌ، آمل أن نبلغ الفَخَار والذريعة وبقية ما ذكرتَ قبل أن نلقى حتفنا بردًا».

كان لدى كل منا سبب وجيه لمشاركة التمنّي؛ فسهرتنا كانت مديدة ومريرة. هبطت الظلال على مهل معتّمة الوجه الطويل القاتم للمنزل القديم، وهبّ ضباب رطبٌ بارد من الخندق ارتعشت له عظامنا واصطكت بسببه أسناننا. كان ثمة فانوس وحيد يضيء المدخل وكرة ضوء ثابت في المكتب المشؤوم، وكل ما عدا ذلك كان معتمًا وساكنًا.

سأل المفتش أخيرًا: «كم سيطول هذا؟ وماذا نترقّب؟»

فأجاب هولمز ببعض الحدة: «لا أعرف أكثر مما تعرفونه عن طول هذا، ولو كان المجرمون يُجَدوِلون تحركاتهم مثل قطارات السكك الحديدية لكان ذلك مريحًا أكثر لجميعنا بكل تأكيد، أما عن ما نتـ.. حسنًا، ذاك هو ما نترقبه!»

عندما قال ذلك، حُجب الضوء الأصفر في المكتب بمرور شخص ما جيئة وذهابًا أمامه. كانت شجرات الغار التي كمَنّا بينها قبالة النافذة تمامًا ولا تبعد عنها أكثر من مئة قدم. كانت النافذة مفتوحة على مصراعَيها آنذاك ويصدر عن مفصّلاتها أزيز، وأمكننا رؤية شكل معتمٍ لرأس وكتفي رجل يحدق عبر الظلام. نظر خارجًا لعدة دقائق بطريقة مُسترقةٍ مُختلسة كمَن يريد أن يطمئن لكونه غير ملحوظ، ثم انحنى إلى الأمام، وأحسسنا في الصمت العارم بالتراكب الناعم للمياه المضطربة. بدا أنه يحرك الخندق مستخدمًا أداة كان يحملها بيده، ثم فجأة سحب شيئًا مثلما يسحب الصياد سمكة، شيئًا ضخمًا مدورًا حجب الضوء عندما جُر عبر النافذة المفتوحة.

فصاح هولمز: «الآن! الآن!»

صرنا كلنا على أقدامنا، نترنح خلفه بأطرافنا المتيبسة بينما ركض بسرعة عبر الجسر وضرب الجرس بعنف. سُمع صوت فتح أقفال من الطرف الآخر، ووقف أيمس المذهول في المدخل، فتجنبه هولمز دون أن ينبس بكلمة، وهرع وكلنا في أثره إلى الغرفة التي يشغلها الرجل الذي كنا نراقبه.

أوضح سراج الزيت على الطاولة ماهية الوهج الذي كنا نراه من الخارج، وصار الآن في يد سيسيل باركر الذي حمله ووجهه باتجاهنا حالما دخلنا، فأشعّ ضوءه على وجهه الحليق القوي الحازم وعينيه المُهدّدتين.

وهتفَ قائلًا: «ما معنى كل هذا بحق الشيطان؟ وإلامَ تسعون بأي حال؟»

أخذ هولمز نظرة سريعة على الغرفة، ثم انقضّ على صرّة مبلَّلة مربوطة بحبل كانت راقدة تحت طاولة الكتابة حيث حُشرت.

– هذا ما نسعى إليه يا سيد باركر، هذه الصرة المُثقّلة بالثِّقل، والتي رفعتَها للتوّ من قاع الخندق.

حدق باركر إلى هولمز والذهول يلوّن وجهه، وسأل: «كيف عرفت أي شيء عنها بحق السماء؟».

– ببساطة لأنني مَن وضعها هناك.

– أنت وضعتها هناك! أنت!

فقال هولمز: «ربما كان علي أن أقول: «أعدتُ وضعها هناك». أنت تتذكر أيها المفتش ماكدونالد، أنني صُدمت إلى حد ما بسبب غياب ثِقل واحد، ولفتُّ انتباهك إلى الأمر؛ لكنك وبسبب ضغط الأحداث الأخرى، بالكاد كان لديك الوقت لمنحه الاهتمام الذي كان ليمكنك من استخلاص الاستنتاجات. عندما تكون المياه قريبة وثمة ثقل مفقود، لا يكون افتراضًا بعيد الاحتمال أن شيئًا ما قد جرى إغراقه في الماء، وكانت الفكرة جديرة بالاختبار على أقل تقدير؛ لذا وبمساعدة أيمس الذي أدخلني إلى الغرفة، وخطاف مظلّة الدكتور واتسون، تمكنت ليلة البارحة من تصيّد هذه الصرّة وفحصها.

رغم ذلك، كان إثبات هوية واضعها هناك أولى أولوياتنا، وجرى إنجاز ذلك عبر حيلة بدهية جدًّا هي إعلان أن الخندق سيُجفف غدًا، والتي قطعًا ستحمل أيًّا كان من خبأ الصرة إلى سحبها في اللحظة التي يسمح له الظلام بفعل ذلك من غير ريب. لدينا ما لا يقل عن أربعة شهود فيما يتعلق بهوية الشخص الذي استغل الفرصة، وهكذا أعتقد أن الكلمة لك يا سيد باركر».

وضع هولمز الصرة المشبعة بالماء على الطاولة إلى جانب الفانوس وحلّ الحبل الذي يربطها، وأخرج منها ثِقلًا دحرجه إلى زميله القابع في الزاوية. أخرج منها بعد ذلك زوجًا من الأحذية، وعلّق مشيرًا إلى باطنها: «أمريكية، كما تلاحظون»، ثم مدد على الطاولة سكينًا طويلًا قاتلًا مغمدًا، وكشّف أخيرًا رزمة ملابس تضم مجموعة كاملة من الملابس التحتية، وجوارب، وبذلة تويدية رمادية، ومعطفًا أصفر قصيرًا.

عقب هولمز: «الملابس عادية، باستثناء المعطف الذي يعجّ باللمسات الموحية»، وحمله بلطف قبالة الضوء، «هنا، كما تلاحظون، مُد الجيب الداخلي إلى البطانة بهذه الطريقة ليمنح مساحة رحبة لبندقية الصيد المقطوعة، وشارة الخياط على الرقبة تقول: «نيل، تاجر ملابس، فيرميسا، الولايات المتحدة الأمريكية»، فأمضيت فترة ظهيرة مُنتجة في مكتبة مدير المدرسة، ووسعت معرفتي بإضافة حقيقة إليها تقول إن فيرميسا بلدة صغيرة مزدهرة على رأس واحد من أشهر وديان الفحم والحديد في الولايات المتحدة. أذكر بعض الشيء أنك قد ربطتَ مقاطعة الفحم بزوجة السيد دوغلاس الأولى يا سيد

باركر، وبالتأكيد لن يكون استنباطًا مستبعدًا جدًّا أن الحرفين و. ف. المكتوبَين على البطاقة بجوار جثة الميت، قد يرمزان إلى وادي فيرميسا، أو أن هذا الوادي نفسه الذي يرسل مبعوثي القَتل قد يكون هو وادي الذُّعر الذي سمعنا عنه. كل هذا واضح تمامًا، والآن يا سيد باركر، يبدو أني أعيق تفسيرك بعض الشيء».

كانت رؤية وجه سيسيل باركر وتعابيره أثناء هذا الإيضاح الذي قام به المحقق العظيم فُرجة، إذ لوَّنه الغضب، والذهول، والفَزَع، والتردد كلٌّ بدوره، والتجأ في النهاية إلى سخرية لاذعة نوعًا ما.

وقال هازئًا: «أنت تعرف الكثير يا سيد هولمز، ربما من الأفضل أن تخبرنا بالمزيد».

– ليس لديّ شك في أنني قادر على إخبارك بما هو أكثر من ذلك بكثير يا سيد باركر؛ لكنه سيكون أجمل عن لسانك.

– أوه، أتظن ذلك؟ طيب، كل ما يمكنني قوله هو أنه ما إذا كان ثمة سر هنا فهو ليس سرّي، ولست الرجل الذي يفشي سرًّا.

فقال المفتش بهدوء: «حسنٌ، إن اخترتَ هذا الطريق يا سيد باركر، فعلينا أن نبقيك تحت أنظارنا ريثما تصير المذكرة معنا ويصير بوسعنا القبض عليك».

قال باركر بلهجة تحدٍّ: «يمكنك فعلُ أي شيء لَعين يحلو لك حيال ذلك».

بدا أن الإجراءات قد بلغت نهاية حتمية بالنسبة له؛ فما كان على المرء إلا النظر إلى ذاك الوجه الغرانيتي ليدرك أن لا عقاب مهما كان عنيفًا ومجحفًا قد يجبره على الإقرار بالذنب، لكنّ صوت امرأة كسر الجمود، إذ كانت السيدة دوغلاس واقفةً تستمع عبر الباب الموارب، ثم دخلت الغرفة.

وقالت: «لقد فعلتَ ما يكفي حتى الآن يا سيسيل، ومهما حدث في المستقبل، فقد فعلتَ ما يكفي».

فعلّق هولمز بصرامة: «ما يكفي وأكثر مما يكفي. أنا متعاطف معكِ أشد التعاطف يا سيدتي، وأحثك بشدة على التحلي ببعض الثقة بحُسن إدراك سلطتنا القضائية، وعلى وضع ثقتك التامة بالشرطة طوعيًّا. ربما أكون نفسي مخطئًا لعدم اتباعي التلميح الذي نقلتِه لي عبر صديقي الدكتور واتسون؛ لكن كل الأسباب كانت تدفعني آنذاك للاعتقاد بأنك على صلة مباشرة بالجريمة، والآن أنا واثق من أن هذا غير صحيح. في الوقت نفسه، ثمة الكثير مما لم يلقَ تفسيرًا حتى الآن، وأوصيكِ بشدة أن تطلبي من السيد دوغلاس إخبارنا قصته الخاصة».

أطلقت السيدة دوغلاس صيحة ذهول إثر كلام هولمز، ولا بدّ أنني والمحققين قد رددناها حينما أدركنا رجلًا بدا أنه انبثق من الحائط، وصار يتقدم من عتمة الركن الذي ظهر فيه، فالتفتت السيدة دوغلاس وخلال لحظة كانت ذراعاها ملفوفة حوله، وقبض باركر ذراعيه الممدودتين.

رددت زوجته: «هذا خير الأمور يا جاك، أنا واثقة من ذلك».

فقال شيرلوك هولمز: «بالطبع يا سيد دوغلاس، أنا موقن أنك ستجده خير الأمور».

وقف الرجل يرمش أمامنا بنظرة دائخة لشخص خرج من الظلام إلى النور. كان وجهًا استثنائيًّا: عينان رماديتان جريئتان، وشارب أشيب قوي قصير القَصة، وذقن بارزة مربعة، وفم ظريف. نظر إلينا بتمعّن، ثم ولدهشتي تقدم إليّ وسلمني حزمة من الأوراق.

وقال بصوت ليس إنجليزيًّا تمامًا ولا أمريكيًّا تمامًا، لكنه كان في مجمله رخيمًا وسارًّا: «لقد سمعتُ عنك، أنت مؤرخ هذه الثلة. حسنًا يا دكتور واتسون، لم تمرّ قصة كهذه بين يديك البتة، وأراهن بكل أموالي على ذلك. اسردها بأسلوبك الخاص؛ لكن تلك هي الحقائق، ولن تخطئ الوصول إلى العامة ما دامت الحقائق بين يديك. كنتُ محبوسًا مدة يومين، وقد أمضيت منها ساعات النهار — بقدر ما تمكنت من تحصيل ضوء الشمس في فخ الفئران ذاك — أرتِّب الأحداث في كلمات، وأنت وقراؤك مرحب بكم لقراءتها. هاكَ قصة وادي الذُّعر».

فقال شيرلوك هولمز بهدوء: «ذاك هو الماضي يا سيد دوغلاس، أما ما نرغب به الآن فهو سماع قصتك عن الحاضر».

قال دوغلاس: «ستسمعها يا سيدي، هل لي أن أدخن بينما أتكلم؟ حسنًا، شكرًا لك يا سيد هولمز. أنت مدخّنٌ إذا ما كانت ذاكرتي على صواب، ويمكنك أن تخمّن الشعور عندما تجلس يومين والتبغ في جيبك وتخشى أن تشي بك الرائحة إذا أشعلته»، واتكأ على رف الموقد وامتص السيجار الذي كان هولمز قد أعطاه إياه، «لقد سمعتُ عنك يا سيد هولمز، ولم أخمّن قط أنني سألتقي بك، لكن قبل أن تفرغ من تلك»، وأشار برأسه إلى أوراقي، «ستقول إني قد جلبتُ لك شيئًا جديدًا».

كان المفتش ماكدونالد يحدق إلى الوافد الجديد بأعظم الدهشة، وهتف أخيرًا: «حسنًا، من الإنصاف القول إني لا أفهم شيئًا! إذا كنتَ أنتَ السيد جون دوغلاس القاطن في قصر بِرلستون، فقد قضينا هذين اليومين نحقق في موت مَن؟ ومن أين قفزتَ بحق السماء؟ بدوتَ لي وكأنك خرجتَ من الأرض مثل لعبة مهرج الصندوق».

فقال هولمز وهو يلوّح بسبابته موبخًا: «آه يا سيد ماك، لقد أبيتَ قراءة ذاك المؤلَّف المحلي الممتاز الذي يصف اختباء الملك تشارلز. لم يكن الناس ليختبئوا في تلك الأيام إلا في مخابئ مُحكمة، والمخابئ التي استُخدمت في يوم ما قد تستخدم مجددًا. سبق وأقنعتُ نفسي بأننا سنجد السيد دوغلاس تحت هذا السقف».

قال المفتش بحنق: «وكم طال زمن مخادعتك إيانا يا سيد هولمز؟ كم طال ترككَ إيانا نهدر جهودنا سدى على بحث كنتَ تعرف أنه بحث تافه؟»

– ولا لحظة واحدة يا عزيزي السيد ماك، فلم أشكّل آرائي عن القضية إلا ليلة البارحة، ولأن إثباتها لم يكن ممكنًا حتى هذا المساء، دعوتُك وزميلك لأخذ اليوم عطلة. بربك ما كان بوسعي أن أفعل أكثر من ذلك؟ عندما وجدت الملابس في الخندق، صار واضحًا فورًا بالنسبة لي أن الجثة التي وجدنا لم تكن جثة السيد جون دوغلاس إطلاقًا، وإنما هي لا بدّ جثة صاحب الدراجة ذاك من تونبريدج ويلز. لم يكن ثمة استنتاج آخر ممكن، وبالتالي كان علي تحديد المكان الذي قد يكون السيد جون دوغلاس نفسه فيه، وكان ميزان الاحتمال يرجح أنه مخفيّ بتواطؤ زوجته وصديقه في منزل كهذا ملائمٍ لشخص فارٍّ ينتظر وقتًا أكثر هدوءًا ليفرّ فراره الأخير.

فقال دوغلاس موافقًا: «حسنًا، لقد استنتجتَ استنتاجًا صحيحًا تقريبًا، فقد ظننتُ أني قد أتملص من قانونكم البريطاني؛ إذ إنني لم أكن متأكدًا من موقفي بالنسبة له، ورأيت فرصتي أيضًا في التخلص من كلاب الصيد هذه إلى الأبد. دعني أذكرك أنني من البداية وحتى النهاية لم أفعل شيئًا أستحي منه، ولم أفعل شيئًا لم أكن لأفعله مجددًا؛ لكنكم ستحكمون على ذلك بأنفسكم بعدما أقص عليكم قصتي. لا داعي لتحذيري أيها المفتش، فأنا مستعد للثبات على قول الحق.

لن أبدأ من البداية، فكل هذا موجود هناك»، وأشار إلى حزمة الأوراق التي معي، «وستجدون فيها حكاية مريبة هائلة. يتلخص كل شيء في أن ثمة بعض الرجال الذين يمتلكون سببًا وجيهًا لكرهي، وهم مستعدون لإنفاق جل مالهم لمعرفة أنهم قد نالوا مني، وما دُمت أنا وهم أحياء لن يكون هذا العالم آمنًا بالنسبة لي. طاردوني من شيكاغو إلى كاليفورنيا، ثم لاحقوني خارج أمريكا؛ لكن حينما تزوجتُ واستقررت في هذه البقعة الهادئة ظننتُ أن آخر سِني عمري ستكون وديعة مسالمة.

لم أشرح طبيعة الحال لزوجتي قط، فلمَ قد أجرّها إلى الأمر؟ لم تكُن لتحظى بلحظة هانئة بعدها؛ وإنما ستتخيل البلوى دائمًا. أتصوّر أنها عرفتْ شيئًا ما، فربما سقطت مني كلمة هنا أو هناك؛ لكن حتى البارحة بعد أن رأيتموها أيها السادة، لم تكن تعرف حقائق المسألة أبدًا. لقد أخبرَتْكم كل ما تعرفه، وكذا فعل باركر؛ إذ لم يكن ثمة إلا قدر ضئيل من الوقت للشرح في الليلة التي حدثت فيها الحادثة. هي تعرف كل شيء الآن،

ولو أنني أخبرتها كل شيء من قبل لكنتُ رجلًا أكثر حكمة، لكنه كان سؤالًا صعبًا يا عزيزتي»، وأخذ يدها في يده لحظةً، «وتصرّفتُ مبتغيًا الأفضل.

حسنًا أيها السادة، كنتُ في تونبريدج ويلز في اليوم السابق للحادثة، ولمحتُ رجلًا في الشارع. لم تكن إلا لمحة، لكنني أتمتع بعين حادة فيما يتعلق بهذه الأمور، ولم أشك في هويته قط. كان أسوأ عدو لي بينهم جميعًا، عدو كان يتصيّدني كما يتصيد ذئب جائع وعلًا طيلة هذه السنين. عرفتُ أن ثمة مصيبة محدقة، وعُدتُ إلى المنزل واستعددتُ لها. خمّنتُ أني سأتجاوزها على ما يرام وحدي، فقد كان حظي مضرب مثلٍ في الولايات المتحدة نحو عام 1876، ولم أشكّ أبدًا أنه ما زال حليفي.

بقيتُ متأهبًا طيلة اليوم التالي، ولم أخرج إلى الحديقة أبدًا، وإلّا لحَظيَ بأفضلية عليّ ببندقيته الخردقية تلك قبل أن أتمكن من إشهار طبنجتي ابتداءً، وأخرجتُ الأمر من رأسي تمامًا بعد رفع الجسر، فدائمًا ما كان ذهني أكثر اطمئنانًا حينما يُرفع الجسر في المساء. لم يخطر ببالي أنه قد يدخل المنزل وينتظرني، لكن حينما قمتُ بجولتي مرتديًا لباس نومي كما جرت عادتي، لم أكَد أدخل المكتب حتى شعرت بالخطر. أعتقد أن الرجل حينما يتعرض لأخطار في حياته –وقد تعرضتُ لأخطار أكثر من الكثيرين في أيامي– يصير لديه نوع من الحاسة السادسة التي تلوح له بالراية الحمراء. رأيت العلامة بوضوح شديد، لكنني عاجز عن تفسير سبب ذلك، وفي اللحظة التالية اكتشفتُ حذاءً تحت ستارة النافذة، وحينها فهمت بوضوح تام السبب.

كنتُ أحمل تلك الشمعة الوحيدة في يدي؛ لكن كان ثمة ضوء جيد يتسلل من فانوس الردهة عبر الباب المفتوح، فوضعت الشمعة وانقضضت على المطرقة التي كنتُ قد تركتُها على رف الموقد. وثب عليّ في نفس اللحظة ورأيتُ لمعان سكين، فهجمت عليه بالمطرقة. أصبته في مكان ما، وعرفتُ ذلك من صوت رنة السكين على الأرض، ثم راوغني والتف حول الطاولة بسرعة سمكة أنقليس، وبعد لحظة كان قد أخرج البندقية من معطفه. سمعتُ صوت سحب الديكِ إلى الخلف؛ لكني قبضتُ بيدي عليها قبل أن يتمكن من الإطلاق. كنتُ قابضًا على سبطانتها، وتصارعنا عليها بكل قوتنا مدة دقيقة أو أكثر، مصارعة نتيجتها الموت للرجل الذي سترتخي قبضته.

لم ترتخِ قبضته قط؛ لكنه ترك أخمص البندقية نحو الأسفل لحظة طالت عما يجب. ربما كنتُ أنا مَن ضغط الزناد، وربما انطلق من خضخضتنا لها بيننا. بأي حال، أصابته حشوة السبطانتين في وجهه، ووقفتُ أحدق إلى كل ما بقي من توم بالدوين على الأرض. كنتُ قد تعرفت عليه في البلدة، وتعرفت عليه مجددًا حينما قفز علي؛ لكن حتى والدته لم تكن لتتعرف عليه بالحال التي رأيته عليها. إنني معتاد على الأعمال القاسية؛ لكن رؤية منظره أصابتني بغثيان تام.

كنت مائلًا على حافة الطاولة وقتما هرع باركر إلى الأسفل، وسمعت صوت زوجتي قادمة، فركضتُ إلى الباب وأوقفتها. لم يكن منظرًا مناسبًا لامرأة، ووعدتها أن آتي إليها عاجلًا، ثم قلتُ كلمة أو اثنتين لباركر – الذي فهم الأمر برمته في لمح البصر– وانتظرنا قدوم البقية، لكن لم يظهر أحد منهم. أدركنا حينها أنهم كانوا عاجزين عن سماع أي شيء، وأن كل ما حدث لا يعرفه غيرنا.

حدث في تلك اللحظة أنْ خطرت لي الفكرة، وكنتُ مبهورًا تمامًا بعبقريتها. كان كمّ الرجل قد انسحب قليلًا عن ساعده وظهرت العلامة الموسومة للمحفل على ساعده. انظر هنا!»

شمّر الرجل الذي عرفناه بصفته دوغلاس كُمَّ معطفه، وثناه ليرينا مثلثًا بنيًّا داخل دائرة مطابقًا تمامًا لذاك الذي رأيناه على الرجل الميت.

«كانت رؤيتها ما جعلني أبدأ العمل على الأمر، إذ بدا كل شيء واضحًا لي من أول نظرة، فقد كان طوله وشعره وقامته تشبه قريناتها عندي، ولا يمكن لأحد أن يجزم فيما يخص وجهه، ذاك الشيطان التعِس! جلبتُ مجموعة الملابس هذه من الطابق العلوي، وخلال ربع ساعة كنتُ وباركر قد ألبسناه رداء نومي وتمدّد مثلما رأيتموه. ربطنا كل أشيائه في صرة وأثقلناها بالثقل الوحيد الذي أمكنني إيجاده ورميناها من النافذة، وارتمت البطاقة التي أراد رميها على جسدي بجوار جسده هو.

وضعنا خواتمي على إصبعه؛ لكن حينما بلغ الأمر خاتم الزواج»، ومدّ يده قويّة العضلات، «يمكنكم بأنفسكم رؤية أني كنتُ قد بلغت الحد، إذ لم أحرّكه منذ يوم زواجي، وسيتطلب نزعه كشط إصبعي. لم أكن أعرف بأي حال أنه كان عليّ الاهتمام بمفارقته؛ لكن حتى لو رغبتُ بذلك لما أمكنني، لذا كان علينا أن نترك ذاك التفصيل ليعالج نفسه بنفسه. من ناحية أخرى، فقد جلبت قصاصة شريط لاصق ووضعتها حيث أضع واحدة فورًا. لقد غفلت عن هذه يا سيد هولمز رغم ذكائك؛ فلو اتّفق أن نزعت تلك القصاصة لرأيت أن لا جرح تحتها.

حسنًا، هذا هو الموقف، ولو أمكنني التواري عن الأنظار لفترة ثم الفرار إلى حيث يمكن «لأرملتي» الانضمام إليّ لحظينا بفرصة أخيرًا للعيش بسلام بقية حياتنا. لم يكن هؤلاء الشياطين ليتركوني وشأني ما دمتُ فوق الأرض؛ لكن لو رأوا في الجرائد أن بالدوين قد نال من هدفه، لكانت نهاية متاعبي. لم أحظَ بوقتٍ كافٍ لأوضح كل شيء لباركر وزوجتي؛ لكنهما فهما ما يكفي ليتمكنا من مساعدتي. كنتُ أعرف كل شيء عن هذا المخبأ، وكذا أيمس؛ لكن لم يخطر بباله أن يربطه بالمسألة، فاعتزلت فيه وتركت فعل ما بقي لباركر.

أعتقد أن بوسعكم تكملة ما فعله بأنفسكم، إذ فتح النافذة ووضع العلامة على العتبة لإعطاء فكرة عن مهربِ القاتل، وكان في ذلك أمل ضعيف، لكن بما أن الجسر كان مرفوعًا لم نرَ حلًّا آخر، ثم بعد أن صار كل شيء جاهزًا، ضرب الجرس بكل طاقته، وأنتم تعرفون ما حدث بعد ذلك. والآن يا سادة، يمكنكم فعلُ ما يرضيكم؛ لكنني أخبرتكم الحقيقة، الحقيقة الكاملة، وليساعدني الله! أما ما أسألكم عنه الآن فهو موقفي أمام القانون الإنجليزي».

كان الصمت مخيمًا على الجو، فكسره شيرلوك هولمز.

– القانون الإنجليزي قانون عادل بوجه عام، ولن تنال أكثر مما تستحق يا سيد دوغلاس، لكنني أرغب بسؤالك عن هذا الرجل، كيف عرف أنك تعيش هنا؟ وكيف عرف كيفية دخول منزلك أو أين عليه الاختباء لكي يباغتك؟

– لا أعرف شيئًا عن هذا.

كان وجه هولمز أبيض وجديًّا للغاية، وقال: «أخشى أن القصة لم تنتهِ بعد. قد تجدُ أخطارًا أكثر ضراوة من القانون الإنجليزي، أو حتى من أعدائك الأمريكيين. إني أرى المتاعب تترصدك يا سيد دوغلاس، فخُذ بنصيحتي وابقَ مستعدًّا».

والآن، يا حضراتِ قرائي طوال البال، سأطلب منكم المجيء معي بعض الوقت بعيدًا عن قصر بِرلستون في ساسكس، وبعيدًا أيضًا عن عام النعمة الذي ذهبنا فيه في رحلتنا الزاخرة بالأحداث والتي انتهت بالقصة الغريبة للرجل الذي كان يُعرف باسم جون دوغلاس. أريدكم أن تسافروا في الزمان نحو عشرين عامًا، وفي المكان بعض آلاف الأميال باتجاه الغرب، إذ إنني سأضع بين أيديكم حكاية فريدة وفظيعة، فريدة جدًّا وفظيعة جدًّا لدرجة قد يصعب عليكم معها تصديق أنها حدثت مثلما أحكيها.

لا تظنوا أنني أقحم قصة قبل انتهاء قصة أخرى، فبينما تقرؤونها سترون أن هذا ليس ما يجري، وبعدما أقص تلك الأحداث الغابرة عليكم بالتفصيل وتفكّون رموز الماضي، سنلتقي مجددًا في غُرف بيكر ستريت، حيث يلاقي هذا الحادث نهايته مثلما فعل الكثير من الحوادث المدهشة الأخرى.

الجزء الثاني

الدمويّون

الفصل الأول

الرجل

كان اليوم الرابع من شهر فبراير عام 1875، وكان الشتاء الذي انقضى قاسيًا، والثلج متراكمًا عميقًا في شعاب جبال غليمرتون. أبقَت المحاريث البخارية رغم ذلك السكة الحديدية مفتوحة، وكان القطار المسائي الذي يصل بين الخط الطويل من مستوطنات استخراج الفحم ومسابك الحديد يئِنّ شاقًّا طريقه بأناة صاعدًا المنحدرات الصعبة، التي تقود من ستاغفيل على السهل إلى البلدة الرئيسة فيرميسا الواقعة على رأس وادي فيرميسا، ومن هذه النقطة ينحدر الطريق نزولًا إلى بارتونز كروسينغ، وهيلمديل، ومقاطعة ميرتون الزراعية. كانت سكة حديدية أحادية المسار؛ لكن تصطف عند كل تحويلة فيها –وكانت كثيرة التحويلات– صفوف طويلة من الشاحنات المحملة بأكوام من الفحم والحديد الخام، التي تُخبر عن الثروة الخفية التي استجلبت سكانًا أجلافًا وحياة متخبطة إلى هذا الركن المُقفر من الولايات المتحدة الأمريكية.

ولأنه كان مُقفرًا، لم يخطر ببال المستكشف الأول الذي عبره أن تكون أحسن المروج وأخصب المراعي عديمة القيمة مقارنة بهذه الأرض القاتمة بجرفها الأسود وغاباتها المتشابكة. انتصبت فوق الغابات المظلمة وعسيرة الاختراق في أغلبها –المنتشرة على الجانبين– قمم الجبال المرتفعة العارية المكسوة بالثلج والصخور المُخددة على كل جانب، تاركة في المنتصف واديًا طويلًا ملتفًّا ومتعرجًا، وإلى هذا كان القطار الصغير يحبو على مهل.

كانت مصابيح الزيت قد أُشعلت للتو في عربة المسافرين الرئيسة، وهي مقصورة طويلة خالية، جلس فيها نحو عشرين أو ثلاثين شخصًا، القسم الأكبر منهم عمال عائدون من كدّهم اليومي في الجزء الأدنى من الوادي. جلسَ نحو اثني عشر شخصًا على الأقل، أعلنتْ وجوههم الموسّخة وفوانيسهم الوقائية التي يحملونها أنهم عمّال مناجم، في مجموعة؛ يدخنون ويتحادثون بأصوات خفيضة، وينظرون بين الحين والآخر إلى الرجلين اللذين جلسا في الجانب المقابل من العربة، وقد دلّ زيهما وشاراتهما على أنهما شرطيان.

تألفت بقية المجموعة من بعض النسوة من الطبقة العاملة، ومسافر أو اثنين ربما كانا من أصحاب المتاجر المحلية الصغيرة، وشاب يجلس وحيدًا في الركن. هذا الشاب هو كلّ ما يهمّنا، أمعنوا النظر فيه، فهو يستحق.

هو شاب نضر البشرة متوسط الحجم، يحزر المرء أنه ليس بعيدًا عن عامه الثلاثين. له عينان رماديتان كبيرتان ذكيتان ولعوبتان، تلمعان بنظرةٍ متفحصة بين الحين والآخر كلما جال بنظره من تحت النظارة بين الناس المحيطين به. من الواضح أنه يتمتع بسجية اجتماعية قد تكون بسيطة، وأنه تواق لأن يصاحب جميع الناس، ويمكن لأي شخص يلتقيه أن يلاحظ أنه اجتماعي في عاداته وصادق في طبيعته، وذو بديهة سريعة وابتسامة جاهزة. ومع ذلك، قد يستشعر مَن يدرسه من كثب صلابة معينة في الفكين وضيقًا شرسًا على طرفي الشفتين، من شأنهما أن ينذراه بأن ثمة أعماقًا خفيّة لديه، وأن هذا الشاب الأيرلندي الجذاب بني الشعر، يمكن أن يترك علامته –سواء بالخير أم بالشر– على أي مجتمع يجري تقديمه إليه.

بعد أن بادر بكلمة تمهيدية أو اثنتين إلى أقرب عامل مناجم إليه، ولم يتلقَّ إلا ردودًا قصيرة وفظّة، اعتكف المسافر على صمت غير سارّ، وتحديق كئيب من النافذة إلى المنظر المتلاشي.

لم يكن المشهد مُبهجًا، إذ كانت الأفران المنتشرة على جنبات التلال تنبض بوهج أحمر عبر القتامة المستشرية، وتلوح أكداس من ركام المعادن ومخلفات إحراق الفحم على كل جانب، لتنتصب فوقها أعمدة مناجم الفحم الشاهقة. تناثرت مجموعات محتشدة من المنازل الخشبية الوضيعة، التي كانت نوافذها قد بدأت ترسم نفسها بالضوء المنبعث منها، يمنةً ويسرةً على طول الخط، وكانت أماكن التوقف المتكرر تعجّ بسكانها السُّمر.

لم تكن وديان الفحم والحديد في مقاطعة فيرميسا ملاذًا للمُترَفين والمثقفين، وكان ثمة علامات صارمة في كل مكان على أغلظِ معارك للحياة: العمل الجلِف الذي يتعيّن إنجازه، والعمال الأجلاف الأقوياء الذين يُنجزونه.

حدق المسافر الشاب إلى هذا الريف الكئيب بوجه يشوبه الاشمئزاز والاهتمام، ما أظهر أن المنظر كان جديدًا عليه. على فترات منتظمة، كان يخرج من جيبه رسالة ضخمة يرجع إليها، ويخربش على هوامشها بعض الملاحظات، وفي مرة أبرز من خلف ظهره شيئًا لا يتوقع المرء أن يجده بحوزة رجل رقيق الطباع مثله، كان طبنجة خاصة بسلاح البحرية من القياس الكبير، وعندما أمالها باتجاه الضوء، أظهر اللمعان على حواف المقذوفات النحاسية داخل البكرة أنها محشوة بكاملها. أعادها بسرعة إلى جيبه السري، لكن ليس قبل أن يلاحظها عامل كان قد جلس على الدكة الملاصقة.

وقال: «مرحبًا يا رفيق! تبدو مدججًا ومستعدًّا».

فابتسم الشاب ابتسامة تشي بالحَرَج.

وقال: «أجل، نحن نحتاج إليها أحيانًا في المكان الذي جئت منه».

– وأين يكون ذلك؟

– جئت من شيكاغو.

– غريب في هذه الأرجاء؟

– أجل.

فقال العامل: «قد تجدُ أنك تحتاج إليها هنا».

بدا الشاب مهتمًّا: «آه! هكذا إذًا؟»

– ألم تسمع شيئًا عن الأعمال في هذا الجوار؟

– لم أسمع شيئًا غير مألوف.

– حسنًا، ظننت أن البلاد تزخر بهذه الأخبار، ستسمع في القريب العاجل. ما الذي جاء بك هنا؟

– سمعتُ أن العمل متوفر دائمًا لرجل راغب فيه.

– هل أنت عضو في اتحاد العمال؟

– طبعًا.

– إذًا ستحصل على عمل، كما أعتقد. ألديك أي أصدقاء؟

– ليس بعد؛ لكن لدي طريقة لاكتسابهم.

– وكيف هذا؟

– أنا عضو في أخوية الأسياد الأحرار، ولا توجد بلدة دون محفل، وحيث يكون المحفل سأجد أصدقائي.

ترك التعليق أثرًا فريدًا على صاحبه، إذ نظر بريبة إلى الآخرين حوله في العربة، وكان عمال المناجم لا يزالون يتهامسون فيما بينهم، والشرطيان غافيان، فاقترب من المسافر الشاب وجلس بقربه، وأمسك يده.

وقال: «صافحني».

تشارك الاثنان في مصافحة.

وقال العامل: «أرى أنك تقول الحقيقة، لكن التأكد أمر حسن»، ورفع يده اليمنى إلى حاجبه الأيمن، فرفع المسافر يده اليسرى إلى حاجبه الأيسر فورًا.

قال العامل: «الليالي المظلمة بشعة».

فأجاب الآخر: «أجل، لسفرِ الغرباء».

– هذا جيد بما فيه الكفاية، أنا الأخ سكانلان، من المحفل 341، وادي فيرميسا. سررتُ برؤيتك في هذه الأرجاء.

– أشكرك، أنا الأخ جون ماكموردو، من المحفل 29، شيكاغو، الرئيس جيه. إتش. سكوت، ومن حسن حظي لقاء أخ في وقت مبكر كهذا.

– حسنًا، نحن كثر في المنطقة، ولن تجد الأخوية مزدهرةً في أي مكان في الولايات المتحدة أكثر من وادي فيرميسا، لكن يمكننا الاستفادة من بعض الفتيان من أمثالك. لستُ أفهم عجز شاب نشِط من أعضاء الاتحاد عن إيجاد عمل في شيكاغو.

فقال ماكموردو: «وجدت وفرة من الأعمال التي يمكن القيام بها».

– إذًا لمَ غادرت؟

فأومأ ماكموردو برأسه إلى الشرطيين وقال: «أخمّن أن هذين الشابَّين سيسعدان لمعرفة ذلك».

أنَّ سكانلان أنةً متعاطفة، وسأل هامسًا: «واقعٌ في ورطة؟»

– عويصة.

– عمل يؤدي إلى السجن؟

– وأكثر من ذلك.

– لا تقُل إنه قتل!

قال ماكموردو بسحنة رجل أخذه الكلام إلى قول أكثر مما كان ينتوي: «ما زال الوقت مبكرًا للحديث عن أمور مثل هذه. لديّ أسبابي الوجيهة التي غادرت شيكاغو بسببها، حسبُك هذا. من أنتَ لتمنح نفسك الحق في سؤال أسئلة كهذه؟»، ونظرت عيناه الرماديتان بغضب مفاجئ وخطِرٍ من خلف نظارته.

– حسن جدًّا يا رفيق، لم أقصد الإساءة. لن يسيء الفتية الظن بك مهما كانت فَعلتك. إلى أين أنت متجه الآن؟

– فيرميسا.

– هذه الوقفة الثالثة على الخط، أين ستنزل؟

أخرج ماكموردو ظرفًا وقربه من سراج الزيت المعتم: «ها هو العنوان: جيكوب شافتر، شارع شيريدان، وهو بنسيون نصحني به رجل عرفته في شيكاغو».

– حسن، لست أعرفه؛ لكن فيرميسا خارج نطاق تسكُّعي. أعيش في هوبسونز باتش، هنا حيث نقف، لكن اسمع، سأُسدي إليك نصيحة صغيرة قبل أن نفترق: إذا وقعتَ في مأزق في فيرميسا، اذهب إلى بيت الاتحاد مباشرة وابحث عن الزعيم ماكجينتي. هو رئيس محفل فيرميسا، ولا شيء يمكن أن يحدث في هذه الأنحاء إن لم يرغب جاك ماكجينتي الأسود بحدوثه. إلى اللقاء يا رفيق! عسى أن نلتقي في المحفل في إحدى تلك الأمسيات، لكن انتبه إلى كلماتي: إذا وقعتَ في مأزق، فتوجه إلى الرئيس ماكجينتي.

نزل سكانلان، وبقي ماكموردو مجددًا مع أفكاره. كان الليل قد هبط الآن، وألسنة اللهب المنبعثة من الأفران المتعاقبة تهدِر وتثب في الظلمة. قبالة خلفياتها المتقدة، كانت الأشكال الداكنة تميل وتشتد، وتلفّ وتدور بحركة أشبه بالبكرة أو المِرفاع على إيقاع صلصلة وهدير سرمديّين.

قال صوت ما: «أحزرُ أن الجحيم لا بدّ يبدو شيئًا يشبه هذا».

التفتَ ماكموردو ورأى أن أحد الشرطيين قد انتقل في مجلسه وراح يحدق إلى الخراب المحتدم.

فقال الشرطي الآخر: «بخصوص ذلك، أنا أقرّ بأن الجحيم لا بدّ يبدو شيئًا كهذا، وإذا ما كان ثمة هنالك شياطين أخبث من بعض مَن بوسعنا تسميتهم، فسيكون أشد سوءًا مما توقعت. أخمّن أنك جديد في هذا الجزء من البلاد أيها الشاب، صحيح؟»

فأجاب ماكموردو بصوت خشِن: «وماذا لو كنتُ؟»

– شيء واحد فقط يا سيدي، عليّ أن أنصحك بالحذر في انتقاء الأصدقاء، ولا أظن أني كنتُ لأبدأ بمايك سكانلان أو عصابته لو كنتُ مكانك.

فزأر ماكموردو بصوت جعل كل رأس في العربة يستدير ليشهد الملاسنة: «وما علاقتكَ بهويّة أصدقائي بحق الجحيم؟ هل طلبتُ نصيحتك؟ أم أنك ظننتني مجرد ساذج لن يكون بوسعه التحرك دونها؟ لا تتكلم إلا عندما يتحدث إليك أحدهم، وقسمًا بالله ليكونن عليكَ الانتظار وقتًا طويلًا لو كان هذا الأحد أنا!» وأبرز وجهه وكشَّر أمام رجال الدورية مثل كلبٍ يزمجر.

أُخذ الشرطيان، وكانا رجلين ضخمين لطيفين، على حين غرة بالعنف الغريب الذي صُدت فيه مبادراتهما الوديّة.

وقال أحدهما: «لا نقصد الإهانة أيها الغريب، كان ذلك إنذارًا لمصلحتك الشخصية، نظرًا لكونكَ جديدًا على المكان كما تزعم».

فصاح ماكموردو بحنق بارد: «إنني جديد على المكان؛ لكنني لست جديدًا على صنفكما! أعتقد أنكما على نفس الشاكلة في كل مكان، تحشرون نصيحتكم حيث لم يطلبها أحد».

قال أحد رجال الدورية مكشرًا: «ربما سنرى المزيد من فِعالك في وقت غير بعيد. إنك شخص مختارٌ بعناية فعلًا، إذا ما كان لي الحُكم».

فعقَّب الآخر: «كنتُ أفكر بالمثل، أعتقد أننا قد نلتقي مجددًا».

هتف ماكموردو: «لستُ خائفًا منكما، وإياكما والتفكير بهذا! اسمي جاك ماكموردو؛ فهمتما؟ وإذا ما أردتما لقائي ستجدانني في بنسيون جيكوب شافتر على شارع شيريدان، فيرميسا؛ إذًا فلست أختبئ منكما، أترياننى أختبئ؟ إني جاسرٌ على لقاء أي من أمثالكما ليلًا أم نهارًا؛ ولا ترتكبا أي خطأ فيما يخص هذا!»

دارت غمغمة تعاطف وإعجاب بين عمال المناجم بسلوك الوافد الجديد الشجاع، بينما هز الشرطيان أكتافهما وعادا إلى الحديث فيما بينهما.

دخل القطار بعد عدة دقائق إلى المحطة سيئة الإضاءة، ونزل هناك عدد كبير من الركاب؛ فقد كانت فيرميسا أكبر بلدة دون منازع على الخط. التقط ماكموردو حقيبته الجلدية الصغيرة، وكان يهم بالانطلاق في الظلمة حينما بادأه أحد عمال المناجم بالحديث.

قال بصوت ينم عن إجلال: «عافاكَ أيها الرفيق! أنت تعرف كيف تحادث رجال الشرطة، وكان من الرائع سماعك. دعني أحمل حقيبتك وأدلّك على الطريق، فأنا أمرّ بشافتر في طريقي إلى مكان إقامتي».

سُمعت جوقة من تحيّات المساء الوديّة بين عمال المناجم الباقين أثناء عبورهم المنصة، وقبل أن يخطو خطوة واحدة فيها، كان ماكموردو المتمرّد قد صار شخصية مميزة في فيرميسا.

كان الريف مكانًا مرعبًا؛ لكن البلدة كانت موحشة أكثر بطريقتها الخاصة. في آخر ذاك الوادي الطويل، كان ثمة على أقل تقدير مهابة جهِمة في النيران العظيمة وغيوم الدخان المنجرف، في حين وجد بطش الإنسان وكدّه نُصُبًا تذكارية ملائمة في التلال التي أهرقها بجوار حفريّاته الفاحشة. لكن البلدة أظهرت مستوى تامًّا من الدمامة الخبيثة والرجاسة، فقد أتلفت حركة السير أسطح الشوارع العريضة إلى عجينة شنيعة مخدَّدة من الثلج الموحل، وكانت الأرصفة ضيقة ووعِرة. لم تُفِد فوانيس الجاز العديدة

إلا بإيضاح منظر صف طويل من المنازل الخشبية الوسخة والمهملة التي تواجه بلكوناتها الشارع.

مع اقترابهم من مركز المدينة، أشرق المشهد بصف من المتاجر حسنة الإضاءة، وأشرق كذلك بعدد من الصالونات وبيوت الألعاب التي كان عمال المناجم ينفقون فيها أجورهم السخية رغم المشقة المبذولة في المقابل.

قال الدليل مشيرًا إلى صالون يرتقي إلى منزلة الفندق تقريبًا: «هذا بيت الاتحاد، وجاك ماكجينتي هو الرئيس هناك».

فسأل ماكموردو: «إلى أي صنف من الرجال ينتمي؟»

– ماذا! ألم تسمع بالرئيس من قبل؟!

– كيف عساي أن أكون سمعتُ عنه وأنت تعرف أنني غريب في هذه المناطق؟

– حسنٌ، ظننتُ أن اسمه معروفٌ عبر البلاد، فقد تكرر ذكره في الجرائد على نحو كافٍ.

– لأي سبب؟

خفض العامل صوته: «بسبب الأعمال».

– أي أعمال؟

– يا إلهي أيها السيد! إنك مُريب، إن أمكنني قولها دون إساءة. لا يوجد إلا مجموعة واحدة من الأعمال التي ستسمع عنها في هذه الأنحاء، وتلك هي أعمال الدمويّين.

– وي، يبدو أنني قرأتُ عن الدمويين في شيكاغو. عصابة من القتَلة، صحيح؟

فصاح العامل المتخشب خوفًا وهو يحدق بذهول إلى رفيقه: «صه، حافظ على حياتك! يا رجل، لن تعيش طويلًا في هذه المناطق إذا تفوهتَ في الشوارع بكلامٍ كهذا، ضُرب العديد من الرجال حتى الموت لأسباب أقل».

– حسنٌ، لا أعرف شيئًا عنهم، هذا ما قرأته فقط.

نظر الرجل باضطراب حوله بينما يتكلم، وكان يحدق إلى الظلال كما لو أنه يخشى رؤية خطر ما يتربص به: «ولستُ أقول إنك لم تقرأ الحقيقة. إذا كان إزهاق الأرواح قتلًا، فيعلم الله أن ثمة قتلًا وفائضًا من القتل. لكن إياك والتجرؤ على التلفظ باسم جاك ماكجينتي في أي شيء ذي صلة بالموضوع أيها الغريب؛ فكل همسة ترجع إليه، وليس شخصًا يُحتمل أن يتركها تمر، والآن، ذاك هو المنزل الذي تنشده، ذاك المنتصب

في مؤخرة الشارع. ستجد جيكوب شافتر العجوز الذي يديره أشرف رجلٍ يعيش في هذه البلدة».

قال ماكموردو: «أشكرك»، وصافح معرفته الجديدة هذه، ثم تهادى في مشيته حاملًا حقيبته صعودًا في الطريق المؤدي إلى بيت السكن، وطرق على بابه طرقة مدوية.

فُتح الباب في الحال وظهر شخص مختلف جدًّا عما كان يتوقع. كانت شابة جميلة جمالًا نادرًا، لها شكل ألمانيّ يتجلى ببشرة بيضاء وشعر أشقر، ويناقض هذا على نحو فاتن زوج من العيون السوداء البهيّة التي فحصت بها الغريب، وحَرَجٌ بهيجٌ أفاض موجة من اللون على وجهها الشاحب. بوقوفها مؤطرة في ضوء الممر الساطع، بدا لماكموردو أنه لم يرَ لوحة أجمل في حياته؛ وزاد من جاذبيتها تناقضها مع المحيط الكالح القذِر. لم يكن منظر بنفسجة بهيّة تنمو على واحد من أكداس ركام المناجم هذه ليكون مفاجئًا أكثر. افتُتن بها لدرجة أنه وقف يحدق دون أن ينبس بكلمة، وكانت هي من كسر الصمت.

قالت بلمسة بسيطة سارّة من لكنة ألمانية: «ظننتُك أبي، هل جئتَ لرؤيته؟ إنه في المدينة، وأتوقع قدومه في أية لحظة».

تابع ماكموردو تحديقه إليها في إعجاب سافر، حتى خفضَت عينيها ارتباكًا أمام هذا الزائر المستبدّ.

قال أخيرًا: «لا يا آنستي، لست في عجلة لرؤيته، لكنني نُصِحتُ بمنزلكم للسكن. ظننتُ أنه قد يلائمني، والآن بتُّ أعرف ذلك يقينًا».

فقالت مبتسمة: «إنك سريع في اتخاذ قراراتك».

فأجاب: «أي شخص مبصر كان ليفعل ما فعلت».

ضحكت على المديح وقالت: «تفضل بالدخول يا سيدي، أنا الآنسة أيتي شافتر، ابنة السيد شافتر. أمي متوفاة، وأنا أتولى إدارة المنزل. يمكنك الجلوس بجوار الموقد في الغرفة الأمامية ريثما يأتي أبي... آه، ها قد جاء! لذا يمكنك ترتيب الأمور معه حالًا».

جاء رجل عجوز جسيم يتهادى صاعدًا الطريق. ببضع كلمات؛ شرح له ماكموردو شأنه، أنّ رجلًا اسمه ميرفي أعطاه العنوان في شيكاغو، وأن ذاك بدوره قد حصل عليه من شخص آخر. كان العجوز شافتر مستعدًّا تمامًا، ولم يُبدِ الغريب أي اعتراض على الشروط، بل وافق على جميعها في الحال، وكان على ما يبدو طافحًا بالمال بحقّ. مقابل سبع دولارات يدفعها سلفًا أسبوعيًّا، صار لديه مثوى ومبيت.

وهكذا اتخذ ماكموردو، الفار من العدالة باعترافه الشخصي، من منزل آل شافتر مسكنًا، وكانت أول خطوة قُدر لها أن تقود إلى سلسلة أحداث طويلة وسوداويّة انتهت في أرض قصية نائية.

الفصل الثاني

الرئيس

كان ماكموردو رجلًا يترك بصمته سريعًا، وأينما حلّ كان أهل المنطقة يعرفون ذلك بعجالة. صار في غضون أسبوع أهم شخص على الإطلاق في بنسيون شافتر، وكان ثمة عشرة أو اثنا عشر نزيلًا هناك؛ لكنهم كانوا رؤساء عمال شرفاء أو موظفين عاديين من المتاجر، وهم من طراز مختلف تمامًا عن الأيرلندي الشاب. في أي أمسية يجتمعون فيها، كان ذا النكتة الأكثر حضورًا، والمحادثة الأبهى، والأغنية الأحسن. كان شخصًا مرحًا بالفطرة، وله جاذبية تشرح صدر كل من حوله.

لكنه أظهر قابلية على الغضب العنيف والمفاجئ، مثلما فعل في مقصورة القطار، المرّة تلوَ المرة، ما فرض احترامه بل حتى خشيته على كل من يقابله، وفيما يخص القانون وكل مَن يتصل به، فقد أبدى احتقارًا متعصبًا أبهج بعض زملائه النزلاء وخوّف البقية.

بيّن إعجابه الصريح من البداية أن بِنتَ صاحب المنزل قد فازت بقلبه منذ وقعت عيناه على حُسنها وبهائها، ولم يكن خاطبًا مترددًا، فأخبرها في اليوم الثاني أنه أحبها، وبقي يكرر القصة نفسها مذ ذاك الوقت فصاعدًا، متجاهلًا بشكل مطلق ما قد تقوله لتوهنَ من عزيمته.

كان يصرخ فيها: «شخص آخر؟ طيب، يا لسوء حظ «شخصٍ آخر»! أخبريه أن يحترس! أسأضيّع فرصة حياتي وكل ما يبتغيه قلبي من أجل شخصٍ آخر؟ استمرّي في الرفض يا أيتي؛ سيأتي اليوم الذي تقبلين فيه، وإني شابٌّ بما يكفي لأنتظر».

كان خاطبًا خطرًا بلسانه الأيرلندي الطلق وأساليبه الجذابة المغرية، وكان يتحلى بفتنة الخبرة والغموض تلك التي تجذب اهتمام المرأة وتوقعها في حبه في النهاية. كان بوسعه التكلم عن الأودية العذبة لمقاطعة موناغان التي جاء منها، وعن الجزيرة الرائعة البعيدة، والهضاب المنخفضة والحقول الخضراء التي بدت أجمل عندما رسمتها المخيلة من أرض الثلج والسُّخام هذه.

ثم كان خبيرًا بحياة مدن الشمال، وديترويت، ومخيمات ميشيغان الخشبية، وأخيرًا شيكاغو، حيث عمِل في ورشة نجارة، وجاءت بعد ذلك لمسة الرومانسية؛ شعور أن أمورًا غريبة قد حدثت له في تلك المدينة العظيمة، غريبة وحميمية لدرجة أنها لا يمكن

البوح بها. تكلم بحُزن عن مغادرة مفاجئة، عن كسرٍ للروابط القديمة، وهروبٍ إلى عالم غريب، انتهت إلى هذا الوادي الموحش، وأنصتتْ أيتي إليه وعيناها السوداوان تلمعان شفقةً وتعاطفًا؛ هاتان الصفتان اللتان قد تتحولان على نحو سريع جدًّا وطبيعي جدًّا إلى حب.

حصل ماكموردو على عمل مؤقت في وظيفة محاسب؛ إذ كان رجلًا ذا تعليمٍ عالٍ. أبقاه هذا في الخارج معظم النهار، ولم يجد فرصة بعد لكي يقدم نفسه إلى رئيس محفل أخوية الأسياد الأحرار، بيد أنّ زيارة في إحدى الأمسيات من مايك سكانلان، العضو الذي قابله في القطار، ذكرته بتقصيره. بدا سكانلان، الرجل الضئيل القلِق حاد الملامح أسود العينين، مسرورًا لرؤيته مجددًا، وطرح موضوع زيارته بعد كأس ويسكي أو اثنتين.

قال: «أقول يا ماكموردو، لقد تذكرتُ عنوانك، فتجرأت وقدمتُ للزيارة. إنني متفاجئ من أن خبرَكَ لم يبلغ الرئيس، لمَ لم تقابل الرئيس ماكجينتي بعد؟»

– كان عليّ البحث عن عمل، كنتُ مشغولًا.

– عليك أن تجدَ وقتًا له، حتى لو لم يبقَ لديك وقت لشيء آخر. بحق الله يا رجل! من الحماقة ألا تذهب إلى بيت الاتحاد وتسجل اسمك في أول صباحٍ تلا وصولك! وإذا ما اصطدمتَ به... حسن، لا يجدر بك ذلك، وهذا كل شيء!

ابتسم ماكموردو ابتسامة رقيقة: «إنني عضو في المحفل منذ أكثر من سنتين يا سكانلان، لكنني لم أسمع قط أن الواجبات ملحّة إلى هذا الحد».

– ربما ليست كذلك في شيكاغو.

– حسنًا، إنها الجمعية نفسها هنا.

– أهي كذلك؟

نظر إليه سكانلان نظرة طويلة وثابتة، وكان ثمة شيء مشؤوم في عينيه.

– أليست كذلك؟

– ستخبرني بنفسك في غضون شهر. سمعتُ أنك أجريت محادثة مع رجال الدورية بعدما غادرتُ القطار.

– كيف عرفتَ ذلك؟

– أوه، لقد جرى ذلك على جميع الألسُن، فالأمور تنتشر خيرًا كانت أم شرًّا في هذه المنطقة.

– حسنًا، هذا صحيح. لقد أخبرت كلاب الصيد ما كان رأيي فيهم.

– يا الله، ستكون رجلًا يحبه ماكجينتي ويحترمه!

– لمَ؟ أيكره الشرطة أيضًا.

انفجر سكانلان ضاحكًا، وقال وهوَ يستأذن بالانصراف: «اذهب وقابله يا فتى، لن تكون الشرطة، إنما ستكون أنتَ من يكرهه إن لم تفعل! الآن، خذ نصيحة صديق واذهب حالًا!»

صادف أن كان لدى ماكموردو مقابلة أخرى أكثر إلحاحًا في ذات المساء حثته على المضي في الاتجاه نفسه. ربما كان السبب أن ملاطفاته لأيتي قد صارت أكثر وضوحًا عن ذي قبل، أو أنها أقحمَت نفسها تدريجيًّا في الإدراك البليد لمضيفه الألماني الطيب؛ لكن أيًّا يكن، فقد دعا صاحب البنسيونِ الشابَّ إلى غرفته الخاصة ودخل في صلب الموضوع دون أي لف أو دوران.

قال: «يبدو لي أنك عاقدٌ عزمك على ابنتي أيتي أيها السيد، أهوَ كذلك أم أنني مخطئ؟»

أجاب الشاب: «بلى، هوَ كذلك».

– حسنًا، أريد أن أخبرك الساعةَ أن لا طائل من محاولتك، فقد سبقك شخص ما.

– لقد أخبَرَتْني بذلك.

– إذًا يمكنك التأكد من أنها قد أخبرتك بالحقيقة، لكن هل أخبرتك مَن هو؟

– لا، سألتُها لكنها لم تقُل.

– ظننتُ ذلك، يا للفتاة الصغيرة! ربما لم تَرغَب في إفزاعكَ.

استشاط ماكموردو غضبًا في لحظة: «إفزاعي!»

– آه، بلى يا صديقي! لا شيء يدعو للخزي في أن تفزَع منه. إنه تيدي بالدوين.

– ومن هو بحق الشيطان؟

– إنه أحد رؤساء الدمويّين.

– الدمويين! لقد سمعتُ عنهم قبلًا. يتردد ذكر الكلمة في كل مكان، ودائمًا ما تُذكر همسًا. ممَّ تخافون كلكم؟ مَن هم الدمويون؟

انخسفَ صوت صاحب البنسيون غريزيًّا، كما يفعل كل من يتكلم عن تلك الجماعة الرهيبة، وقال: «الدمويون هم أخوية الأسياد الأحرار!»

فنجل الشاب عينيه وقال: «وَي، أنا أيضًا عضو في تلك الأخوية».

– أنت! لم أكُن لأقبل بك نزيلًا في منزلي على الإطلاق لو عرفتُ هذا، حتى ولو دفعتَ لي مئة دولار في الأسبوع.

– ما عيب الأخوية؟ إن غايتها الأعمال الخيرية والرفقة الحسنة. هذا ما تقوله القواعد.

– ربما في بعض الأماكن، لكن ليس هنا!

– وما غايتها هنا؟

– إنها جماعة قتل، هذه غايتها.

ضحك ماكموردو ضحكة تشي بعدم التصديق، وسأل: «كيف يمكنك إثبات ذلك؟»

– أثبته! أليس ثمة خمسون جريمة قتل لتثبته؟ ماذا عن ساعي البريد وفان شورست، وعائلة نيكولسن، والسيد هيام العجوز، وبيلي جيمس الصغير، وغيرهم؟ أثبته! أثمة رجل أو امرأة في هذا الوادي لا يعرف ذلك؟

قال ماكموردو بجدية: «اسمع الآن! أريدك أن تتراجع عما قلتَه، أو فاجعله كلامًا حسنًا. عليكَ أن تفعلَ واحدة منهما قبل أن أخرج من هذه الغرفة. ضع نفسك مكاني؛ أنا هنا، غريب في البلدة، وأنتمي إلى جماعة لا أعرف عنها إلا أنها جماعة صالحة، وستجدها منتشرة على طول الولايات المتحدة وعرضها، لكنك ستجدها دائمًا جماعة صالحة، والآن، في الوقت الذي أعتمدُ فيه على الانضمام إليها هنا، تُخبرني إنها جماعة القتل المدعوة بالدمويين نفسها. أعتقد أنك مدين لي إما باعتذار أو بتفسير يا سيد شافتر.

– لا يمكنني إلا إخبارك بما يعرفه العالم كله يا سيد. رؤساء الأولى هم رؤساء الأخرى، وإذا ما أسأت إلى الأولى، رؤساء الأخرى هم من سيلاحقونك.

فقال ماكموردو: «هذه مجرد ثرثرة، أريد إثباتًا!»

– إذا ما عشتَ هنا طويلًا فستحصل على إثباتك، لكنني نسيتُ أنك نفسك واحد منهم، وسرعان ما ستصير سيئًا كالبقية. ستجد مكان سكنٍ آخر أيها السيد، فليس بوسعي استضافتك هنا. ألا يكفي أن واحدًا من أولئك القومِ يأتي ليتودد إلى ابنتي أيتي، وأنني عاجز عن صدّه، وفوق ذلك عليّ استضافة واحد آخر في مسكني؟ بلى يكفي بالطبع، لن تنام هنا بعد هذه الليلة!

وجد ماكموردو نفسه خاضعًا لعقوبة النفي من الغرفة المريحة ومن الفتاة التي أحبّها. رآها وحيدة في غرفة الجلوس في تلك الأمسية نفسها، وصب في أذنيها متاعبه.

– لقد أعطاني والدكِ إخطارًا مسبقًا بالمغادرة للتو، ولم أكن لأهتم لو كان الأمر غرفة فحسب، لكن حقيقةً يا أيتي، رغم أني لم أعرفكِ إلا منذ أسبوع، أنتِ روح الحياة بعينها بالنسبة لي، ولا يمكنني العيش دونك!

قالت الفتاة: «أوه، صهِ يا سيد ماكموردو، لا تتكلم هكذا! ألم أخبركَ أنك متأخر جدًّا؟ ثمة شخص آخر، وحتى لو أنني لم أعده بالزواج حالًا، لا يمكنني وعد غيره على أية حال».

– افترضي أني جئتُ أولًا يا أيتي، أكنت لأحظى بفرصة؟

أغرقت الفتاة وجهها بين يديها، ونشَجَت: «أمنيتي للسماء لو أنك جئتَ أولًا!»

ركع ماكموردو على ركبتيه أمامها في لحظة، وبكى: «بحق الله يا أيتي، فليقف الأمر على هذا! أستدمرين حياتك وحياتي لأجل هذا الوعد؟ اتبعي قلبك يا أكوشلا! فهو دليل أكثر أمانًا من أي وعد وعدتِه قبل أن تعرفي ما كنتِ تقولين».

كان قد أخذ يد أيتي البيضاء بين يديه السمراوين.

– قولي إنك ستكونين لي، وأننا سنواجه الأمر معًا!

– هنا؟

– بلى هنا.

«لا، لا يا جاك!» كان قد ضمها بين ذراعيه الآن، «لا يمكن أن يحدث هذا هنا، أيمكنك أخذي بعيدًا؟»

مرّ اصطراع للحظة على وجه ماكموردو؛ لكنه انتهى بثبات كالغرانيت، وقال: «لا، هنا، سأحميكِ أمام العالم يا أيتي، في مكاننا هُنا!»

– لم لا نرحل معًا؟

– لا يا أيتي، لا يمكنني الرحيل عن هنا.

– لكن لمَ؟

– لن أتمكن من رفع رأسي مجددًا أبدًا إذا ما شعرتُ بأنني طُردت، وأيضًا، ماذا أمامنا لنخاف منه؟ ألسنا قومًا أحرارًا في بلاد حرة؟ إن كنتِ تحبينني، وأنا أحبك، فمن سيجرؤ على التدخل بيننا؟

– أنت لا تعرف يا جاك، فلم تلبث هنا إلا وقتًا وجيزًا، أنت لا تعرف بالدوين هذا، أنت لا تعرف ماكجينتي ودمويّيه.

فقال ماكموردو: «لا، لستُ أعرفهم، ولستُ أخافهم، ولا أؤمن بهم! لقد عشتُ بين رجال قساة يا عزيزتي، وبدلًا من أن أخشاهم، دائمًا ما انتهى الأمر إلى أن يخشوني هم، دائمًا يا أيتي. يبدو الأمر جنونيًّا في ظاهره! فإذا كان هؤلاء الرجال، كما يقول أبوك، قد ارتكبوا الجريمة تلو الجريمة في الوادي، والكل يعرفهم بالاسم، كيف لم يُقدم أي منهم إلى العدالة؟ أجيبيني على هذا يا أيتي!»

– لأن لا شاهدَ يجرؤ على الحضور أمامهم، فلم يكُن ليعيش شهرًا لو أنه فعل، وأيضًا لأن لديهم رجالهم المستعدين دائمًا للقسم على أن المتهم كان بعيدًا عن مسرح الجريمة، لكن لا بدّ أنك قد قرأت كل هذا بالتأكيد يا جاك. لقد فهمتُ أن كل جريدة في الولايات المتحدة نشرَت حول هذا الأمر.

– حسنًا، لقد قرأت شيئًا ما، إنه حقيقي؛ لكنني ظننته محض قصة. ربما لدى هؤلاء الرجال مبرر لفعلهم ما يفعلونه، ربما هم مظلومون وليس لديهم طريقة أخرى لمساعدة أنفسهم.

– أوه جاك، لا أسمعنّك تقول كلامًا كهذا! فهذا ما يقوله هو... الآخَر!

– بالدوين، يقول كلامًا كهذا؟

– وهذا سبب احتقاري له. أوه يا جاك، الآن بوسعي إخبارك الحقيقة، أنا أحتقره من كل قلبي؛ إنما أخافه أيضًا. أخاف على نفسي منه؛ لكنني أخاف على أبي منه فوق كل شيء. أعرف أن أسًى عظيمًا سيحيق بنا إذا ما تجرأت على قول ما أشعر به فعلًا، وهذا ما جعلني أماطله بأنصاف الوعود. كان أملنا الوحيد في الحقيقة الحقة، لكن إن تهرب معي يا جاك، فيمكننا أخذ أبي معنا والعيش إلى الأبد بعيدًا عن سطوة هؤلاء الأشرار.

ظهر اصطراع جديد على وجه ماكموردو، وثبت مجددًا كما الغرانيت: «لن يصيبك ضير يا أيتي، لا أنتِ ولا أباكِ، وبالنسبة للأشرار، أتوقع أن تجديني أسوأ من أسوئهم قبل انقضاء الأمر».

– لا، لا يا جاك! كنتُ لأثق بك في أي مكان.

ضحك ماكموردو بمرارة: «يا الله! ما أقل معرفتك بي! لا يمكن لروحكِ البريئة حتى أن تخمن ما الذي يجول في روحي. لكن، أهلًا، من الزائر؟»

فُتح الباب فجأة، ودخل شاب يتبختر بمظهرِ الزعيم. كان شابًّا وسيمًا مختالًا في نفس عمر ماكموردو وبنيته الجسدية تقريبًا، وتحتَ قبعته العريضة السوداء المكسوة

باللباد، التي لم يزعج نفسه بخلعها، له وجه وسيم القسمات بعينين ضاريتين مهيمنتين وأنف معقوف كمنقار صقر. راح يحدق بوحشية إلى الزوج الجالس بجوار الموقد.

كانت أيتي قد وثبت على قدميها يخضّها ارتباك وخوف، وقالت: «تسرني رؤيتك يا سيد بالدوين، لقد جئتَ أبكرَ مما كنتُ أعتقد، تفضل بالجلوس».

وقف بالدوين واضعًا يديه على خاصرتيه يحدق إلى ماكموردو، وسأل باقتضاب: «من هذا؟»

– إنه صديقي يا سيد بالدوين، نزيل جديد هنا. سيد ماكموردو، هل لي بتقديمك للسيد بالدوين؟

أومأ الرجلان بفظاظة إلى بعضهما.

وقال بالدوين: «ربما أخبرتْك الآنسة أيتي عما بيننا، هل أخبرتْك؟»

– لم أفهم أن ثمة أي علاقة بينكما.

– حقًّا؟ طيب، يمكنك أن تفهم ذلك الآن. خذها مني أن هذه الشابة لي، وأنك ستجد الأمسية مناسبة جدًّا للتمشية.

– شكرًا لك، لستُ في مزاج مناسب للتمشّي.

تأججت عينا الرجل الوحشيتان غضبًا: «أحقًّا تقول؟ ربما مزاجك مناسب للعراك يا سيد نَزيل!»

فصاح ماكموردو واثبًا على قدميه: «بالفعل! لم تقُل كلمة مرحَّبًا بها أكثر من هذه!»

هتفت أيتي المسكينة التائهة: «بالله عليك يا جاك! حبًّا في الله! أوه يا جاك، يا جاك، سيؤذيك!»

فقال بالدوين مطلقًا شتيمة: «أوه، جاك إذًا؟ لقد بلغتما هذا المبلغ بالفعل، أليس كذلك؟»

– أوه، تيد، كُن مسؤولًا، تعقَّل! لأجلي يا تيد، إذا ما أحببتني قط، كُن واسع الصدر وغفورًا!

قال ماكموردو بهدوء: «أعتقد أن بوسعنا تسوية الأمر إذا ما تركتنا وحدنا يا أيتي، أو ربما تهبطُ معي إلى الشارع يا سيد بالدوين، إنها أمسية بديعة، وثمة مساحة مفتوحة خلف المجمَّع المجاور».

فقال العدو: «سأصفّي حسابي معك دون الحاجة لتوسيخ يديّ، ستتمنى لو أنك لم تعتِّب هذا المنزل قط قبل أن أنتهي منك».

هتف ماكموردو: «لا وقت أفضل من الآن».

– سأختار الوقت الذي يناسبني أيها السيد، دع أمر الوقت لي. انظُر هنا!» وفجأة ثنى كمّه وأظهر علامة غريبة على ساعده بدا أنها موسومة هناك، وكانت دائرةً بداخلها مثلث، «أتعرف ما يعني هذا؟

– لا أعرف ولا يهمني!

– حسنٌ، ستعرف، أعدك بذلك، وسوف تعرف قريبًا جدًّا، وربما بوسع الآنسة أيتي إخبارك شيئًا ما عنه. أما عنكِ يا أيتي، فسترجعين إليَّ راكعة على ركبتيك، أتسمعين يا بِنت؟ على ركبتيك، وحينها سأخبرك بما قد تكون عقوبتك. لقد زرعتِ، وقسمًا بالله لأَرَينكِ تحصدين!»، ثم نظر إليهما نظرة ساخطة، وانقلب على عقبيه، وفي اللحظة التالية صُفق الباب الخارجي خلفه.

وقف ماكموردو والفتاة صامتين للحظات، ثم ألقت بيديها حوله.

– أوه يا جاك، كم كنتَ شجاعًا! لكن لا جدوى، عليك بالهروب! الليلة يا جاك، الليلة! هذا أملك الوحيد. سوف يقتلك، لقد قرأت ذلك في عينيه الرهيبتين. أي فرصة تملكُها أمام اثني عشر منهم يدعمهم الرئيس ماكجينتي والمحفل كله؟

حرر ماكموردو يديها، وقبّلها، ودفعها بلطف إلى كرسي: «رويدكَ يا أكوشلا، رويدك! لا تقلقي أو تخشي عليّ، فأنا نفسي واحد من الأحرار، وقد أخبرت والدك بهذا للتو. لعلّي لست أفضل من الآخرين؛ لذا لا تقدسيني، وربما صرتِ تكرهينني أيضًا الآن بعدما أخبرتك بهذا القدر، صحيح؟»

– أكرهك يا جاك؟ لا يمكن أن يحدث هذا أبدًا ما دمتُ حيًّا! لقد سمعتُ أن لا أذى ينجم عن كونك واحدًا من الأحرار إلا هنا؛ لذا لمَ قد أسيء الظن فيك لأجل هذا؟ لكن إن كنتَ من الأحرار يا جاك، فلمَ لم تزُر الرئيس ماكجينتي وتصادقه؟ أوه، استعجل يا جاك، استعجل! اجعل كلمتكَ الأولى، وإلا ستكون كلاب الصيد في أثرك.

قال ماكموردو: «كنتُ أفكر في الأمر نفسه، سأذهب حالًا وأصلح الأمر، يمكنك إخبار أباكِ أنني سأنام هنا الليلة وأجد مكانًا آخر في الصباح».

كان مشرب حانة ماكجينتي مزدحمًا كما جرت العادة، فقد كان المكان المفضل للتسكّع بين كل المرافق الأكثر خشونة في البلدة. كان الرجل ذائع الصيت؛ لتمتعه بسجية خشنة بشوش شكّلت قناعًا أخفى الكثير خلفه، لكن في معزل عن شعبيته،

كانت خشيته الذي يضمرها الناس على امتداد القرية، وطبعًا على طول أميال الوادي الثلاثين وخلف الجبال على جانبيه، كافية في حد ذاتها لملء مشربه؛ لأن أحدًا لم يكن قادرًا على تحمل تبعات إهمال إحسانه.

إلى جانب تلك القوى السرية التي اعتُقد عمومًا أنه اعتاد تطبيقها بطريقة وحشية، كان مسؤولًا حكوميًّا رفيعًا، ومستشارًا للمجلس البلدي، ومفوضًا عن الطرقات، وقد انتُخب في هذه المناصب بأصوات الأشرار الذين ظنوا بدورهم أنهم قد ينالون إحسانه. كانت الاقتطاعات الإلزامية والضرائب هائلة؛ والأشغال العامة مهملة جهارًا، وكان يجري التغاضي عن البيانات الحسابية برشوة مراجعي الحسابات، وإرهاب المواطن المحترم لكي يدفع المال تحت ضغط التهديد، ولأن يصون لسانه كيلا تنزل به أسوأ العواقب.

وهكذا، عامًا بعد عام، صارت دبابيس ماكجينتي الماسيّة أكثر بروزًا، وسلاسله الذهبية أكثر ثقلًا على صدرية أكثر فخامة، وامتدّ صالونه أكثر وأكثر، حتى صار يُهدد بامتصاص جانب ميدان السوق كله.

دفع ماكموردو باب الصالون المتأرجح وشق طريقه بين حشد من الرجال في جوّ ضبّبه دخان التبغ وأثقلته رائحة المشروبات الروحية. كان المكان متألّق الإضاءة، وعكسَت المرايا الضخمة المذهّبة المعلَّقة على كل حائط الإنارة الصارخة وضاعفَتها. كان ثمة عدة سقاة مرتدين قمصانًا قصيرة الأكمام يجدّون في العمل لمزج المشروبات للمتسكعين المتحلقين حول طاولة التقديم العريضة صفراء الحافات.

وفي الطرف البعيد، وقف رجل طويل قويّ ثقيل البنية، أراح جسده على المشرب حاملًا سيجارًا في زاوية حادة من فمه، لم يكن إلا ماكجينتي الشهير بعينه. كان عملاقًا بلبدةٍ سوداء كلبدة الأسد، ولحية تمتدُّ من عظم وجنتيه، إلى ياقته في كتّة من الشعر حالك السواد، وبشرةٍ سمراء سمارًا إيطاليًّا، مع عينين سوداوين سوادًا باردًا غريبًا يمازجهما حَوَل طفيف منحتاه منظرًا خبيثًا خاصًّا.

كل ما سوى ذلك في الرجل، من أبعاده النبيلة، إلى قسماته الجميلة، حتى مظهره الصادق، كان متوافقًا مع الطبيعة البشوشة الصريحة التي أبداها، وهنا، قد يقول المرء إنه شخص مخادع أمين، وقلبه سويّ مهما بدت كلماته الجريئة بذيئة، ولم يكن إلّا أنْ تحدق هاتان العينان السوداوان الباردتان إلى رجل بعُمق ووحشية، حتى ينكمش على نفسه ويشعر بأنه وجهًا لوجهٍ مع إمكانية غير محدودة للشرّ الدفين، الذي يحجب وراءه قوة وجرأة وحنكة تجعله أكثر فتكًا آلاف المرات.

بعد أن أنعم النظر في رجله المنشود، شق ماكموردو طريقه متجاوزًا الناس بوقاحته الرعناء المعهودة، ودفع نفسه عبر المجموعة الصغيرة من الحاشية الذين كانوا يتملّقون

الزعيم الجبار، ويضحكون بصخب على أضأل نكاته. حدقت عينا الغريب الشاب الرماديتان الجريئتان بجسارة من تحت النظارة إلى العينين الفتاكتين السوداوين اللتين التفتتا إليه بحدة.

– حسنًا، لا يمكنني تذكر وجهك.

– أنا جديد هنا يا سيد ماكجينتي.

– لستَ جديدًا إلى حد عجزكَ عن منح رجل محترم لقبه المناسب.

قال صوت من المجموعة: «إنه المستشار ماكجينتي أيها الشاب».

– أعتذر أيها المستشار، فأنا غريب على طرائق المكان، لكنني نُصِحت بمقابلتك.

– حسنٌ، ها قد رأيتني، وهذا كل ما في الأمر، فما رأيك بي؟

فقال ماكموردو: «لا يزال الوقت مبكرًا للجواب عن هذا، لكن إن كان قلبك كبيرًا كما جسدك، وروحك جميلة كما وجهك، فلم أكن لأطلب شيئًا أفضل».

هتف صاحب الصالون، غير متأكد ما إذا كان عليه الإطراء على هذا الضيف الجسور أو حفظ احترامه الشخصي: «ويحك! إن لك لسانًا أيرلنديًّا على أي حال».

– إذًا أنت لطيف بما يكفي لتجاوز مظهري؟

قال ماكموردو: «بالطبع».

– وقد قيل لك أن تراني؟

– أجل.

– ومن قال لك هذا؟

«الأخ سكانلان من المحفل 341، فيرميسا. أشرب بصحتك أيها المستشار، وبصحة تعارفنا الحسَن»، وحمل كأسًا قُدِّمت له إلى شفتيه، رافعًا خنصره بينما يشربها.

رفع ماكجينتي، الذي كان يراقبه بدقة، حاجبيه الأسودين الكثيفين، وقال: «أوه، هكذا إذًا؟ عليّ أن أدقق في الأمر أكثر أيها السيد...»

– ماكموردو.

– أكثر بعض الشيء يا سيد ماكموردو؛ فنحن لا نقبل أناسًا على الثقة في هذه الأرجاء، ولا نصدق كل ما قيل لنا. تعال معي لحظة، خلف المشرب.

كان ثمة غرفة صغيرة مرصوفة بالبراميل هناك. أغلق ماكجينتي الباب بحذر، وجلس على واحد منها وهو يعضّ على سيجاره بتمعّن ويتفحص رفيقه بتلك العينين المربكتين. جلسَ صامتًا تمامًا لبضع دقائق، وتحمل ماكموردو الفحصَ بمَرَح، واضعًا يدًا في جيب معطفه، والأخرى تفتلُ شاربه البنّي، وفجأة، وقف ماكجينتي وأظهر طبنجة هائلة المظهر.

وقال: «انظر هنا أيها الفتى، لو أنني ظننتك تمارس لعبة ما علينا، لانتهى أمرك عاجلًا».

أجاب ماكموردو ببعض الرفعة: «إنه لترحيب مُستغرَب أن يمنحه رئيس محفل أحرارٍ لأخ غريب».

فقال ماكجينتي: «أجل، لكن هذا نفس ما عليك إثباته، وليكُن الله في عونك إن فشلت! أين ضُممت؟»

- في المحفل 29 في شيكاغو.

- متى؟

- في 24 يونيو من عام 1872.

- تابع لأي رئيس؟

- جيمس إتش. سكوت.

- من حاكم منطقتك؟

- بارثولوميو ويلسون.

- همم! تبدو فصيحًا بما يكفي في اختباراتك. ماذا تفعل هنا؟

- أعمل، مثلما تفعلُ أنت، إنما عمل أكثر تواضعًا.

- إن جوابكَ على طرف لسانك.

- بلى، لطالما كنتُ سريع الخطاب.

- هل أنت سريع الحركة؟

- نوديتُ بهذا الاسم بين الذين يعرفونني حق المعرفة.

- حسنًا، ربما نجربك أعجلَ مما تظن. هل سمعتَ أي شيء عن المحفلِ في هذه الأنحاء؟

– سمعتُ أن الغدوّ أخٌ يتطلّب رجلًا.

– وهذا حق يا سيد ماكموردو. لم غادرتَ شيكاغو؟

– إنني هالكٌ لو أخبرتك هذا!

فتح ماكجينتي عينيه على اتساعهما، إذ لم يكن معتادًا على أن يجيبه أحد بطريقة كهذه، وسلّاه الأمر.

– لمَ لن تخبرني؟

– لأنه لا ينبغي للأخ الكذب على أخٍ آخر.

– إذًا الحقيقة على درجة من السوء تمنع قولها؟

– يمكنك اعتبار الأمر هكذا لو أردت.

– اسمع أيها السيد، لا يمكنك توقع أنني، وبصفتي رئيس محفل، سأسمح بشخص لا يمكنه الإجابة عن ماضيه في محفلي.

بدا ماكموردو مرتبكًا، ثم أخرج قطعة جريدة بالية من جيبه الداخلي.

وقال: «لن تشي برفيق، صحيح؟»

فهتف ماكجينتي بحرارة: «سأمحو وجهك بيدي إذا وجهتَ لي كلامًا كهذا!»

قال ماكموردو بخنوع: «أنت محق أيها المستشار، أعتذر منك، لقد تكلمتُ دون تفكير. حسنٌ، أعلم أنني في أمان بين يديك. انظر إلى القصاصة».

مرّر ماكجينتي عينيه على رواية لإطلاق النار على شخص اسمه جوناس بينتو في حانة ليك في ماركيت ستريت، شيكاغو، في أسبوع رأس السنة 1874.

وسأل وهو يعيد الورقة إليه: «فِعلتُك؟»

أومأ ماكموردو برأسه.

– لم أرديته؟

– كنتُ أساعد العم سام في صناعة بعض الدولارات، ربما لم تكن دولاراتي ذهبية كدولاراته، لكنها بدت جيدةً وتكاليف صناعتها أقل. ساعدني هذا الرجل المدعوّ بينتو في دسّ العملة الزائفة...

– في ماذا؟

– حسنًا، هذا يعني تمرير الدولارات إلى التداول، ثم قال إنه سينفصل عني، ربما كان قد انفصل فعلًا، لكنني لم أنتظر لأرى، فقتلته وفررت إلى بلاد الفحم.

– لمَ اخترتَ بلاد الفحم؟

– لأنني قرأت في الجرائد أن سكان هذه المناطق ليسوا متميزين جدًّا.

ضحك ماكجينتي: «كنتَ مُزيّف عملة في البداية، ثم صرتَ قاتلًا، وجئتَ إلى هذه الأرجاء لأنك ظننتَ أنك سيُرحَب بك».

فأجاب ماكموردو: «هذه هي المسألة بالتقريب».

– حسن، أظن أنك ستنجح في حياتك. اسمع، أما زال بوسعك صناعة هذه الدولارات؟

أخرج ماكموردو ستة من جيبه، وقال: «لم تُثر هذه شكوك دار سكّ فيلادلفيا قط».

أمسكها ماكجينتي في يده العملاقة، والتي كانت مُشعرة كيدِ غوريلا: «غير معقول! يا إلهي، لستُ أرى فرقًا! أظنك ستكون أخًا ذا فائدة عظيمة! يمكننا الاستفادة من فاسدٍ أو اثنين بيننا أيها الصديق ماكموردو: فثمة أيام يتعيّن علينا القيام بدورنا فيها، وسرعان ما نصير محشورين في طريق مسدودٍ إن لم نستطع دفعَ أولئكَ الذين يدفعوننا».

– حسنًا، أظنّ أنني سأقوم بنصيبي من الدفع مع بقية الصبية.

– يبدو أنك تتحلى بجسارة صَلدة، ولم تتلوَّ حينما دفعتُ بهذا السلاح ناحيتك.

– لم أكن أنا الشخص المعرَّض للخطر.

– من إذًا؟

أخرج ماكموردو مُسدسًا ملقمًا من الجيب الجانبي لسترته: «أنت أيها المستشار، كنتُ أغطي جانبك طيلة الوقت، وأظن أن طلقتي ستكون سريعة بقدر طلقتك».

احمرّ ماكجينتي غضبًا ثم انفجر في ضحكة هادرة: «يا إلهي! أقول لك، لم نحظَ ببأسٍ رهيب كهذا هنا منذ سنوات، وأعتقد أن المحفل سيفخر بك... حسنًا، ماذا تريد بحق الجحيم؟ ألا يمكنني التكلم على انفراد مع سيد محترم لخمس دقائق دون أن تتطفل علينا؟»

وقف الساقي مرتبكًا: «أنا آسف أيها المستشار، لكنه تيد بالدوين، ويقول إن عليه رؤيتك الآن حالًا».

لم تكن الرسالة ضرورية؛ فقد كان الوجه المتصلّب القاسي للرجل نفسه يحدق من خلف كتف الخادم، ودفعه إلى الخارج مغلقًا الباب خلفه.

وقال بعد أن ألقى نظرة حانقة على ماكموردو: «إذًا وصلتَ إلى هنا أولًا أليس كذلك؟ لديّ ما أقوله لك أيها المستشار عن هذا الرجل».

فصاح ماكموردو: «إذًا قله هنا والآن في وجهي».

– سأقوله في الوقت الذي أريد وبالطريقة التي أرغب.

قال ماكجينتي وهو ينهض عن برميله: «تؤ تؤ! هذا لن يجدي البتة، فلدينا أخ جديد هنا يا بالدوين، ولسنا من يُرحب بأخٍ بطريقة كهذه. مدّ يدك يا رجل، وتصالحا!»

فصرخ بالدوين وقد ثارت حفيظته: «قطعًا لا!»

قال ماكموردو: «لقد عرضتُ أن أعاركه إذا كان يظن أنني مخطئ بحقه، سأقاتله بقبضتيّ، أو بأي وسيلة أخرى يختارها إذا كانت القبضات لا ترضيه، والآن سأترك الأمر لك أيها المستشار، لتحكم بيننا كما يتعين على الرئيس أن يفعل».

– ما الأمر إذًا؟

– آنسة شابة، وهي حرة لتختار بنفسها.

فهتفَ بالدوين: «أهي كذلك؟»

قال الزعيم: «حينما يكون الأمر بين أخوين في المحفل فعليّ القول إنها حرة».

– أوه، هذا حكمك إذًا؟

فقال ماكجينتي، مع نظرة شرّانية: «بلى هو كذلك يا تيد بالدوين، فهل أنتَ مَن يخالفه؟»

– ستتخلى عن مَن وقف إلى جانبك خمس سنوات من أجل رجل لم تره في حياتك قط؟ لن تكون رئيسًا إلى الأبد يا جاك ماجكينتي، وقسمًا بالله! حينما يبلغ الأمر التصويت مجددًا...

وثب المستشار عليه مثل نمر، وقبض بيده على عنق الآخر، وقذفه بعنف فوق أحد البراميل. كان ليعتصر الحياة منه في موجة انفعاله المخبول لو لم يتدخل ماكموردو.

وصاح بينما جرّه إلى الخلف: «على رسلك أيها المستشار! تلطّف بحق السماء!»

أرخى ماكجينتي قبضته، وجلس بالدوين، خاضعًا ومرتجفًا يلهث لكي يلتقط أنفاسه، ويرتجف حتى أطرافه، مثل شخص بلغ حافة الموت بعينها، على البرميل الذي

دُفع من فوقه.

صرخ ماكجينتي، وصدره الضخم يعلو وينخفض: «أنتَ تطالب بهذا منذ أيام عديدة يا تيد بالدوين، وها قد حصلت عليه! ربما تظنّ أنك ستجد نفسكَ مكاني إذا ما خسرتُ الرئاسة بالتصويت، وهذا أمر يقرره المحفل، لكن طالما أنا الرئيس لن أسمح لأي رجل أن يرفع صوته عليّ أو على أحكامي».

فتمتم بالدوين وهو يتحسس حلقه: «ليس لديّ أي شيء ضدك».

هتف الآخر، منقلبًا في لحظة إلى بشاشة مخادعة: «حسنٌ إذًا، كلنا أصدقاء طيبون مجددًا، وهذه نهاية المسألة».

أنزل قنينة شامبانيا عن الرف وبرَم السدادة.

وتابع كلامه بينما يملأ ثلاث كؤوس طويلة: «دعونا الآن نشرب نخبَ شجار المحفل، وبعد ذلك، كما تعلمون، لا يمكن أن تبقى ضغينة بيننا. الآن إذًا، واليد اليسرى على تفاحة حلقي. أقول لك يا تيد بالدوين، ما هي الإهانة يا سيدي؟»

أجاب بالدوين: «السحبُ كثيفة».

- لكنها ستشرق أبدًا.

- وأقسم على هذا!

شرب الرجال كؤوسهم، وأقيم الطقس نفسه بين بالدوين وماكموردو.

هتف ماكجينتي، وهو يفرك يديه: «أحسنتما! هذه نهاية الضغينة، وستخضعان لعقاب المحفل إذا ما تمادى الأمر، وقبضة المحفل حديدية في هذه الأمور، كما يعرف الأخ بالدوين، وكما ستعرف عاجلًا إذا ما أردتَ المتاعب اللعينة يا أخ ماكموردو!»

فقال ماكموردو: «كلي ثقة، وسأكون غبيًّا لأفعلَ ذلك»، ومدّ يده ناحية بالدوين: «إني سريع الشجار وسريع العفو، وهذا في دمي الأيرلندي الحامي كما يُقال لي. لكن الأمر انتهى بالنسبة لي، ولا أكنّ لك أية ضغينة».

كان بالدوين مضطرًّا إلى مصافحة اليد الممتدة إليه، وذلك لأن عين الرئيس الرهيب المؤذية مسلطة عليه، لكن وجهه العابس أظهر كم كان أثر كلمات الآخر عليه ضئيلًا.

صفَع ماكجينتي كتفي كليهما، وصاح: «تؤ! هاته الفتيات! هاته الفتيات! إن حيلولة نفس التنورة الداخلية بين اثنين من فتياني لحظّ يفلق الصخر! حسن، على النساء الجامحات داخلهنّ تسوية القضية لأنها أمر خارج عن سلطة الرئيس القضائية، وليُحمد الله على هذا! إذ لدينا ما يثقل كاهلنا دون همّ النساء فوقه. يجب أن يجري

ضمك إلى المحفل 341 يا أخ ماكموردو، ولدينا طرقنا وأساليبنا الخاصة المختلفة عن شيكاغو. موعد اجتماعنا مساء السبت، وإذا جئت حينها سنجعلك من أحرار وادي فيرميسا إلى الأبد».

الفصل الثالث

المحفل 341، فيرميسا

في اليوم التالي للأمسية الزاخرة بالأحداث، نقل ماكموردو مسكنه من بنسيون جيكوب شافتر العجوز إلى خاصة الأرملة ماكنامارا الواقع في أقصى مشارف البلدة. حظي سكانلان، أول معارفه على متن القطار، بفرصة للانتقال إلى فيرميسا بعد ذلك بفترة وجيزة، وسكن الاثنان معًا. لم يكن ثمة نزلاء آخرون، وكانت المضيفة امرأة أيرلندية سهلة المعشر تركتهما وشأنهما؛ لذا كانا يحظيان بحرية الكلام والحركة التي يرحب بها رجلان يتشاركان بعض الأسرار.

لانَ شافتر إلى حد السماح لماكموردو بالمجيء لتناول وجباته عنده متى يشاء؛ لذا لم ينقطع اتصاله بأيتي بأية طريقة، بل على العكس، صار أوثق وأكثر حميمية مع توالي الأسابيع.

شعر ماكموردو أن الوضع آمن في غرفة نوم مسكنه الجديد لكي يُخرجَ قوالب طبع النقود الخاصة به، وتحت الكثير من تعهدات الحفاظ على السرية، سمح لعدد من الإخوة في المحفل بالقدوم لرؤيتها، ولكي يحمل كلٌّ منهم في جيبه بعض المال المزيف والمضروب بمكر شديد، فيصير تمريره إلى التداول خاليًا من أيّ صعوبة أو مخاطر. أمّا عن سبب تنازله لأجل العمل من الأساس، برغم امتلاكه لهذا الفن الرائع طوع بنانه، فقد كان لغزًا أزليًّا بالنسبة لزملائه؛ رغم إيضاحه لكل سائلٍ بأنه لو عاش دون وسيلة ظاهرة للعيان يكسب بها عيشه، لكانت الشرطة ستطارده على الفور.

في الواقع، كان ثمة شرطي في أثره بالفعل؛ لكن الحادثة صبّت في صالح المغامِر أكثر بكثير مما أضرّت به. مرّت بضع ليالٍ بعد تعارفهما الأول لم تسُقه قدماه فيها إلى صالون ماكجينتي، وذلك بغية توطيد معرفته «بالصِّبية»، اللقب المَرِح المتعارف عليه بين أعضاء العصابة الخطرة، التي عاثت فسادًا في كل مكان. جعلته طبيعته الطائشة وجرأته في الكلام مقربًا للجميع؛ في حين أن الطريقة السريعة والعملية التي هزم بها خصمه في عراكِ غرفةِ المشرب، التي راهن فيها بكل شيء، قد أكسبته احترام ذاك المجتمع الخشن. ومع هذا، فقد وقعَت حادثة أخرى زادت من تقديرهم له فوق ذلك.

في تمام ساعة ذروة إحدى الليالي، فُتح الباب ودخل رجل يرتدي الزيّ الرسمي الأزرق الهادئ والقبعة البارزة الخاصة بشرطة المناجم. كانت هذه مجموعةً خاصة أنشأها أصحاب شركات السكك الحديدية ومناجم الفحم، لمضاعفة جهود رجال

الشرطة المدنية العادية الذين كانوا عاجزين تمامًا في مواجهة البلطجة المنظمة التي روّعت المنطقة. ساد صمت إثر دخوله، واتجه العديد من النظرات المتسائلة إليه؛ لكن العلاقات بين رجال الشرطة والمجرمين مميزة في بعض أصقاع الولايات المتحدة، ولم يبدُ على ماكجينتي الواقف خلف طاولة التقديم نفسه أي استغراب عندما ظهر الشرطي بين زبائنه.

قال ضابط الشرطة: «كأسًا من الويسكي الصافي، فالليلة قارسة. لا أظن أننا التقينا من قبل، حضرتك المستشار؟»

فقال ماكجينتي: «إذًا فأنتَ النقيب الجديد، صحيح؟»

– صحيح، وإننا نتوقع منك أيها المستشار، ومن المواطنين البارزين الآخرين مساعدتنا في ترسيخ القانون والنظام في هذه البلدة. اسمي النقيب مارفن.

قال ماكجينتي ببرود: «سنكون أفضل حالًا دونك أيها النقيب مارفن، فلدينا شرطتنا الخاصة في البلدة، ولا حاجة لنا بأي بضائع مستوردة. ماذا تكونون إلا أداة مدفوعة الأجر للرأسماليين الذين وظفوكم، لكي تضربوا بالهراوات وتطلقوا النار على أشقائكم المواطنين الأكثر تعاسة؟»

فقال الضابط بودّية: «حسنًا حسنًا، لن نتجادل حول هذا الأمر. آمل أن يقوم كل منا بواجبه كيفما يراه؛ فلا يمكن لكلينا رؤية الأمور من وجهة النظر نفسها»، كان قد شرب كأسه واستدار لكي يغادر، حينما وقعت عيناه على وجه جاك ماكموردو، الذي كان مقطبًا جبينه بالقرب منه، وهتَف وهو يقلب النظر فيه بازدراء: «أهلًا! أهلًا! ها هنا معرفة قديمة!»

انكمش ماكموردو مبتعدًا عنه، وقال: «لم أكن صديقكَ ولا صديق أي شرطي لعينٍ في حياتي قط».

قال نقيب الشرطة مبتسمًا ابتسامة عريضة: «لا تكون المعرفة صداقةً دائمًا. أنتَ جاك ماكموردو من شيكاغو، وأنا متأكد من ذلك، فلا تُنكر!»

هز ماكموردو كتفيه مستهجنًا، وقال: «لستُ أنكر، أتظنُ أنني خَجِل من اسمي؟»

– لديك سبب وجيه لتكون خجلًا بأي حال.

فزمجر ماكموردو وشدّ قبضتيه: «ماذا تقصد بهذا بحق الشيطان؟»

– لا لا يا جاك، لن ينفع الصخب معي. لقد كنتُ ضابطًا في شيكاغو قبل أن آتي إلى مخزن الفحم اللعين هذا، وأعرف محتالي شيكاغو حينما أراهم.

بدت علامات الخيبة على وجه ماكموردو، وصاح: «لا تقل لي إنك مارفن من قسم شيكاغو سنترال!»

– تيدي مارفن السابق نفسه في خدمتك. لم ننسَ إطلاق النار على جوناس بينتو هناك.

– لم أطلق النار عليه.

– لم تفعل؟ هذا دليل محايد ومقنِع، أليس كذلك؟ حسن، كان موته ذا فائدة نادرة بالنسبة لك، وكانوا ليقبضوا عليك بتهمة دسّ العملة الزائفة بدلًا منه. يمكننا طي صفحة الماضي الآن؛ لأنه بيني وبينك –وربما أتجاوز تكليفيَ في قول هذا– لم يتمكنوا من إثبات التهمة عليك، وشيكاغو مفتوحة أمامك من الغد.

– أنا على خير ما يرام هنا.

– حسنًا، لقد أسديتك النصيحة، وإنك لكلبٌ نكدٌ إن لم تشكرني على ذلك.

فقال ماكموردو بصيغة غير لطيفة تمامًا: «حسن، أحسبُ أن نيتك طيبة، لذا أشكرك».

قال النقيب: «سألتزم الصمت ما دُمت أراك تسير على الطريق القويم، لكن قسمًا بالله! إذا ما انحرفتَ عنه هذه المرة، ليكوننّ بيننا قصة أخرى! عمتَ مساءً، وعمتَ مساءً أنت أيضًا أيها المستشار».

ثم غادر الحانة، لكنه كان قد خلق بطلًا محليًّا، فقد انتقلت همسات عن فِعال ماكموردو في شيكاغو قبل مجيئه، وكان يتخلّص من كل الأسئلة بابتسامةٍ كشخص لا يرغب في أن تُسبَغ عليه العظمة، أمّا الآن فقد أُثبت الأمر رسميًّا، واحتشد متسكعو الحانة حوله يصافحون يده بمودّة، وصار أحدَ أحرار المجتمع منذ ذلك الحين. كان قادرًا على الإسراف في الشرب دون أن يظهر عليه أثره؛ لكن لو لم يكن رفيقه سكانلان موجودًا ليقوده إلى المنزل ذاك المساء، لأمضى البطل المكرم ليلته تحت المشرب بكل تأكيد.

جرى ضمّ ماكموردو إلى المحفل في إحدى ليالي السبت. كان قد اعتقدَ أنه سيُدخَل دون مراسم كونه سبقَ وقام بها في شيكاغو؛ لكن كان لديهم طقوس محددة يفخرون بها في فيرميسا، وعلى كل مرشَّح أن يخضع لها. التقَت الجماعة في غرفة ضخمة مخصصة لغايات كهذه في بيت الاتحاد. احتشد نحو ستة عشر عضوًا في فيرميسا؛ لكنهم لم يمثلوا القوة الكاملة للمنظمة بتاتًا، إذ كان ثمة محافل عديدة غيره في الوادي، وغيرها خلف الجبال على الجانبين، وكانوا يتبادلون الأعضاء حينما تُنفذ مهمة خطِرة

ما، كي تُرتكب الجريمة على أيدي رجال غرباء عن المنطقة. كان مجموع الكل لا يقل عن خمسمئة عضو متناثرين عبر مقاطعة الفحم.

اجتمع الرجال في قاعة الاجتماعات العارية حول طاولة مستطيلة، وبجوارها طاولة أخرى مثقلة بالقناني والكؤوس، كانت أعيُن بعض الأعضاء تلتفت إليها بالفعل. جلس ماكجينتي على رأس الطاولة مرتديًا قبعة مفلطحة من المخمل الأسود فوق لبدة شعره الداكن المتشابك، وشالًا بنفسجيًّا حول عنقه، فبدا مثل قس يترأس شعيرة شيطانية ما. جلس إلى يمينه وإلى يساره أرفع مسؤولي المحفل منزلة، بينهم الوجه القاسي الوسيم لتيد بالدوين، يرتدي كل منهم وشاحًا أو قلادة ما تُشير لمنصبه.

كان معظمهم رجالًا ناضجين، لكن تألفت بقية الزُمرة من شُبان أعمارهم بين الثامنة عشرة والخامسة والعشرين، هم العملاء المستعدون والأكْفَاء الذين كانوا ينفذون أوامر مسؤوليهم. كان بين الرجال الأكبر سنًّا العديد ممَّن أظهرت ملامحهم الأرواح البربرية الجامحة الكامنة خلفها؛ لكن بالنظر إلى صغار الأعضاء كان من الصعب تصديق أن هؤلاء الشبان المتحمسين واضحي الملامح، كانوا في صلب حقيقتهم عصابة خطِرة من القتلة الذين تعرضت عقولهم إلى تضليل أخلاقي تام كهذا، جعلهم يفتخرون افتخارًا رهيبًا ببراعتهم في العمل، وينظرون باحترام مفرط إلى الرجل الذي اشتُهر بإعداد ما أطلقوا عليه تسمية «العمل النظيف».

بالنسبة لطبيعتهم المشوهة؛ صار التطوع لأداء مهمة هدفها شخص لم يؤذهم قط، وفي كثير من الأحيان لم يكونوا قد رأوه في حياتهم، أمرًا شجاعًا ونبيلًا. كانت تُرتَكب الجريمة، فيتشاجرون فيما بينهم حول هوية الضارب الحقيقي للضربة القاتلة، ويسلّون بعضهم وباقي الزُمرة بوصف نداءات الرجل المقتول وتلوّيه.

أظهروا في البداية بعض السرية في إجراء ترتيباتهم؛ لكن في الوقت الذي تصوّره هذه الحكاية كانت إجراءاتهم علنية على نحو استثنائي، لأن فشل القانون المتكرر قد أثبت لهم أنه –من جانب– لن يجرؤ أحد على الشهادة ضدهم، ومن الجانب الآخر لديهم عدد لا متناهٍ من الشهود الثابتين الذين بوسعهم استدعاؤهم، وخزينة كنوز مليئة تزودهم بالتمويل الكافي للاستحواذ على أفضل المواهب القانونية في الولايات المتحدة. خلال عشر سنوات من الفظاعة، لم تحدث حتى إدانة واحدة، وكان الخطر الوحيد الذي هدّد الدمويّين يكمن في الشخص الضحية نفسه، الذي قد يتمكن من ترك علامة على مهاجميه مهما فاقوه عددًا وباغتوه بفَعلتهم، وكان هذا يحدث أحيانًا.

حُذِّر ماكموردو من أن بلاءً ما يترصّده؛ لكن أحدًا لم يُخبره بمضمونه. كان قد سيق الآن على يد أخوين وقورين إلى غرفة خارجية، وكان بوسعه سماع تمتمة الأصوات العديدة من قاعة الاجتماع عبر حاجز خشبي. التقطَ مرةً أو اثنتين وقْعَ اسمه، وعرفَ

أنهم كانوا يناقشون ترشّحه، ثم دخل رقيب داخلي يرتدي وشاحًا أخضر مذهَّبًا على صدره.

وقال: «أمر الرئيس أن يوثَّق وتُعصب عيناه قبل إدخاله».

نَزع ثلاثتهم معطفه، وثنوا كمَّ ذراعه اليمنى، وأخيرًا مرروا حبلًا لفّوه فوق كوعيه وشدوه بإحكام. ثم وضعوا قلنسوة سوداء سميكة فوق رأسه والجزء العلوي من وجهه ليعجز عن الرؤية، وقادوه بعدها إلى قاعة الاجتماع.

كان الظلام دامسًا وثقيلًا تحت قلنسوته، وسمع هسهسة الناس وتمتمتهم حوله، ثم صوت ماكجينتي الذي بدا غليظًا وبعيدًا عبر غطاء أذنيه.

قال الصوت: «جون ماكموردو، هل أنت أخ بالفعل في أخوية الأحرار العتيقة؟»

انحنى موافقًا.

- هل محفلك هو الرقم 29 في شيكاغو؟

انحنى مجددًا.

قال الصوت: «الليالي الدجناء بشعة»،

فأجاب: «أجل، لسفرِ الغرباء»

- السحُب كثيفة.

- أجل، ثمة عاصفة تقترب.

فسأل الرئيس: «هل الإخوة راضون؟»

سُمعت دمدمة قبول عامة.

قال ماكجينتي: «نحن نعرف من إشارتك ومن كلمة السر أنك واحد منا بالفعل أيها الأخ، ومع ذلك، نريدك أن تعلم أن لدينا في هذه المقاطعة وغيرها من مقاطعات المنطقة طقوسًا وواجبات معينة خاصة بنا تتطلب رجالًا جديرين، فهل أنت مستعد للاختبار؟»

- أجل.

- أقويّ القلب أنت؟

- أجل.

- تقدم خطوة لإثبات ذلك.

شعَرَ بعد أن نُطقت الكلمات بحافتين حادتين قبالة عينيه تضغطان عليهما حتى بدا أنه يعجز عن التقدم دون المخاطرة بخسارتهما، وعلى الرغم من هذا، فقد استفزّ جسارته ليخطو بحزم، وحينما فعل ذلك تلاشى الضغط، وتردّدت دمدمة تهليل خافتة.

فقال الصوت: «إنه قويّ القلب حقًّا، أيمكنك تحمّل الألم؟»

أجاب: «الألم وغيره».

- جرّبه!

كان كلّ ما تمكن من فعله هو منع نفسه من الصراخ ملء صوته، فقد انطلق في ساعده ألم مبرّح كاد أن يُغشى عليه من صدمته المفاجئة؛ لكنه عضّ على شفته وشد قبضتيه لإخفاء عذابه.

وقال: «يمكنني تحمّل أكثر من هذا».

علا صوت التهليل هذه المرة، إذ لم يعرف المحفل حضورًا أول أفضل من هذا، وصارت الأيدي تربّت كتفيه، ونُزعت القلنسوة عن رأسه، فوقف يرمش ويبتسم وسْطَ تهاني الإخوة.

قال ماكجينتي: «كلمة أخيرة يا أخ ماكموردو، لقد أقسمتَ قسم السرية والطاعة بالفعل، وأنت مدرك أن عقوبة أي إخلال به هي الموت المباشر والمحتوم، صحيح؟»

قال ماكموردو: «بلى، أنا مدرك لذلك».

- وأنت تقبل حُكم الرئيس الحالي تحت أي ظرف؟

- أقبل.

- إذًا باسم المحفل رقم 341 في فيرميسا، أرحب بك عضوًا لتحظى بامتيازاته وتشارك في مناقشاته. ضع الخمور على الطاولة يا أخ سكانلان لنشرب بصحة أخينا الكفء.

جُلب معطف ماكموردو إليه؛ لكنه عاين ذراعه اليمنى قبل أن يلبسه، وكان ألمها ما يزال ممضًّا. كان على جلد ساعده دائرة بداخلها مثلث، عميقة وحمراء مثلما تركها المِيسَم، فجذب واحد أو اثنان من جيرانه أكمامهما وأظهرا علامتَي المحفل الخاصة بهما.

قال أحدهم: «كلنا حصلنا عليها، لكن لم يكن الجميع في مثل شجاعتك».

قال: «تؤ! لم يكن ذلك شيئًا يذكر»، ولكنها أحرقته وآلمته برغم هذا.

استُؤنف عمل المحفل بعد أن فُرغ من كل المشاريب التي تَلَت مراسم الاستهلال، واستمع ماكموردو، الذي لم يألف إلا مراسم شيكاغو المبتذلة، إلى ما أعقب ذلك بآذان صاغية ودهشة أكثر مما خاطر بإظهاره.

قال ماكجينتي: «أول مهمة في جدول الأعمال هي قراءة الرسالة التالية من رئيس الدائرة ويندل من مقاطعة ميرتن المحفل 249، يقول:

سيدي العزيز:

ثمة مهمة يجب تنفيذها هدفها أندرو راي من شركة راي وستورماش، وهُم مُلاك منجم فحم بالقرب من هذا المكان. تذكر أن محفلك يدِين لنا بردّ الجميل، بعد أن استفاد من خدمات اثنين من الإخوة فيما يخص شرطي الدورية في الخريف الماضي. أرسل لنا رجلين بارعين، وسيكون أمين الصندوق هيغينز من محفلنا مسؤولًا عنهما. أنت تعرف عنوانه، وسيقوم بإخبارهما متى وأين يتعين التنفيذ.

المخلص في خدمتك،

ـــــــ جيه. دبليو. ويندل ر. د. أ. أ. ع.

«لم يرفض ويندل طلبنا قطّ حينما دعتنا الحاجة إلى استعارة رجل أو اثنين، ولسنا نحن من يرفض طلبه». توقف ماكجينتي قليلًا وقلّب عينيه الثقيلتين الماكرتين في الغرفة، «من سيتطوع لهذه المهمة؟»

رفع عدد من الأعضاء الشبان أيديهم، فنظر إليهم الرئيس بابتسامة رضى.

– ستفي بالغرض أيها النمر كورماك، ولن تُخطئ إذا ما تدبرتها كما تدبرت مهمتك الأخيرة، وأنت يا ويلسون.

فقال المتطوع، وهو محض شاب في سن المراهقة: «لا أملك مسدسًا».

– إنها مهمتك الأولى، أليس كذلك؟ حسنًا، لا بدّ من تضريجك بالدماء أولًا وأخيرًا، وستكون هذه انطلاقة رائعة بالنسبة لك. أما عن المسدس، فستجده في انتظارك إن لم أكن مخطئًا. إذا قدمتما نفسيكما يوم الاثنين سيكون الوقت كافيًا، وستحظيان بترحيب حار عند عودتكما.

فسأل كورماك، وهو شاب غليظ البنية داكن الوجه وحشي المظهر، أكسبته ضراوته لقب «النمر»: «أهناك جائزة هذه المرة؟»

– لا تشغلنّ بالك بالجائزة، وافعلها احترامًا لشرف الأمر. ربما تجد بعض الدولارات الزائدة في قعر الصندوق حين تُنجز المهمة.

سأل ويلسون الصغير: «ماذا فعل الرجل؟»

– لا يحق لأمثالك السؤال عما فعله الرجل، فقد حُكم عليه هناك، والأمر لا يخصنا. كل ما علينا فعله هو تنفيذ المهمة لأجلهم، مثلما كانوا ليفعلوا من أجلنا. بالحديث عن هذا، سيأتي اثنان من إخوتنا في محفل ميرتون الأسبوع القادم لينجزوا لنا عملًا في هذه المنطقة.

سأل شخص ما: «مَن هما؟»

– صدقني، من الأكثر حكمةً ألا تسأل، فإن لم تكن تعرف شيئًا، لا يمكنك الشهادة بشيء، ولا تصيبنا متاعب جراء الأمر، لكنهما رجلان يُنجزان عملًا نظيفًا عندما يتوليانه.

هتَف تيد بالدوين: «والوقت مناسب أيضًا! فالشعب يخرج عن السيطرة في هذه الأنحاء، وفي الأسبوع الماضي فقط صدّ فورمان بليكر ثلاثة من رجالنا. إنه يطلبها منذ وقت طويل، وسيحصل عليها محشوة وبحسب الأصول».

همس ماكموردو لجاره: «يحصل على ماذا؟»

فصاح الرجل مطلقًا ضحكة مجلجلة: «رأس خرطوشة بندقية يخترقه! ما رأيك بنهجنا أيها الأخ؟»

بدا أن نَفْسَ ماكموردو الإجرامية قد تشرّبت بالفعل روح الجماعة السافلة التي صار فردًا فيها، وقال: «يعجبني هذا جدًّا، إنه المكان الملائم لفتى ذي حميّة».

سمع عدد من الجالسين حوله كلماته وأطروا عليها.

فهتَف الرئيس ذو اللبدة من رأس الطاولة: «ما الأمر؟»

– إنه أخونا الجديد يا سيدي، وقد وجدَ نهجنا ملائمًا لذوقه.

نهض ماكموردو واقفًا في الحال: «أريد القول أيها السيد الرئيس، إنني أتشرف باختياري لمساعدة المحفل إذا ما نُشد رجل ما».

علا تصفيق وتهليل عارمان إثر هذا الكلام، وساد شعور كأن شمسًا جديدةً تدفعُ طوقها فوق الأفق، أما بالنسبة لبعض القُدماء فقد بدت العملية متعجّلة بعض الشيء.

قال الأمين هاراوي العجوز عقابيّ الوجه أشيب اللحية، الجالس بجوار الرئيس: «كنتُ لأحثّ الأخ ماكموردو على أن ينتظر الوقت المناسب، وسيكون من دواعي سرور

المحفل الاعتماد عليه».

فقال ماكموردو: «بالتأكيد، هذا ما قصدته؛ أنا طوع بنانكم».

قال الرئيس: «سيحين وقتكَ أيها الأخ، فقد سجلناك رجلًا مستعدًّا، ونعتقد أنك ستُنجز عملًا جيدًا في هذه الأرجاء. ثمة مسألة صغيرة الليلة يمكنك المشاركة فيها إذا سرّك هذا».

– سأنتظر شيئًا ذا قيمة.

«يمكنك المجيء الليلة بأي حال، وسيساعدك هذا على معرفة ما نمثّله في هذا المجتمع. سأذيع الإعلان لاحقًا، وفي هذه الأثناء»، نظرَ إلى جدول أعماله: «لديّ موضوع أو اثنان لأطرحهما في الاجتماع. قبل كل شيء، أريد سؤال أمين الخزينة عن رصيدنا المصرفي، فعلينا أن نصرف نفقة جيم كارناوي لصالح أرملته، إذ قُتل أثناء تأديته عمل المحفل، ومن واجبنا التأكد من أنها ليست الخاسر الوحيد».

فقال جار ماكموردو له: «أُردي جيم في الشهر الماضي عندما حاولوا قتل تشيستر ويلكوكس من مارلي كريك».

قال أمين الخزينة ودفتر الحساب المصرفي مفتوح أمامه: «التمويل جيد في الوقت الراهن، فقد كانت الشركات سخية مؤخرًا. دفعت شركة ماكس ليندر وشركائه خمسمئة لنتركهم وشأنهم، وأرسلت شركة ووكر وإخوانه مئة؛ لكنني أخذت الأمر على عاتقي أن أردّها وأطلب خمسمئة، وربما تتعطل معدات الرفع خاصتهم إذا لم أسمع ردًّا بحلول يوم الأربعاء، فقد اضطررنا إلى حرق كسّارتهم العام المنصرم حتى صاروا عقلاء. ثم دفعت شركة الفحم في القسم الغربي مساهمتها السنوية. لدينا ما يكفي في المتناول لسداد أي التزام».

سأل أحد الإخوة: «ماذا عن آرتشي سويندن؟»

– باع كل شيء وغادر المنطقة. ترك لنا العفريت العجوز خطابًا يقول فيه إنه يفضل أن يكون كنّاسًا في طرقات في نيويورك، على أن يكون مالك منجم فحم ضخم تحت رحمة زُمرة من المبتزّين هنا. يا إلهي! بالإضافة إلى أنه فرّ قبل وصول الخطاب إلينا! لا أظن أنه سيخطو هذا الوادي مجددًا.

نهض واحد من القدماء، وكان رجلًا حليق الوجهِ لطيفهُ وله سحنة خيّرة، من رأس الطاولة المقابل للرئيس، وسأل: «سيدي أمين الخزينة، هل لي أن أسأل من اشترى أملاك هذا الرجل الذي أجليناه عن المنطقة؟»

– بلى يا أخ موريس، لقد اشترتها شركة السكك الحديدية لمقاطعة ستيت وميرتن.

– ومن اشترى مناجم تودمان وَلي التي بيعت بالطريقة نفسها في العام الماضي؟

– نفس الشركة يا أخ موريس.

– ومن اشترى المشغولات الحديدية خاصة مانسون وشومان وفين دير وآتوود، التي استُغني عنها كلها مؤخرًا؟

– اشترتها كلها شركة تعدين ويست غليمرتون جنرال.

فقال الرئيس: «لا أرى أن هوية مشتريها تشكل فرقًا بالنسبة لنا يا أخ موريس، ما دام لا يمكنه حملها خارج المنطقة».

– مع فائق احترامي لكَ سيدي الرئيس، أعتقد أنه قد يشكل فارقًا كبيرًا بالنسبة لنا، فهذه العملية تجري منذ عشرة أعوام طوال، وإننا تدريجيًّا نُخرج كل صغار التجار من العمل، وما نتيجة ذلك؟ أن نجد في أماكنهم شركاتٍ عظيمة مثل شركة السكك الحديدية أو شركة الحديد العامة، التي يقبع مديروها في نيويورك أو فيلادلفيا، ولا يأبهون البتة لتهديداتنا. يمكننا التخلص من مديريهم المحليين، لكن هذا لا يعني إلا أنهم سيرسلون من يحل محلهم، بالإضافة إلى أننا نجعل الأمر خطرًا علينا، أما التجار الصغار فعاجزون عن أذيتنا، إذ لا يملكون المال ولا السلطة الكافيين، وما دمنا لا نمصّ دمهم عن آخره، فسيستمرون بالعمل تحت سلطتنا، لكن إن وجدتنا هذه الشركات نقف حائلًا بينهم وبين مصالحهم، فلن يوفروا جهدًا ولا مالًا في تصيّدنا وجرجرتنا إلى المحكمة.

ساد صمت بعد هذه الكلمات المنذرة بالسوء، واسودّت الوجوه كلها بنظراتها المتجهمة. كانوا مطلقي القوة ودون منازع إلى حد أن حتى فكرة احتمال وجود عقابٍ يتوارى بعيدًا عن الأنظار قد تلاشت من عقولهم، ومع ذلك، أسْرَت الفكرة قشعريرة حتى في أكثرهم استهتارًا.

واصَل الخطيب كلامه: «أنصح بأن نترفّق بالتجار الصغار، لأن هذه الجماعة ستفقد سطوتها في اليوم الذي يغادر كلهم فيه».

الحقيقة المرة مكروهة دائمًا، لذا عَلَت الهتافات الغاضبة بعد أن عاد الخطيب إلى جلسته.

فقال: «لطالما كُنتَ نعّابًا يا أخ موريس. ما دام يقف أعضاء هذا المحفل يدًا واحدة، فلا سلطة في الولايات المتحدة قادرة على المساس بهم، وبالطبع، ألم يجربوا جرنا إلى المحاكم القانونية بما فيه الكفاية؟ أتوقع أن تجد الشركات الكبرى الدفع أسهل من القتال، مثلما تفعل الشركات الصغرى. والآن يا إخوان»، خلع ماكجينتي قبعته المخملية السوداء ووشاحه فيما يتكلم، «لقد أنهى هذه المحفل أعماله لهذا المساء، باستثناء

مسألة واحدة صغيرة ربما ذُكرت أثناء احتفالنا. لقد حان وقت الترويح الأخوي والتآلف».

كم هي عجيبة الطبيعة البشرية، فها هنا هؤلاء الرجال الذين يألفون القتل، والذين قتلوا مرارًا وتكرارًا أرباب أُسَر، رجالًا لا يكنّون لهم أية مشاعر شخصية، دون أدنى لمحة تردّد أو تعاطف مع زوجاتهم الناحبات أو أطفالهم العاجزين، ومع ذلك، فإن الموسيقى الشجيّة أو العاطفية تحرّك مشاعرهم حد البكاء. كان ماكموردو يتمتع بصوت رخيم، ولو أنه فشل في كسب استحسان المحفل قبلًا، لما لُجمَ عنه أكثر بعد أن فتنَهم بغناء «أنا جالس على السلّم، ماري»، و«على ضفاف آلن ووتر».

في ليلته الأولى، جعل المُجند الجديد من نفسه واحدًا من أكثر الإخوان شعبية، وتميّز بالفعل لينال فرصة ترقية ومنصب رفيع. على الرغم من ذلك، كان ثمة خصال أخرى مطلوبة إلى جانب التي يتمتع بها من كياسة الصحبة ليكون حرًّا جديرًا، وقد أُعطي مثالًا على هذه الخصال قبل انتهاء الأمسية. دارت قنينة الويسكي عدة مرات، وكان الرجال فائرين وجاهزين بالكامل للشيطنة حينما نهض الرئيس مجددًا ليخاطبهم.

قال: «أيها الصبية، ثمة رجل في البلدة يطلب التشذيب، وعليكم الحرص على أن ينال ما يطلب. إنني أتكلم عن جيمس ستانغر من صحيفة ذا هيرالد، أرأيتم كيف عاد يسيء الكلام في حقنا مجددًا؟»

سُمعت دمدمة موافقة، مع الكثير من تمتمات الشتيمة. أخرج ماكجينتي قصاصة جريدة من جيب صدريته.

النظام والقانون!

هكذا يُعنوِن كلامه.

سُلطان الترويع على مقاطعة الحديد والفحم.

انقضت الآن اثنتا عشرة سنة منذ حدثت أول موجة اغتيالات أثبتت وجود منظمة إجرامية وسط غمرتنا، ومنذ ذلك اليوم لم تتوقف الفظاعات، حتى بلغت الآن ذروة تجعل منا خِزيَ العالم المتحضر. أمِن أجل عواقب كهذه تُرحب حكومتنا العتيدة بالدخلاء الفارين من السلطات الاستبدادية الأوروبية في أحضانها؟ أيجبُ أن يصيروا أنفسهم طغاة فوق رقاب الناس أنفسهم الذين منحوهم المأوى، وأن تقوم دولة من الإرهاب والخروج عن القانون تحت ظل الطيات المقدسة لعلم الحرية ذي النجوم بعينه، دولة كانت لتُثير الرعب في نفوسنا إذا ما قرأنا عن وجودها في كنف أوهن الأنظمة الملكية في الشرق؟ الرجال معروفون،

والمنظمة واضحة وشائعة، فكم علينا أن نتحملها؟ أيمكننا العيش إلى الأبد...

ثم صاح الرئيس وهو يقذف الجريدة على الطاولة: «لقد قرأت ما يكفي من هذا الهراء بالتأكيد! هذا ما يقوله عنا، والسؤال الذي أسألكم إياه هو ماذا سنقول نحن له؟»

صرخ نحو عشرة أصوات عاصفة: «نقتله!»

فقال الأخ موريس، الرجل الحليق ذو السحنة الخيّرة: «أنا أحتجّ على هذا. أقول لكم يا إخوان، إننا مبالغون في القسوة في هذا الوادي، وسنبلغ مرحلة حيث يتوحد كل الرجال لسحقنا دفاعًا عن أنفسهم. جيمس ستانغر رجل عجوز وله احترامه في البلدة والمقاطعة، وترمز جريدته إلى كل ما هو أصيل في الوادي، وإذا ما قُتل هذا الرجل، ستحدث قلاقل في الولاية لن تنتهي إلا بدمارنا».

صرخ ماكجينتي: «وكيف سيجلبون علينا الدمار يا سيد مُتنحّي؟ عن طريق الشرطة؟ بالطبع، فنصفهم يقبض منا ونصفهم يخافنا، أم عن طريق المحاكم والقاضي؟ ألم نجرب ذلك من قبل، وما الذي نالنا منه؟»

فقال الأخ موريس: «ربما يُجرب قاضي حُكم الغوغاء تسلّم القضية».

قوبل تلميحه بصيحة غضب عامة.

وصاح ماكجينتي: «ما عليّ إلا رفعُ إصبعي حتى آتي بمئتي رجل إلى البلدة يطهرونها من أقصاها لأقصاها»، ثم رفع صوته فجأة وقوّس حاجبيه الأسودين الضخمين على هيئة عبسة فظيعة: «انظر أيها الأخ موريس، إني أراقبك من كثب منذ فترة من الوقت! أنت جبان وتحاول نزع الشجاعة من قلوب الآخرين، وسيكون يومك أسود حينما يُكتب اسمك على جدول أعمالنا يا أخ موريس، وإني أفكر بأن عليّ وضعه هناك فحسب».

استحال وجه موريس شاحبًا كجثة، وبدا أن ركبتَيه خانتاه فجأة، إذ سقط متراجعًا فوق كرسيه، ثم رفع كأسه بيده المرتعدة، وشرب قبل أن يقدر على الإجابة: «خالص اعتذاري يا سيدي الرئيس، لك ولكل أخ في هذا المحفل لو كنت قلتُ أكثر مما عليّ قوله. إنني عضو مخلص كما تعرفون جميعًا، وإن خوفي من أن يصيب المحفل شرٌّ هو ما جعلني أنطق بهذه الكلمات الهلوعة، لكن ثقتي في حُكمكَ أعظم من ثقتي ببلدتي يا سيدي الرئيس، وأعدك أنني لن آثم مجددًا».

استرخى عبوس الرئيس بعدما استمع لكلماته الخانعة: «هذا جيد جدًّا يا أخ موريس، وأنا نفسي من سيكون آسفًا إذا ما دعت الحاجة لتلقينك درسًا، لكن ما دمت

أنا في هذا الكرسي سنكون محفلًا متحدًا قولًا وفعلًا. والآن أيها الصبية»، واصلَ كلامه وهو يجيل نظره بين المجموعة: «سأقول في هذا الخصوص، إنه ما إن ينال ستانغر ما يستحقه ستحدث متاعب كثيرة نحن في غنى عنها. هؤلاء المحررون يشكلون وحدة متماسكة، وستصرخ كل جريدة في الولايات المتحدة طلبًا للشرطة والقوات، لكنني أخمن أن بوسعنا منحه تحذيرًا عنيفًا ممتازًا. أتتولى هذا الأمر يا أخ بالدوين؟»

فقال الشاب متلهفًا: «طبعًا!»

– كم شخصًا يلزمك؟

– ستة، واثنان ليحرسا الباب. ستأتي معي يا غاور، وأنت يا مانسيل، وأنت سكانلان، والأخوين ويلابي.

قال الرئيس: «وعدتُ الأخ الجديد بأن يذهب».

فنظر تيد بالدوين إلى ماكموردو بعينين تقولان إنه لم ينس ولم يسامح، وقال بصوتٍ جاف: «حسنًا، يمكنه المجيء إذا أراد. هذا كاف، وكلما أسرعنا في العمل كان أفضل».

تفرّق الجمع مطلقين الصيحات والهتافات ومقاطع الأغنيات المخمورة. كانت الحانة لا تزال مزدحمة بالعرابيد، وبقي الكثير من الإخوان هناك. انطلقت الفرقة التي طُلب منها أداء الواجب إلى الشارع، يتقدمون في ثنائيات وثلاثيات على طول الرصيف كي لا يجذبوا الانتباه. كانت ليلة قارسة البرد يشع في سمائها الصقيعيّة المرصعة بالنجوم نصف قمر متألق. توقف الرجال واجتمعوا في ساحة مقابلة لبناء مرتفع مكتوب عليه «هيرالد فيرميسا» بأحرف ذهبية بين النوافذ بهية الإنارة، وسُمع من الداخل صوت قعقعة المطبعة الصحفية.

قال بالدوين لماكموردو: «اسمع، أنت، يمكنك الوقوف في الأسفل عند الباب ومراقبة خلوّ الشارع لنا، ويمكن لآرثر ويلابي البقاء معك. أما البقية فتعالوا معي، لا تخشوا شيئًا أيها الصبية؛ إذ لدينا اثنا عشر شاهدًا يشهدون بأننا في حانة الاتحاد في هذه اللحظة بعينها».

كانت الساعة قد قاربت منتصف الليل، والشارع خال من أي عابر إلا عربيدًا أو اثنين في طريقهما إلى المنزل. قطعت المجموعة الشارع، وسارع بالدوين ورجاله بعد أن دفعوا باب مكتب الجريدة إلى الصعود على الدرج الذي واجههم، وبقي ماكموردو وواحد آخر في الأسفل. سُمع من الغرفة العلوية صوت طلقة، وصرخة استغاثة، ثم صوت دوس أقدام وسقوط كراسي، وخرج بعد لحظة رجل أشيب الشعر مسرعًا إلى بسطة الدرج.

قُبض عليه قبل أن يتمكن من الابتعاد، وسقطت نظّارته على الأرض عند قدميّ ماكموردو. سُمع صوت خبطة ثمّ أنة، ثم صار ملقًى على وجهه وستٌّ هراوات تجلجل منهالةً عليه، وراح يتلوّى وترتعش أطرافه الطويلة تحت وقع الضربات. توقّف البقية أخيرًا، إلا بالدوين، إذ كان وجهه الوحشيّ قد تجمّد في ابتسامة شيطانية، وواصل ضرب رأس الرجل الذي حاول سدًى حماية نفسه بذراعيه. تخضّل شعره الأبيض ببُقع من الدم، وما زال بالدوين منحنيًا فوق ضحيته يُنزل به ضربات خاطفة وضارية في كل مكان يراه مكشوفًا، حتى سارع ماكموردو لصعود الدرج ودفعه إلى الخلف.

وقال: «ستقتل الرجل، توقف!»

فنظر بالدوين إليه في ذهول وصاح: «عليك اللعنة! من أنتَ لتدخل وما زلتَ غرًّا في المحفل؟ تنحّ جانبًا!» ورفع هراوته؛ لكن ماكموردو استلّ مسدسه من جيب خصره.

وصرخ: «تنحّ جانبًا أنت! سأفجّر وجهك لو لمستني. أما عن المحفل؛ ألم يكن أمر الرئيس ألا يُقتل الرجل؟ ما الذي تفعله إلا قتله؟»

عقّب أحد الرجال: «إنه يقول الحق».

هتف الرجل الواقف في الأسفل: «يا إلهي! من الأفضل أن تعجلوا! فالنوافذ بدأت تُضاء وستجتمع البلدة كلها هنا خلال خمس دقائق».

عَلَا صوت جعجعة في الشارع بالفعل، وكان ثمة مجموعة صغيرة من الصحفيين ينتظمون في الردهة السفلى ويحثون أنفسهم على التصرف. هرع المجرمون إلى الأسفل وشقوا طريقهم بسرعة في الشارع تاركين خلفهم الجسد المضنى الهامدَ للمحرّر على رأس الدرج. بعد أن وصلوا إلى بيت النقابة، مازج بعضهم حشد حانة ماكجينتي، وأخذوا يهمسون عبر المشربِ للرئيس بأن العمل قد أُنجز على خير، وانشقّ آخرون ومنهم ماكموردو، متجهين إلى الشوارع الجانبية، سالكين مسالك مراوغة إلى منازلهم.

الفصل الرابع

وادي الذُّعر

عندما استيقظ ماكموردو في الصباح التالي، كان لديه سبب معقول ليتذكر استهلاله في المحفل، فقد كان رأسه يؤلمه من أثر الشراب، وذراعه حيث وُسم محرور ومنتفخ، ولكونه يمتلك مصدر دخله الخاص، فقد كان حضوره في عمله غير منتظم؛ لذا تناول فطورًا متأخرًا وبقي في المنزل طيلة الصباح يكتب رسالة طويلة لصديق ما. تصفح بعد ذلك جريدة ذا هيرالد، وقرأ في عمود خاص أضيف في اللحظة الأخيرة ما يلي:

اعتداء في مكتب ذا هيرالد، وجَرح محررٍ جرحًا بليغًا

> كان سردًا قصيرًا للحقائق التي عرفها بنفسه أكثر مما بوسع الكاتب أن يفعل، وانتهى بالتصريح التالي:
>
> المسألة الآن في أيدي الشرطة؛ لكن لا يمكن توقُّع أن تلقى جهودهم نتائج أفضل مما لقيته في الماضي. جرى التعرف على بعض الرجال، وثمة أمل في الحصول على إدانة. كان مصدر الاعتداء، ولا يحتاج هذا إلى من يقوله، تلك المجموعة الشائنة التي استعبدت هذا المجتمع لفترة طويلة، وقد اتخذت جريدة ذا هيرالد موقفًا عنيدًا ضدها. سيبتهج أصدقاء السيد ستانغر الكثيرون لمعرفة أنه وبالرغم من تعرضه لضرب مبرّح ووحشي، ورغم وجود جروح بليغة حول رأسه، لكن لا خطر مباشر يتهدد حياته.

أُعلن أسفل المقال أن حامية من الشرطة المسلحة ببنادق وينتشستر قد طُلبت للدفاع عن المكتب.

ترك ماكموردو الجريدة من يده، وكان يشعل غليونه بيد ترتعش جراء فظائع الليلة السابقة، حينما طُرق الباب، وسلمته صاحبة المكان خطابًا أوصله غلام للتوّ. لم يكن موقّعًا، ووَردَ فيه:

> أرغب في التحدُّث إليك، لكن لا أفضل أن يجري هذا في منزلك. ستجدني بجوار سارية العلم التي في هضبة ميلر، وإذا ما جئتَ الآن فلديّ أمر يهمّك سماعه ويهمني قوله.

قرأ ماكموردو الخطاب مرتين في دهشة بالغة؛ إذ لم يكن بوسعه تصوّر معناه أو هوية كاتبه. لو كان الخط أنثويًّا، لتخيلها ربما بداية واحدة من تلك المغامرات التي كان يألفها في الماضي، لكنه كان خط رجل، ورجل ذي تعليم عالٍ أيضًا. قرر أخيرًا وبعد بعض التردد أن يرى حقيقة الأمر.

هضبة ميلر حديقة عامة مهملة في مركز البلدة بالتحديد، وهي مصيَف مفضّل للناس في الصيف؛ لكنها في الشتاء تصير مهجورة بالكامل. من قمتها، لا يرى المرء كامل البلدة القذرة الشاردة فحسب، بل الوادي المتعرج الممتد أسفلها، ومناجمه ومصانعه المتبعثرة التي تبدو حفرًا سوداء في الثلج على جانبيه، وصفوف الغابات بيضاء القمم المحيطة به.

تمشّى ماكموردو صاعدًا الطريق المتعرّج المسيّج بالأشجار دائمة الخضرة حتى بلغ المطعم المهجور الذي يشكل مركز البهجة الصيفية. كان إلى جانبه سارية علم مكشوفة، وتحتها رجل قبعته مائلة إلى الأسفل وياقة معطفه مرفوعة. حينما أبدى وجهه رأى ماكموردو أنه الأخ موريس، الذي تكبّد غضب الرئيس في الليلة الماضية، وجرى تبادل علامة المحفل عند لقائهما.

قال الرجل الأكبر سنًّا بتردّدٍ يشي بموقفه الخطير: «أردتُ أن أتكلم إليك يا سيد ماكموردو، ومن اللطف أنك أتيت».

– لمَ لم تكتب اسمك في الخطاب؟

– على المرء أن يكون حذرًا يا سيدي، فهو لا يعرف كيف قد يعود أمر بالأذية عليه في أوقات كهذه، ولا يعرفُ أيضًا بمَن يثق وبمَن لا يثق.

– يمكن للمرء الثقة بالإخوة في المحفل بالتأكيد.

صاح موريس محتدًّا: «لا، لا، ليس دائمًا. يبدو أن أيًّا كان ما نقوله، أو حتى ما نفكر فيه، يرجع إلى ذاك الرجل ماكجينتي».

قال ماكموردو بصرامة: «انظر إليّ! لقد أقسمتُ قسم الولاء لرئيسنا البارحة فقط كما تعرفُ جيدًا، أتريدني أن أحنث بقسمي؟»

فقال موريس باغتمام: «إذا كانت هذه هي الفكرةُ التي كونتَها، فلا يسعني القول إلا إنني آسف لتكبيدكَ عناء القدوم ومقابلتي. تبلغ الأمور طريقًا وعرًا عندما يصير مواطنان حُرّان عاجزين عن التعبير عن أفكارهما الواحد أمام الآخر».

استرخى ماكموردو، الذي كان يراقب رفيقه بدقة شديدة، في وقفته بعض الشيء، وقال: «إنني أتكلم عن نفسي فقط بالطبع، فأنا وافد جديد كما تعلَم، وغريب عن الأمر

برمته، لذا لا يجب عليّ فتحُ فمي يا سيد موريس، وإن كنتَ تعتقده خيرًا أن تخبرني بأي شيء فأنا هنا لأسمعك».

فقال موريس بمرارة: «وترجعَ به إلى الرئيس ماكجينتي!»

هتف ماكموردو: «إذًا لقد ظلمتني فعلًا، فأنا عن نفسي مخلص للمحفل، وأقول لك هذا صراحة؛ لكنني سأكون مخلوقًا حقيرًا لو ردّدتُ ما قد تقوله لي سرًّا أمام أي شخص آخر. لن يتجاوزني الأمر؛ رغم أني أحذرك بأنك قد لا تجد عونًا ولا تعاطفًا».

فقال موريس: «لقد كففتُ عن طلب أي منهما. ربما أضع حياتي ذاتها تحت رحمتك بما سأقوله؛ لكنك رغم سوئِك، ورغم أنك بدوت لي البارحة تتقولب لتكون بسوء أسوئهم، ما زلت جديدًا على الأمر، ولا يمكن أن يكون ضميرك قد تصلب مثل ضمائرهم بعد، وهذا سبب تفكيري بالتكلم معك».

– حسنًا، ماذا لديك لتقوله؟

– فلتنزل عليك لعنة إذا ما وشيتَ بي!

– بالطبع، قلت إنني لن أفعل.

– سأسألك إذًا، عندما انضممتَ إلى جمعية الأحرار في شيكاغو وأقسمتَ على الإحسان والأمانة، هل مرّ ببالك قط أنك قد تجد الأمر يقودك إلى الجريمة؟

أجاب ماكموردو: «إذا كنتَ تدعوها جريمة».

صرخ موريس وصوته يهتزّ انفعالًا: «أدعوها جريمة! إذا كان بوسعك دعوتها أي شيء آخر فأنت لم ترَ إلا القليل منها. أكانت جريمةً الليلة الماضية أن يُضرب رجل بعمر والدكَ حدّ قَطْر الدم من شعره الأبيض؟ أكانت تلك جريمة، أم ثمة اسم آخر يمكنك إطلاقه عليها؟»

قال ماكموردو: «سيقول البعض إنها كانت حربًا، حرب وجود بين جماعتين، لذا ضرب كلا الطرفين بكل طاقته».

– حسنًا، هل فكرتَ بشيء كهذا حين انضممتَ إلى جمعية الأحرار في شيكاغو؟

– لا، عليّ القول إنني لم أفعل.

– ولا أنا فعلتُ عند انضمامي إليها في فيلادلفيا. كان مجرد نادٍ خيري ومكان يلتقي فيه الشخص مع رفاقه، ثم سمعت بهذا المكان –ولتحلّ اللعنة على الساعة التي وقع فيها اسمه على أذنيّ!– وجئتُ لأحسّن مستواي! يا إلهي! لأحسّن مستواي! جئتُ مع زوجتي وثلاثة أطفال، وافتتحتُ متجرًا للأقمشة والألبسة الجاهزة في ميدان السوق،

وازدهر عملي جيدًا. ذاع خبرُ كوني واحدًا من الأحرار، وأُجبرت على الانضمام إلى المحفل المحلي، مثلما فعلتَ أنت في الليلة الماضية. علامة الخزي موسومة على ساعدي، وثمة شيء أخبث موسوم على قلبي. وجدت نفسي خاضعًا لأوامر نذل شرير وعالقًا في شبكة إجرامية، فما بوسعي أن أفعل؟ كل كلمة قلتها لتحسين الأمور اعتُبرت خيانة، مثلما حدث الليلة الماضية، ولا يمكنني الفرار؛ فكل ما أملكه في العالم موجود في متجري. إذا ما تركت الجماعة، فأعرف جيدًا أن النتيجة ستكون مقتلي، ولا يعلم إلا الله مصير زوجتي وأطفالي. أوه يا رجل، الأمر مريع، مريع!» ووضع يديه على وجهه وارتجف جسده في نشيجٍ مضطرب.

هز ماكموردو كتفيه وقال: «أنتَ رقيق جدًّا بالنسبة لمهنة كهذه، وإنك من الصنف غير المناسب لهذا العمل».

«كنتُ أتمتع بضمير صاحٍ والتزام ديني؛ لكنهم حولوني إلى مجرم مثلهم. اخترت للمهنة، وأعرف جيدًا ما كان سيحل بي لو أنني تراجعتُ. ربما أكون جبانًا، وربما كثرة التفكير في زوجتي التعِسة وأطفالي الصغار ما يجعلني جبانًا. مضيت في الأمر بأية حال، وأخمّن أنه سيطاردني إلى الأبد.

كان منزلًا وحيدًا يبعد عشرين ميلًا عن هنا، في أقصى الغابة. قيل لي أن أحرس الباب، مثلما فعلتَ أنتَ البارحة. لم يثقوا بي لأداء المهمة، ودخل الآخرون، وحينما خرجوا كانت أيديهم قرمزيةً حتى المعاصم، وبعد أن استدرنا ومشينا سمعتُ صوت طفل يصرخ من المنزل خلفنا. كان صبيًّا في الخامسة وقد رأى والده مقتولًا، وكاد يُغمى عليّ من هول الموقف، لكني كنتُ مضطرًّا إلى الحفاظ على وجه قاسٍ متبسم؛ لأنني عرفتُ أني لو لم أفعل هذا لكان منزلي هو الذي سيخرجون منه بأيدٍ داميةٍ في المرة القادمة، وابني فْريد هو الذي سيبكي أباه.

لكنني كنتُ مجرمًا آنذاك، شريكًا في الجريمة تائهًا إلى الأبد في هذا العالم وفي الحياة الآخرة. أنا كاثوليكي ملتزم؛ لكنّ القس رفض محادثتي حينما سمع بأنني أحدُ الدمويين، وحُرمت كنسيًّا من ممارسة عقيدتي. هذا ما آلت إليه الأمور معي، وأراك تمضي في ذات الطريق، وأسألك ما ستكون نهايته، فهل أنت مستعد لأن تصير قاتلًا بارد الدم أيضًا، أم بوسعنا فعل أي شيء لإيقاف هذا؟»

سأل ماكموردو بغتةً: «ما كنتَ لتفعل؟ ألم تكن لتُبلغ؟»

فصاح موريس: «لا قدّر الله! الفكرة لوحدها ستكلفني حياتي بالطبع».

قال ماكموردو: «هذا حسن، أعتقدُ أنك رجل ضعيفٌ وأنك تغالي في تقدير المسألة».

– أغالي! انتظر حتى تعيش هنا وقتًا أطول. انظر إلى الوادي! أترى غمامة مئات المداخن التي تظلله؟! أقول لك إن غمامة القتل تتدلى أثخن وأدنى منها فوق رؤوس الناس. إنه وادي الذُّعر، وادي الموت. الرعب يعشش في قلوب الناس من الغسق وحتى الفجر. انتظر أيها الشاب، وستعرف بنفسك.

فقال ماكموردو باستهتار: «حسنًا، سأخبرك ما أعتقده وقتما أرى المزيد، أما الواضح جدًّا فهو أنك لست الرجل المناسب لهذا المكان، وأنك كلما تعجلت في بيع كل شيء –حتى لو حصلت على عُشر قيمة ما تساويه بضائعك– كان أفضل بالنسبة إليك. يبقى ما قلتَه في أمان لدي، لكن يا الله! لو ظننتُ أنك مُخبر…»

هتف موريس على نحو جدير بالشفقة: «لا، لا!»

«حسنًا، فلندع الأمر يقف عند هذا الحد. سآخذ ما قلتَه بعين الاعتبار، وربما أرجع إليه يومًا. آمل أن تكون نيتك طيبة في الإفصاح عن هذا الكلام لي، والآن سأنصرف إلى المنزل».

قال موريس: «كلمة فقط قبل أن تذهب؛ رُبما شوهدنا معًا، وقد يرغبون بمعرفة ما تحدثنا عنه».

– آه! تفكير سليم.

– أني عرضتُ عليك عمل مستكتبٍ في متجري.

– وأنا رفضته، وهذا شأننا. حسنًا، إلى اللقاء يا أخ موريس، وعسى أن تتحسن أوضاعك في المستقبل.

في مساء اليوم نفسه، وبينما جلس ماكموردو يدخن تائهًا في أفكاره بجوار موقد غرفة الجلوس، فُتح الباب وامتلأ إطاره بجسمٍ الرئيس ماكجينتي الضخم. نطَق العلامة وقعد مقابل الشاب، ونظر إليه نظرة ثابتة قوبلت بنظرة ثابتة أخرى لبعض الوقت.

وقال أخيرًا: «لستُ شخصًا كثير الزيارة يا أخ ماكموردو، ربما بسبب كثرة انشغالي بالزائرين، لكنني فكرتُ في أن أغض النظر عن زوّاري لبعض الوقت، وآتي لزيارتك في منزلك الخاص».

فأجاب ماكموردو بمودةٍ وهو يخرج زجاجة ويسكي من الخزانة: «زيارتك مدعاة للفخر أيها المستشار، إنه شرفٌ لم أتوقعه».

سأل الرئيس: «كيف حال ذراعك؟»

قال ماكموردو بوجهٍ ساخر: «إنها لا تسمح لي بنسيانها، لكن الأمر يستحق».

فأجاب الآخر: «بلى، إنه يستحق، بالنسبة لأولئك المخلصين الذين يستمرّون إلى النهاية ويكونون عونًا للمحفل. عمَّ كنتَ تتكلم مع الأخ موريس فوق هضبة ميلر هذا الصباح؟»

جاء السؤال مباغتًا إلى درجة كان من الجيد معها أن إجابته جاهزة، وانفجر في ضحكة قوية: «لم يعرف موريس أنني قادر على كسب معيشتي هنا في المنزل، ولا يجدر به أن يعرف شيئًا؛ فضميره صاحٍ زيادة عن اللازم بالنسبة لأمثالي. لكنه عجوز طيب القلب، وكانت فكرته أنني عاطل عن العمل، وأنه سيمنحني نقطة تحول جيدة بعرضه عمل مستكتب في متجر ملابس جاهزة لديه».

– أوه، أهذا ما في الأمر؟

– بلى، هو ذا.

– ورفضته؟

– طبعًا. ألستُ قادرًا على كسب عشرة أضعاف المال في غرفة نومي بأربع ساعات عمل؟

– هذا صحيح، لكنني لا أنصحك بالتقرب كثيرًا من موريس.

– لمَ لا؟

– حسنًا، ربما لأني أقول لك ألا تفعل، وهذا كافٍ لمعظم الشعب في هذه الأرجاء.

فقال ماكموردو بجسارة: «ربما يكون كافيًا لمعظم الشعب؛ لكنه لن يكون كافيًا لي أيها المستشار، وإن كنتَ خبيرًا في الرجال ستعرف هذا».

حملق العملاق الأسمر إليه، واشتدّ مخلبه المُشعر على الكأس للحظة وكأنه سيقذفه على رأس رفيقه، ثم ضحك ضحكته الصاخبة الهادرة المنافقة.

وقال: «إنك لشخص غريب بكل تأكيد، طيب، إن كنت تريد أسبابًا فسأمنحك إياها. ألم يقل لك موريس شيئًا ضد المحفل؟»

– لا.

– ولا ضدي؟

– لا.

– حسنًا، هذا لأنه لم يجرؤ على وضع ثقته فيك، لكنه في صميمه ليس أخًا مخلصًا، ونحن نعرف هذا جيدًا، لذا نراقبه وننتظر الوقت المناسب لتنبيهه، وأظنّ أن الوقت صار وشيكًا، إذ ليس ثمة مكان لخروف أجرب في حظيرتنا. لكن إن رافقتَ شخصًا غير مخلص، فقد نظن أنك غير مخلص أيضًا، فهمت؟

أجاب ماكموردو: «يستحيل أن أرافقه؛ إنني أمقتُ الرجل، وأما عن كوني غير مخلص، فلو كان أي رجل غيرك لما قال هذه الكلمة مرتين».

فقال ماكجينتي وهو يجرع كأسه: «حسنًا، هذا كافٍ. لقد جئتُ لأسديك نصيحة في وقتها، وقد حصلتَ عليها».

قال ماكموردو: «أودّ أن أعرف كيف عرفتَ أنني تكلمت مع موريس أساسًا؟»

ضحك ماكجينتي، وقال: «إن وظيفتي أن أعرف ما يجري في هذه البلدة، وأحسبُ أنه من الأفضل لك أن تأخذ في حسبانك معرفتي بكل ما يجري. حسنًا، لقد انتهى الوقت، وسأقول فقط...»

لكنّ رحيله قوطع بطريقة غير متوقعة البتّة، إذ فُتح الباب عن آخره مطلقًا دويًّا مفاجئًا، وحدقت إليهما ثلاثة وجوه عابسة مركزة من تحتِ ذرى قبعات الشرطة. وثب ماكموردو على قدميه وشرع في سحب طبنجته؛ لكن ذراعه توقّف في منتصف الطريق لإدراكه وجود بندقيتيّ وينتشستر موجهتين إلى رأسه. تقدم رجل يرتدي الزيّ الرسمي ويحمل مسدسًا سداسي الطلقات إلى الغرفة. كان النقيب مارفن، من قسم شيكاغو سابقًا، والآن من شرطة المناجم، وهز رأسه مبتسمًا نصف ابتسامة لماكموردو.

وقال: «كنتُ أعرف أنك ستقع في المتاعب أيها السيد المنحرف ماكموردو من شيكاغو، لا يمكنك البقاء بعيدًا عنها أليس كذلك؟ أحضر قبعتك وتعال معنا».

فقال ماكجينتي: «أظن أنك ستدفع ثمن هذا يا سيد مارفن، أودّ لو أعرف من تكون حتى تقتحم منزلًا بهذه الطريقة وتضايق رجلًا شريفًا ملتزمًا بالقانون؟»

قال نقيب الشرطة: «لا شأن لك بهذه المسألة أيها المستشار، فلسنا نريدك أنت، إنما نريد هذا الرجل ماكموردو. عليك مساعدتنا، لا إعاقتنا أثناء تأدية واجبنا».

قال الرئيس: «إنه صديقي، وسأتحمل مسؤولية تصرفاته».

فأجاب النقيب: «بناءً على المعلومات المتوفرة، فقد يكون عليك تحمل مسؤولية تصرفاتك الخاصة في يوم من الأيام يا سيد ماكجينتي. كان هذا الرجل محتالًا قبل أن يأتي إلى هنا، وما زال محتالًا. أمنوا جانبه أيها الرجال بينما أنزع سلاحه».

قال ماكموردو ببرود: «هاكَ مسدسي. ربما أيها النقيب مارفن، لو كنتُ وإياك وحدنا رجلًا لرجلٍ لما أخذتني بهذه السهولة».

سأل ماكجينتي: «أين مذكرتك؟ بحق الله! قد يعيش الرجل في روسيا نفس عيشته في فيرميسا إذا ما كانت الشرطة في عهدة أمثالك. إنه انتهاك رأسمالي، وأحسب أن الأمر لن ينتهي هنا».

«افعل ما تحسبه واجبك بأفضل ما يمكنك أيها المستشار، ونحن سنتدبر واجبنا».

سأل ماكموردو: «ما تهمتي؟»

«التورط في ضرب المحرر العجوز ستانغر في مكتب صحيفة ذا هيرالد. ليس ذنبكَ أنها ليست تهمة قتل».

فهتف ماكجينتي ضاحكًا: «حسنًا، إذا كان هذا ما لديكم ضده، فيمكنكم تجنيب أنفسكم كمًّا كبيرًا من العناء بإسقاط التهمة الآن حالًا، لأن هذا الرجل كان معي في حانتي نلعب البوكر حتى منتصف الليل، ويمكنني جلب دزينة شهود لإثبات ذلك».

– هذا شأنك، وأظن أن بوسعك تسويته في المحكمة غدًا، وفي هذه الأثناء، تعال معنا يا سيد ماكموردو، وتعال بهدوء إن كنت لا تريد أن تخترق بندقية رأسك. قِف بعيدًا يا سيد ماكجينتي؛ وأحذرك أنني لن أتهاون في التعامل مع أية مقاومة حينما أؤدي واجبي!

بدا النقيب مصممًا إلى حدٍّ أجبر ماكموردو ورئيسه على قبول الوضع، وتمكن الأخير من همس بضع كلمات في أذن المعتقل قبل أن يفترقا.

قال: «ماذا عن الـ...» ورجّ إبهامه باتجاه الأعلى للدلالة على مشغل ضرب العملة.

فهمس ماكموردو الذي كان قد ابتكَر مخبأً آمنًا تحت الأض: «كل شيء على ما يرام».

قال الرئيس مصافحًا يده: «سأقول لك إلى اللقاء، وأرى المحامي ريلي وأتكفل بالدفاع عنك بنفسي. أعدك بأنهم لن يتمكنوا من حبسك».

– ما كنتُ لأراهن على ذلك. احرسا السجين أنتما الاثنان، وأطلقا النار عليه إن حاول ممارسة أي ألاعيب. سأفتش المنزل قبل أن أغادر.

فعل ما قاله، لكنه على ما يبدو لم يجد أثرًا للمشغل المخفي. بعد أن هبط الدرج، رافق ورجاله ماكموردو إلى مقر القيادة، وكان الليل قد أرخى سدوله وأخذت عاصفة تضطرم بعنف، لذا كانت الشوارع مقفرة تقريبًا؛ غير أن بعض المتسكعين لاحقوا المجموعة، متشجّعين بتعذّر الرؤية على الصراخ باللعنات على السجين.

صرخوا: «أعدموا الدمويّ اللعين! أعدموه دون محاكمة!»، وضحكوا وسخروا بينما كان يُدفع إلى مركز الشرطة. بعد معاينة وجيزة رسمية قام بها المفتش المسؤول، وُضع في الزنزانة العامة، ووجد فيها بالدوين وثلاثة مجرمين غيره من الليلة السابقة، كانوا قد اعتقلوا كلهم في هذه الظهيرة وينتظرون محاكمتهم في الصباح التالي.

لكن يد الأحرار الطويلة كانت قادرة على الامتداد حتى إلى معقل القانون الداخلي ذاك، فقد جاء لاحقًا في نفس الليلة سجان يحمل رزمة قش لمنامتهم، واستخرج منها قنينتي ويسكي وبعض الكؤوس، فقضوا ليلة جذلة دون قلقٍ حيال البليّة القادمة في الصباح.

ولم يكن لديهم سبب ليقلقوا، كما أظهرت النتيجة، إذ لم يكن ممكنًا للقاضي احتجازهم بغية إحالتهم إلى المحكمة العليا بناءً على الأدلة المتاحة، فمن ناحية، أُجبر المنضدون والصحفيون على الإقرار بأن الضوء كان خافتًا، وكانوا أنفسهم مرتبكين ومن الصعب عليهم القسم على هوية المعتدين؛ رغم أنهم كانوا مصدّقين بكون المتهمين بينهم، وبعد أن أعاد المحامي الأريب الذي عينه ماكجينتي استجوابهم، بدت إفادتهم أكثر إبهامًا.

كان الرجل المجروح قد شهد بالفعل أنه أُخذ على حين غرة بالهجوم المفاجئ، إلى درجة يعجز معها عن تذكر أي شيء سوى أن الرجل الذي ضربه أولًا لديه شارب. أضاف أنه يعرف أنهم من الدمويين، إذ لا يمكن لأحد غيرهم في المجتمع أن يكنّ عداوة له، وقد هُدد منذ وقت طويل بسبب مقالاته الصريحة، ومن ناحية أخرى، أظهرت الإفادة الموحدة والثابتة لستة مواطنين بينهم مستشار المجلس البلدي المرموق ماكجينتي، بوضوح أن الرجال كانوا يحضرون حفلة في بيت الاتحاد حتى وقت يتجاوز بكثير ساعة ارتكاب الاعتداء.

لا حاجة للقول إن المحكمة قد أخلَت سبيلهم مع شيء يشبه الاعتذار عن الإزعاج الذي تعرَّضوا له، مع شجبٍ مُبطن للنقيب مارفن والشرطة بسبب اندفاعهم غير الرسمي.

استُقبل الحُكم بتصفيق حار في المحكمة التي رأى ماكموردو الكثير من الوجوه المألوفة فيها. ابتسم الإخوة من المحفل ولوحوا بأيديهم، لكن كان ثمة غيرهم مِمَّن جلسوا بشفاه معقوصة وعيون كئيبة متأملة، بينما سار الرجال في رتل خارجين من قفص الاتهام. أحدهم كان شخصًا ضئيلًا حازمًا أسود اللحية، عبّر أن أفكاره وأفكار رفاقه حينما مرّ المعتقلون السابقون من أمامه.

قال: «اللعنة عليكم أيها القتلة! ستنالون جزاءكم رغم ذلك!»

الفصل الخامس

أحلك الساعات

لو أن شعبية جاك ماكموردو بين رفاقه كانت بحاجة إلى شيء يزخّمها، لكان هذا الشيء هو اعتقاله وتبرئته، فأن يفعل رجل ما فعلةً في ذات الليلة التي انضم فيها إلى المحفل، ويمثل بسببها أمام القاضي، لهو رقم قياسي جديد في حوليات الجماعة. كان قد اكتسب بالفعل سمعةَ الرفيق المرح، والعربيد المبهج، بالإضافة لكونه رجلًا حادَّ المزاج، لم يكن ليتحمَّل الإهانة حتى من الرئيس القدير نفسه. لكنه بالإضافة لهذا، فقد أثار إعجاب رفاقه بفكرة أن ليس بينهم كلهم مَن لديه ذهن حاضر يحوك مخططًا يليق بسفّاك دماءٍ مثله، ولا مَن يملك يدًا أكثر استعدادًا لتنفيذه. كان كبار السن يقولون فيما بينهم: «سيكون الفتى المناسب للعمل النظيف»، وانتظروا الوقت المناسب حتى صار بمقدورهم توكيله مهامه.

كان لدى ماكجينتي دُمًى تكفي بالفعل؛ لكنه أدرك أن هذه دمية فائقة القدرة، وشعر كما لو أنه رجل يكبح جماح كلب بوليسي شرس، إذ كان ثمة أوغاد يقومون بالأعمال الأقل شأنًا؛ لكن سيأتي اليوم الذي يطلق فيه هذا المخلوق خلف فريسته. استاء بضعة أعضاء من المحفل، بينهم تيد بالدوين، من هذا الارتقاء السريع للغريب، وكرهوه لأجله؛ لكنهم بقوا بعيدين عنه، فقد كان جاهزًا للقتال مثلما هو جاهز للضحك.

لكن إن فاز بمحاباة زملائه، فقد كان ثمة مكان آخر، مكان صار أكثر ضروريةً حتى بالنسبة إليه، خسر فيه هذه المحاباة، إذ قطع والد أيتي شافتر أية علاقة تربطه به، ولم يعد يسمح له بدخول منزله. كانت أيتي نفسها تحبه حبًّا عميقًا يمنعها من التخلي عنه تمامًا، لكنّ سداد رأيها حذرها مما قد يؤدي إليه الزواج من رجل يُعتبر لدى عامة الناس مجرمًا.

وقررت ذات صباح بعد ليلة جافاها فيها النوم، أن تراه، ربما للمرة الأخيرة، وأن تسعى بكل طاقتها إلى انتشاله من سطوة أولئك الأشرار الذين يشدّونه إلى الأسفل، فذهبت لمنزله، مثلما ترجاها مرارًا أن تفعل، وشقت طريقها إلى الغرفة التي كان يستخدمها للجلوس. كان جالسًا إلى طاولة مديرًا ظهره وثمة رسالة أمامه، فراودتها روحُ شيطنة نسوية مفاجئة، إذ لم يكن عمرها قد جاوز التاسعة عشرة بعد، ولم يكن

قد سمعها حينما دفعت الباب. راحت تمشي على رؤوس أصابعها ناحيته ووضعت يديها برفق على كتفيه المحنيّتَين.

لو كانت تقصد إجفاله، فقد نجحت بكل تأكيد؛ لكنها في المقابل أجفلَت بدورها، فقد قفز قفزة نمر ملتفتًا إليها، وامتدت يده اليمنى باحثة عن حلقها، وجعّد الورقة المبسوطة أمامه باليد الأخرى في نفس اللحظة. وقف للحظة محملقًا فيها، ثم احتلّ الذهول والغبطة مكان الهمجية التي شنّجت ملامحه، همجية جعلتها ترجع إلى الوراء منكمشة على نفسها من الذعر، كما لو أنها مذعورة من شيء غريب لم يتطفل على حياتها الرقيقة قط.

قال وهو يمسح جبهته: «هذه أنتِ! يا لقباحة أن تأتي إليّ، يا قلب قلبي، ولا أجد شيئًا أفعله أفضل من الرغبة في خنقك! تعالي يا حبيبتي»، ومدّ ذراعيه، «دعيني أعوّضك عما جرى».

لكنها لم تكن قد تعافت من نظرة الخوف الأثيم التي قرأتها على وجه الرجل. كلّ غرائزها الأنثوية أنبأتها بأن ذلك لم يكن مجرد جفول رجلٍ فَزِع، بل شعور بالذنب، هذا ما كان، شعور بالذنب والخوف!

وهتفَت: «ماذا دهاكَ يا جاك؟ لمَ خفتَ مني إلى هذا الحد؟ أوه يا جاك، لو كان ضميرك مرتاحًا لما نظرتَ إليّ هكذا!»

– إي، كنت أفكر في أشياء أخرى حينما جئتِ تخطُرين برشاقة على قدمي الجنيّات هذه...

– لا لا، ثمة ما هو أكثر من ذلك يا جاك، ثم استحوذ عليها شك مباغت:

– دعني أرى الرسالة التي كنتَ تكتبها.

– آه يا أيتي، لا يمكنني فعل هذا.

صار شكها يقينًا، وصاحت: «إنها إلى امرأة أخرى، وأنا متأكدة! لم عساكَ تخفيها عني إن لم تكن كذلك؟ وكيف عساي أعرف أنك لستَ رجلًا متزوجًا، وأنت الغريب الذي لا أحد يعرف عنه شيئًا؟»

– لستُ متزوجًا يا أيتي، اسمعيني، أقسم لكِ على هذا! أنت المرأة الوحيدة على سطح الأرض بالنسبة لي وأقسم بصليب المسيح!

كان يتوهّج بالجدية الشغوفة لدرجة لم تترك لها مجالًا إلا التصديق.

فهتفت: «حسنًا إذًا، لم ولن تُريني الرسالة؟»

قال: «سأخبرك يا أكوشلا. لقد حلفتُ يمينًا ألا أظهرها، ومثلما لم أكُن لأنقض عهدي معكِ، عليّ صون العهد مع أولئك الذين حلفتُ لهم. الأمر يخص عمل المحفل، وهو سريّ حتى بالنسبة لكِ، وإن خفتُ حينما حطتْ يدٌ عليّ، ألا يمكنكِ فهم خوفي من أن تكون يد تحرٍّ؟»

شعَرَت أنه يقول الحقيقة، وضمها بين ذراعيه وقبَّلها حتى تلاشت مخاوفها وشكوكها.

– اقعدي هنا بجواري إذًا. إنه عرش تافه بالنسبة لملكة مثلك؛ لكنه أفضل ما بوسع حبيبكِ الفقير تأمينه، وأظن أنه سيحسّن من وضعه لأجلك في يوم من الأيام. عاد بالُك مرتاحًا الآن أليس كذلك؟

– كيف عساه يرتاح بالي أبدًا وأنا أعرف أنك مجرم تُصاحب المجرمين يا جاك، ولا أدري متى يحل اليوم الذي أسمعُ فيه أنك في المحكمة بتهمة القتل؟ «ماكموردو الدمويّ»، هذا ما دعاك به أحد النزلاء البارحة. لقد حزّ كلامه في قلبي مثل سكّين.

– إي، الكلمات القاسية لا تؤذي جسدًا.

– لكنها كانت حقيقة.

– حسنٌ يا حبيبتي، الأمر ليس سيئًا بقدر ما تحسبين. لسنا إلا رجالًا فقراء نحاول تحصيل حقوقنا بطريقتنا.

ألقَت أيتي بذراعيها حول عنق محبوبها: «توقف عن هذا يا جاك! من أجل خاطري، حبًّا لله، توقف عنه! جئتُ إلى هنا اليوم لأطلب منك هذا. أوه يا جاك، انظر، إني أتوسّل إليك راكعة على ركبتيّ! أجثو أمامك وأستحلفك أن تتوقف عن هذا الأمر!»

استنهضها واسترضاها ضامًّا رأسها إلى صدره.

– إي، يا حبيبتي، أنتَ لا تُدركين ما تطلبين. كيف يمكنني التوقف عن الأمر، ما يعني أن أحنث بيميني وأهجر رفاقي؟ لو أمكنك فهمُ موقفي ما كنتِ لتطلبي مني هذا البتة، وحتى لو أردتُ ذلك، فكيف يمكنني فعله؟ أتظنين أن المحفل سيترك رجلًا يذهب حرًّا حاملًا كل أسراره؟

– لقد فكرتُ بهذا يا جاك، وخططتُ للأمر برمته. سبق وادّخر والدي بعض المال، وقد ضاق ذرعًا بهذا المكان حيث يعتّم الخوف من هؤلاء الناس حيواتنا. هوَ جاهز للرحيل، سنفر معًا إلى فيلادلفيا أو نيويورك، حيث سنكون في مأمن منهم.

ضحك ماكموردو وقال: «يدُ المحفل طويلة، أتظنين أنها عاجزة عن بلوغ فيلادلفيا أو نيويورك؟»

– حسنٌ، إذًا إلى الغرب، أو إنجلترا، أو ألمانيا، مسقط رأس والدي؛ إلى أي مكان نتخلّص فيه من وادي الذعر هذا!

فكر ماكموردو بكلام الأخ موريس العجوز، وقال: «إي، إنها المرة الثانية التي أسمع فيها هذا الاسم يُطلق على الوادي. يبدو أن الظلام يُخيم ثقيلًا على بعضكم».

– إنه يُعتّم كل لحظة من حيواتنا. أتخال أن تيد بالدوين سامحنا؟ أي فرصةٍ تحسبنا نمتلكها لولا خوفه منك؟ لو ترى النظرة في عينيه الداكنتين الجائعتين حين تقعان عليّ!

– يا إلهي! كُنت لألقنه أخلاقًا أفضل لو أمسكته ينظر إليكِ هكذا! لكن اسمعي يا صغيرتي؛ لا يمكنني مغادرة هذا المكان. لا يمكنني؛ وخُذيها مني كلمة نهائية أخيرة. لكن إن تتركيني أسوّي الأمر بطريقتي، فسأحاول إعداد طريقة للخروج من المسألة خروجًا مشرفًا.

– لا يوجد شرفٌ في مسألة كهذه.

– حسنًا حسنًا، إنها وجهة نظرك فقط، لكن إن تمنحيني ستة أشهر، فسأتدبر الأمر ليكون بوسعي المغادرة دون أن أستحي من النظر في وجوه الآخرين.

ضحكت الفتاة غبطةً وهتفت: «ستة أشهر! أهذا وعد؟»

– حسنًا، ربما تكون سبعة أو ثمانية، لكننا في غضون عامٍ على الأكثر سنترك الوادي خلفنا.

كان ذلك أقصى ما تمكنت أيتي من تحصيله، لكنه كان شيئًا جيدًا، إذ لمع بصيص الضوء البعيد هذا الذي سينير ظلمة المستقبل القريب، وعادت إلى منزل والدها أكثر سعادةً من أي وقت مضى مذ دخل جاك ماكموردو حياتها.

رُبما يُعتقد أنه وبصفته عضوًا، فهم يخبرونه بكل نشاطات الجماعة؛ لكنه سرعان ما اكتشف أن المنظمة كانت أوسع وأعقد من المحفل البسيط، وحتى الرئيس ماكجينتي كان جاهلًا بالكثير من الأمور؛ إذ كان ثمة مسؤول اسمه مفوّض المقاطعة يعيش في هوبسون باتش أسفل الخط، تمتد سلطته على عدة محافل مختلفة كان يحكمها بطريقة مباغتة وتعسفية. لم يرَ ماكموردو الرجل إلا مرة، وكان رجلًا ماكرًا جُرذي المظهر ذا شعر يتخلله بعض الشيب، وله مشية متسللة ونظرة جانبية مشحونة بالضغينة. كان اسمه إيفانز بوت، وحتى الرئيس العظيم لمحفل فيرميسا شعر ناحيته بشيء من المقت والخوف اللذين ربما شعر بهما دانتون الجبار أمام روبيسبيير، الخطير رغم ضآلته.

في يوم من الأيام، تلقى سكانلان، الذي كان زميل ماكموردو في السكن، خطابًا من ماكجينتي مرفق به خطاب من إيفانز بوت، أعلمه أنه سيرسل رجلين بارعين، هما لولر وآندروز، معهما تعليمات ليُنجزا عملًا في الحيّ؛ رغم أنه كان الأفضل من أجل القضية ألا تُعطى أية تفاصيل تخص هدفهما. أكان الرئيس يرغب بأن تُجرى تدابير مناسبة فيما يخص سكنهما وراحتهما ريثما يحين وقت عملهما؟ أضاف ماكجينتي أن بقاء أحد بطريقة سرية في بيت الاتحاد أمر مستحيل، وأنه من ثَمَّ سيكون ممتنًّا إذا ما رتّب ماكموردو وسكانلان لبقاء الغريبين بضعة أيام في بنسيونهما.

وصل الاثنان في المساء نفسه، يحمل كل منهما حقيبته الصغيرة بيده. كان لولر رجلًا مسنًّا، محنكًا وصامتًا ومتحفظًا، متسربلًا في معطف عباءة أسود قديم، منحه إلى جانب قبعته الناعمة من اللباد ولحيته الشعثاء الشهباء مظهرًا عامًّا شبيهًا بالمبشّر الجوّال، ورفيقه كان أقرب إلى الصبيّ بوجهه الصريح البشوش، وسلوكه المرح كسلوكِ شخص خارجٍ لقضاء عطلة وعازم على التمتّع بكل لحظة منها. كان كلا الرجلين متحفظًا تمامًا، وتصرفا بالكامل مثل فردين مثاليين من أفراد المجتمع، باستثناء واحد بسيط هو أنهما كانا قاتلين أثبتا نفسيهما مرارًا على أنهما من أكثر دمى جمعية القتل جدارة. كان لولر قد نفذ بالفعل أربع عشرة مهمة من هذا النوع، وآندروز ثلاثة.

كانا، كما رأى ماكموردو، مستعدين تمامًا للدردشة حول فِعالهما الماضية التي سرداها بفخارٍ نصف مستحٍ لرجال أسدوا للمجتمع خدمة حسنة وإيثارية، وكانا رغم ذلك محترزين فيما يخص العمل المستعجل الذي جاءا لأجله.

فسّر لولر السبب قائلًا: «لقد اختارونا لأني والصبي هذا لا نشرب الخمر، ويمكنهم الاعتماد على أننا لن نقول أكثر مما يجب. عليكما ألا تسيئا فهم الأمر، لكننا نمتثل لأوامر مفوض المقاطعة».

قال سكانلان، رفيق ماكموردو، بينما جلس الأربعة يتناولون العشاء: «بالطبع، كلنا خاضعون للأمر ذاته».

– صحيح تمامًا، يمكننا الحديث حتى الصباح عن قتل تشارلي ويليامز أو سيمون بيرد أو أي مهمة من مهمات الماضي، لكن لا يمكننا قول أي شيء إلى أن يُنجز العمل.

فقال ماكموردو مُطلقًا سُبابًا: «ثمة نصف دزينة هنا لديّ حساب أسويه معهم، لا أظن أن جاك نوكس من آيرونهيل مَن تسعون خلفَه، كُنت لأساعد في سبيل أن أراه ينال ما يستحق».

– لا، ليس هو.

– أو هيرمان شتراوس؟

– ولا هذا أيضًا.

– حسنًا، إن كنتُما لا تُريدان إخبارنا، فليس بوسعنا إجباركما على ذلك؛ لكن سيسرني أن أعرف.

ابتسم لولر وهز رأسه. لم يكُن ليُستدرج.

على الرغم من تحفّظ ضيفيهما، كان سكانلان وماكموردو عازمين على حضور ما سمياه «اللهو»، ولذلك، حينما سمعهما ماكموردو ينسلّان هابطين الدرج أيقظَ سكانلان وهرع الاثنان إلى ملابسهما. بعد أن أنهيا ارتداء ملابسهما، وجدا أن الآخرين قد تسللا إلى الخارج تاركين الباب مفتوحًا خلفهما. لم يكن قد بزغ الفجر بعد، وكان بوسعهما رؤية الرجلين على ضوء الفوانيس يبتعدان قليلًا في الشارع، فتبعاهما بحذر بينما يخطوان بصمت فوق الثلج العميق.

كان البنسيون قريبًا من حافة البلدة، وسرعان ما صاروا عند مفترق الطرق الواقع خلف حدودها، حيث كان ثمة ثلاثة رجال ينتظرون. تحادث لولر وآندروز معهم محادثة وجيزة وحثيثة، ثم سار الجميع معًا، وكان من الواضح أنه عملٌ مهم يتطلب عددًا من الرجال. عند هذه النقطة، وجدوا عددًا من الخطوط التي تقود إلى مناجم مختلفة، واتخذ الغرباء الخط الذي يؤدي إلى كراو هيل، وهي شركة ضخمة ذات إدارة قوية تمكنت بفضل مديرها النشِط الجسور القادم من نيو إنجلند جوزايا إتش دَن، من الحفاظ على بعض النظام والانضباط خلال عهد الترويع المديد.

كان الصُبح قد بدأ ينبلج، وبدأت صفوف العمال تشق طريقها فرادى وجماعات، على طول الطريق المظلم.

تسلل ماكموردو وسكانلان مع البقية، مبقيين أنظارهما على الرجال الذين يتبعانهم. غشاهم ضباب كثيف، وسمعوا من قلبه زعقة صافرةٍ بخارية مفاجئة؛ كانت الإشارة الدالة على أن الأقفاص ستنزل بعد عشر دقائق ويبدأ العمل اليومي.

عندما بلغوا الفسحة أمام قناة المنجم، رأوا مئة عاملٍ منتظرين يضربون الأرض بأرجلهم وينفخون في قبضاتهم من شدة البرد. وقف الدخلاء في مجموعة صغيرة تحت ظل محطة الآلات، وتسلق سكانلان وماكموردو واحدة من كومات الركام فصار المشهد كله ممتدًّا أمامهما. شاهدا مهندس المنجم، وهو رجل أسكتلندي غزير اللحية اسمه مينزيس، يخرج من محطة الآلات وينفخ في صفارته ليجري إنزال الأقفاص.

في نفس اللحظة، تقدم شاب طويل رخو القوام له وجه حليق وجدّيّ بحماس نحو فوهة المنجم، وبينما يتقدم، وقعت عيناه على مجموعة الرجال الهادئين الساكنين تحت محطة الآلات. كان الرجال قد خفضوا قبعاتهم ورفعوا ياقات قمصانهم لحجب

وجوههم، ولوهلة؛ قبض الموت بيده الباردة على قلب المدير، لكنه تخلص منها في الوهلة التالية ولم يرَ إلا القيام بواجبه ناحية الدخلاء المتطفلين.

فسألهم وهو يتقدم نحوهم: «من أنتم؟ ولِمَ تتسكعون هنا؟»

لَم يُجبه أحد؛ لكن الصبي آندروز تقدم خطوة إلى الأمام وأطلق النار على معدته. وقف المئة عامل المنتظرون جامدين عاجزين كما لو كانوا مشلولين. شد المدير يديه على الجرح وانحنى على نفسه، ثم أخذ يترنح مبتعدًا؛ لكن واحدًا آخر من القتلة أطلق النار، وسقط على جانبه يركل ويخمش بين كومة من الآجر. جأر مينزيس، الأسكتلندي، جؤارًا غاضبًا من أثر المشهد وركض ناحية القتلة حاملًا مفتاح ربطٍ حديديّ؛ لكنه قوبل بطلقتين في وجهه أردتاه قتيلًا عند أقدامهم.

اندفع بعض العمال إلى الأمام، وسُمعت صيحة شفقة وغضب غير واضحة؛ لكن اثنين من الدخلاء أفرغا مسدسيهما سداسية الطلقات فوق رؤوس الحشد، فتفرقوا وتبعثروا وهرع بعضهم مذعورين إلى منازلهم في فيرميسا.

حينما تجمع قلة من الشجعان، وعادوا إلى المنجم، كانت عصابة القتَلة قد اختفت في غشاوة الصبح دون أن يتمكن ولا حتى شاهد واحد من تأكيد هوية هؤلاء الرجال الذين ارتكبوا جريمة قتل مزدوجة أمام مئة متفرج.

شق سكانلان وماكموردو طريقهما عائدين؛ وكان سكانلان مغلوبًا على أمره بعض الشيء، فقد كانت تلك أول مهمة قتل يشهدها بأم عينه، وبدَت أقلّ مرَحًا مما جعلوه يعتقد. لاحقتهما الصرخات الفظيعة لزوجة المدير الميت بينما يحثان الخُطى إلى البلدة. كان ماكموردو مستغرقًا في أفكاره وصامتًا؛ لكنه لم يُبدِ تعاطفًا مع ضعف رفيقه.

وراح يردد: «إي، إنها مثل الحرب. ما هي سوى حرب بيننا وبينهم نردّ فيها الضربة في أفضل نقطة تُتاح لنا».

ضجّت غرفة المحفل في بيت الاتحاد بمرحٍ صاخبٍ في تلك الليلة، ولم يكن ذلك بسبب قتل مدير ومهندس منجم كراو هيل فحسب، الأمر الذي من شأنه إخضاع هذه المنظمة إلى جانب أخواتها المُبتزّات والمذعورات في المقاطعة، بل بسبب نصر بعيد حققته يدا المحفل نفسه أيضًا.

تبيّن لاحقًا أنه حينما أرسل مفوّض المقاطعة خمسة رجال بارعين لتنفيذ ضربة في فيرميسا، كان قد طلب في المقابل أن يجري اختيار ثلاثة رجال من فيرميسا وإرسالهم سرًّا في مهمة قتل ويليام هيلز من منجم ستيك رويال، واحد من أشهر مُلاك المناجم وأكثرهم شعبيةً في مقاطعة غليمرتون، وهو رجل يُعتقد أنه لم يكن له عدو واحد في العالم؛ فقد كان ربّ عمل مثاليًّا من جميع النواحي. لكنه كان مصرًّا رغم ذلك على

الفعالية في العمل، ومن ثم دفع مستحقات بعض الموظفين الخاملين السكارى والذين كانوا أعضاءً في الجماعة القديرة وسرّحهم. لم تثنِه تحذيرات الموت التي تدلّت على بابه عن تصميمه، لذا في بلاد حرة ومتحضرة، وجد نفسه محكومًا عليه بالموت.

كان الإعدام قد نُفذ حسب الأصول الآن، وكان تيد بالدوين، الذي نشر أطرافه في كرسي الشرف بجوار الرئيس، قائد الزُّمرة. وشى وجهه المحمرّ وعيناه اللامعتان الداميتان بالأرق وثقل المشروب، إذ أمضى ورفاقه الليلة السابقة بين الجبال، وكانوا مهملي المنظر ومُبقّعين بفعل الطقس، لكن لم يكن الأبطال العائدون من السَّرية الفدائية ليلقوا ترحيبًا أحرّ من رفاقهم.

سُردت الحكاية وأُعيد سردها وسْط تهليلات الغبطة وهتافات الضحك. كانوا قد انتظروا رجلهم المنشود بينما يقود عربته راجعًا إلى المنزل في جنح الليل، مُعَسكرين على قمة تلة مرتفعة، حيث لا بُدّ أن يبطئ حصانه إلى سرعة المشي العادية. كان مرتديًا فراءً ثقيلًا درءًا للبرد إلى درجة عجز معها عن الوصول إلى مسدسه، فأخرجوه وأطلقوا النار عليه عدة مرات. كان يصرخ طلبًا للرحمة، لكن صرخاته رُدّدت لتسلية المحفل.

وهتفوا: «دعونا نسمع مجددًا كيف كان يصرخ صرخاته الحادة».

لم يعرف أحد منهم الرجل؛ لكن كان ثمة دراما خالدة في القتل، وكانوا قد أثبتوا لدمويّي غليمرتون أن رجال فيرميسا أهلٌ لأن يُعتمد عليهم.

وقع حادث واحد غير مُتوقع؛ إذ مر رجل وزوجته يقودان عربتهما صعودًا بهما بينما كانوا لا يزالون يفرغون مسدساتهم في الجثة الهامدة. اقتُرح أن يقتل الاثنان؛ غير أنهما كانا مسالمين ولا علاقة لهما بالمناجم، لذا أُمرا بصرامة أن يتابعا طريقهما وأن يطبقا فميهما وإلا سيحيق بهما ما هو أفظع. وهكذا تُركت الجثة الموشاة بالدماء كتحذير لكل أرباب العمل قساة القلوب، وهرع المنتقمون الثلاثة إلى الجبال حيث تتصل الطبيعة غير المروضة بحافة الأفران وكومات الركام بدقة، وها هُم بخير وعافية، وعملهم منجَزٌ جيدًا، وثناءات رفاقهم ترنّ في آذانهم.

كان يومًا عظيمًا للدمويين، وكان الظلّ قد خيّم أثقل على الوادي، لكن مثلما يختار جنرال حكيم لحظة النصر ليضاعف جهده فيها، حتى لا يكون لدى خصومه الوقت الكافي للتماسك بعد الكارثة، كان الرئيس ماكجينتي ينظر إلى مشهد عملياته بعينيه المفكرتين الخبيثتين، وقد رسم خطةً جديدة لهجمة على أولئك الذين عارضوه. في تلك الليلة نفسها، بعد أن تفرق الصحبُ أنصاف السكارى، دق على ذراع ماكموردو وأخذه جانبًا إلى الغرفة الداخلية حيث حظيا بمقابلتهما الأولى.

وقال: «اسمع يا فتاي، لديّ أخيرًا عمل يليق بك، ولك أن تنفذه بيديك».

فأجاب ماكموردو: «إني فخور لسماع ذلك».

– يمكنك أخذُ رجلين معك، ماندرز وريلي، فقد جرَى تنبيههما بخصوص المهمة. لن تنضبط أمورنا في المنطقة إلى أن يُسوّى أمر تشيستر ويلكوكس، وستنالُ شُكر كل محفل في حقول الفحم إذا ما تمكنتَ من القضاء عليه.

– سأفعل ما بوسعي بكل حال. من هو؟ وأين أجده؟

أخرج ماكجينتي سيجاره الأزليّ نصف الممضوغ ونصف المُدخَّن من زاوية فمه، وراح يرسم مخططًا تقريبيًّا على ورقة مزقها من مفكرته.

– هو رئيس العمال في شركة آيرون دايك، وهو مواطن شرس، ورقيب أول تغطيه الندوب والتشوهات جراء مشاركته في الحرب. حاولنا اغتياله مرتين؛ لكن لم يحالفنا الحظ، وفقد جيم كارناواي حياته إثر ذلك، والآن صار الأمر بيدِك. ذاك هو المنزل، ينتصب وحيدًا عند تقاطع آيرون دايك، مثلما ترى هنا على الخريطة، ولا يوجد أي بيت آخر على مرمى السمع. ليس لصالحك الذهاب في النهار، فهو مسلح ويطلق النار بسرعة ودقة دون أن يسأل أي سؤال. لكن في الليل، حسنًا، هو يعيش هناك مع زوجته وثلاثة أطفال، وبعض من وظفهم لمساعدته. لا يمكنك التفضيل أو الاختيار، إما الجميع أو لا أحد. إذا كان بوسعك وضع كيس من البارود عند بابه الأمامي وقدحه بأناة...

– ماذا فعل الرجل؟

– ألم أخبركَ أنه أردى جيم كارناواي؟

– لمَ أرداه؟

– وما علاقتكَ بهذا بحق السماء؟ كان كارناواي قريبًا من منزله في الليل، وأرداه. هذا يكفيني ويكفيك. عليك تسوية الأمر.

– ثمة هاتان السيدتان والأطفال، أعليهم الموت أيضًا؟

– عليهم ذلك، وإلا كيف نصيبه دون إصابتهم؟

– يبدو ذلك مجحفًا بحقهم؛ فهم لم يرتكبوا إثمًا.

– أي كلام أحمق هذا؟ أتنسحب من الأمر؟

– رويدك أيها المستشار، رويدك! ماذا قلتُ أو فعلتُ قط ليجعلك تفكر بأني قد أتنحى عن أمر رئيس محفلي؟ إن كان خطأً أم صوابًا، القرار قرارك.

– ستفعلها إذًا؟

– بالطبع سأفعلها.

– متى؟

– حسنًا، من الأفضل أن تمنحني ليلة أو اثنتين ليتسنى لي رؤية المنزل ووضع خططي، ثم...

فقال المستشار مصافحًا يده: «جيد جدًّا، سأترك الأمر لك. سيكون يومًا عظيمًا اليوم الذي تأتينا بالأنباء فيه. إنها الضربة الأخيرة التي ستجعل الجميع يركعون أمامنا».

فكر ماكموردو تفكيرًا مديدًا وعميقًا بالمهمة التي وُضعت بين يديه على هذا النحو المفاجئ. كان المنزل المنعزل الذي يعيش فيه تشيستر ويلكوكس يبعد نحو خمسة أميال في وادٍ متاخم، وانطلق في نفس الليلة وحيدًا لكي يحضّر لمحاولته، وشق الصبح قبل عودته من استطلاعه. في اليوم التالي قابل مرؤوسَيه، ماندرز وريلي، وكانا حدَثين طائشين مزهوّين كما لو كانا خارجين لصيد الغزلان.

التقوا بعد ليلتين خارج البلدة، كلهم مسلحون وواحد منهم يحمل جوالًا محشوًّا بالبارود الذي يُستخدم في مقالع الحجارة. كانت الساعة قد تجاوزت الثانية صباحًا حين وصلوا إلى المنزل الوحيد، وكانت الليلة عاصفة، والغيوم المنفضّة تطفو سريعة أمام وجه بدر شبه مكتمل. نُبّهوا مسبقًا أن يحترسوا من الكلاب البوليسية؛ لذا تقدموا بحذر ومسدساتهم الملقَّمة في أيديهم، لكن لم يكن ثمة صوت سوى عويل الريح، ولا حركة سوى تمايل الأغصان فوقهم.

استرق ماكموردو السمع من على باب المنزل الوحيد؛ لكن كل شيء كان ساكنًا بداخله، ثم أسندَ كيس البارود عليه، وشق ثقبًا فيه بسكينه، وثبّت الفتيل. عاد ورفاقه أدراجهم بعد أن اشتعل جيدًا، وكانوا بعيدين مسافة كافية، آمنين ومستكينين في خندقٍ ساترٍ قبل أن ينطلق هدير التشظّي من الانفجار، مع الدويّ المنخفض العميق للمبنى الآخذ بالانهيار، ليخبراهم أن عملهم قد تمّ. لم يُنجَز عمل أفضل في تاريخ حوليات المجتمع الدموية قط.

لكن واأسفًا على عمل منظم جدًّا ومُنفذ بجراءة مثل هذا أن يضيع كله سدى! إذ بعد أن نبّهه مصير مختلف الضحايا، ولمعرفته أن اسمه مسجل بين من تجب إبادتهم، كان تيشستر ويلكوكس قد انتقل وعائلته في اليوم السابق فقط إلى مسكن أكثر أمانًا وأقل شهرة، حيث سيحرسهم خفر من الشرطة. كان منزلًا خاليًا ذاك الذي دُمر بالبارود، والرقيب أول الصارم ما زال يؤدب عمال مناجم آيرون دايك.

قال ماكموردو: «دعوه لي، إنه ضالتي، وسأنال منه حتمًا حتى لو اضطررتُ إلى انتظاره عامًا».

سرى تعبير عن الشكر والثقة في المحفل كله، وانتهى الأمر على ذلك في الوقت الراهن، وحينما أُبلغ بعد بضعة أسابيع أن ويلكوكس قد تعرض لإطلاق نار من كمين، كان سرًّا مكشوفًا أن ماكموردو ما يزال يعمل على مهمته غير المنتهية.

هكذا كانت طرائق مجتمع الأحرار، وهكذا كانت فِعال الدمويين التي نشروا بها حكم الذُّعر على منطقة عظيمة وثرية سكنها حضورهم الفظيع لفترة طويلة. لمَ على هذه الصفحات أن تتدنّس بالمزيد من الجرائم؟ ألم أقُل ما يكفي لأبيّن الرجال وطرائقهم؟

هذه الفِعال مكتوبة في التاريخ، وثمة سجلات حيث يمكن للمرء قراءة تفاصيلها. قد يقرأ المرء فيها عن إطلاق النار على الشرطيَّين هَنت وإيفانز، لأنهما تجرَّآ على اعتقال عضوين من الجماعة، في اعتداء مزدوج خُطط له في محفل فيرميسا ونُفذ بدم بارد ضد رجلين أعزلين عاجزين. قد يقرأ المرء فيها أيضًا عن إطلاق النار على السيدة لاربي حينما كانت تعالج زوجها، الذي كان قد ضُرب حتى شارف على الموت بأوامر الرئيس ماكجينتي. عن قتل الشَّيخ جينكينز، وإتباع أخيه به بعد فترة وجيزة، وبتر أطراف جيمس موردوتش، وتفجير عائلة ستابهاوس، وقتل آل ستيندال كلهم واحدًا تلو الآخر في الشتاء الفظيع ذاته.

خيّمت الظلال قاتمة على وادي الذُّعر، وحلّ الربيع بجداول جارية وأشجار مزهرة. كان ثمة أمل لكل الطبيعة التي طال غلّها في قبضة من حديد؛ لكن لم يكن مِن مكان لأي أمل في حيوات الرجال والنساء الذين عاشوا في نير الإرهاب، ولم تكن الغمامة فوق رؤوسهم أكثر حلكةً من بداية صيف العام 1875 قط.

الفصل السادس

خطر

بلغَ عهد الترويع أوجه، وصار ماكموردو، الذي كان قد عُيّن بالفعل شماسًا داخليًّا، وأمامه فرصة كبيرة ليخلف ماكجينتي بصفة رئيس المحفل يومًا ما، ضروريًّا جدًّا لاستشارات رفاقه ولا يُنفَّذ شيء دون مساعدته ونُصحه، ومع ذلك، كلما زادت شعبيته بين الأحرار، ازدادت النظرات العابسة التي يُقابل بها حينما يمر في شوارع فيرميسا كلاحةً. على الرغم من رُعبهم، كان المواطنون يجرؤون على التعاضد ضد مضطهديهم، وبلغت المحفل شائعات عن تجمعات سرية يجري عقدها في مكتب جريدة ذا هيرالد وعن توزيع أسلحة نارية بين الناس الملتزمين بالقانون. لكن تقارير كهذه لم تعكّر صفو ماكجينتي ورجاله، فقد كانوا كثيري العدد، وصارمين ومسلحين تسلحًا جيدًا، وكان خصومهم متناثرين وضعفاء. كان كل شيء لينتهي، مثلما حدث في الماضي، في كلام جزافٍ وربما اعتقالات عقيمة، هكذا قال ماكجينتي، وماكموردو، وكل ذوي الأرواح الجسورة.

كانت أمسية سبت من شهر مايو، ودائمًا ما كان السبتُ يوم المحفل، وكان ماكموردو خارجًا من منزله ليحضره حين جاء إليه موريس، الأخ الأضعف في الأخوية. كانت جبهته قد غضنها الجزع، ووجهه اللطيف مسلولًا وتعِبًا.

– أيمكنني التحدث معك بدون قيد يا سيد ماكموردو؟

– بالطبع.

– لن أنسى أنني فتحتُ لك قلبي مرة، وأنك أبقيت الأمر سرًّا حتى رغم قدوم الرئيس نفسه ليسألك عن الموضوع.

– ماذا عسايَ أن أفعل غير ذلك بعدما وثقت بي؟ لم يكن الأمر أني متفقٌ مع ما قلتَه.

«أعرف هذا جيدًا، لكنك الشخص الذي يمكنني التكلم معه والشعور بالأمان، لدي سرّ هنا»، ووضع يديه على صدره، «وهو يحرق الحياة داخلي. أتمنى لو أنه بلغ أيًّا منكم معي. إذا ما قلتُه، سيجلب القتل بكل تأكيد، وإن لم أقله، فسيجلب نهايتنا جميعًا. ليساعدني الله، لكنني اقتربتُ من فقدان صوابي بسببه!»

نظر ماكموردو إلى الرجل بجدية. كانت أطرافه ترتجف كلها، فصبّ بعض الويسكي في كأس وأعطاه إياها، وقال: «هذا دواء أمثالك، والآن أخبرني به».

جرع موريس كأسه، وسرَت مسحة من اللون في وجهه الباهت، ثم قال: «يمكنني أن أقول لك كل شيء في جملة واحدة: ثمة تحرٍّ في أثرنا».

حدق ماكموردو إليه بذهول وقال: «وَي يا رجل، إنك مجنون. أليس المكان يعجّ بالشرطة والمحققين ولم ينَلنا منهم أذًى قط؟»

– لا لا، إنه ليس رجلًا من المنطقة. كما تقول، نحن نعرفهم، ولا شيء يمكنهم فعله، لكن هل سمعت بمنظمة بينكرتون؟

– لقد سمعتُ الاسم من بعض الناس.

– حسنًا، خذها مني، لا فرصة أمامك حينما يكونون في أثرك، الأمر ليس مسألة حكوميةً تحتمل النجاح أو الفشل، إنما هو عرض عمل جديّ قاتل مصمّم على النتائج، ويبقى مصممًا حتى يحصل عليها مهما كانت الوسيلة. إذا ما كان رجل من رجال بينكرتون في خضم القضية، فمصيرنا الهلاك جميعًا.

– علينا قتله.

– آه، إنها أول فكرة مرت ببالك! إذًا سيُطرح الأمر في المحفل. ألم أقل لك إنها ستنتهي بالقتل؟

– بالطبع، وماذا يعني القتل؟ أليس شائعًا بما يكفي في هذه الأرجاء؟

– بلى، هو كذلك فعلًا؛ لكنني لستُ من يدل على الرجل الذي يتحتم قتله، لم أكن لأرقد مرتاحًا بعدها مرة ثانية. ومع ذلك، هيَ رقابنا نفسها التي قد تكون على المحكّ. ماذا يجب أن أفعل بحق الله؟ وصار يذرع الغرفة جيئة وذهابًا من شدة حيرته.

غير أن كلماته أثرت تأثيرًا عميقًا على ماكموردو، وكان من السهل رؤية أنه شارك الآخر رأيه فيما يتعلق بالخطر والحاجة لمواجهته. قبض على كتف موريس وهزه بجدية.

صاح، وكاد يصرخ الكلمات انفعالًا: «اسمع يا رجل، لن تحقق شيئًا بجلوسك نادبًا مثل زوجةٍ عجوزٍ في جنازة. هاتِ الحقائق، من هو الرجل؟ وأين هو؟ وكيف سمعتَ عنه؟ ولمَ جئتَ إليّ؟»

– جئتُك لأنك الرجل الوحيد الذي سينصحني. أخبرتك أنني كنتُ أمتلك متجرًا في الشرق قبل أن آتي هنا، وقد تركتُ رفاقًا خيّرين هناك. واحد منهم يعمل في خدمة

التلغراف. هاك رسالة أرسلها لي البارحة. الأمر في هذا الجزء من رأس الصفحة، يمكنك قراءته بنفسك.

هذا ما قرأه ماكموردو:

> كيف حال الدمويين في منطقتك؟ إننا نقرأ الكثير عنهم في الصحف، وبيني وبينك؛ أتوقع أن أسمع أخبارًا منك قريبًا. لقد اتخذت خمس شركات كبيرة وشركتا سكك حديدية الأمر بجدية قاتلة. إنهم ناوون عليه، ويمكنك المراهنة على تحقيقهم غايتهم! لقد بدؤوا الأمر وانهمكوا به. تولى بينكرتون العمل تحت إمرتهم، وأفضل رجاله، بيردي إدواردس يقود العملية. على ذلك الشيء أن يتوقف الآن حالًا.

– والآن اقرأ الحاشية.

> بالطبع، ما أقوله لك هو ما عرفته من عملي؛ لذا لا أعرف أكثر من ذلك. إنها شيفرة غريبة تلك التي نتعامل معها في الدار كل يوم ولا يمكننا معرفة معناها.

جلس ماكموردو صامتًا لبعض الوقت، والرسالة بين يديه الخاملتين. انقشعت الغشاوة للحظة، وامتدت الهاوية أمامه هناك.

وسأل: «أيعرف أي شخص آخر بهذا؟»

– لم أخبر أحدًا غيرك.

– لكن هذا الرجل، صديقك، ألديه شخص آخر يُحتمل أن يكتبَ له؟

– حسنًا، يمكني القول إنه يعرف واحدًا أو اثنين غيري.

– من المحفل؟

– محتمل جدًّا.

– سألت لأنه من المحتمل أن يكون قد منح بعض مواصفات هذا الشخص بيردي إدواردس، ثم يمكننا تقفي أثره.

– حسنًا، هذا ممكن. لكنني لا أظن أنه يعرفه. إنه يخبرني بالأمور التي بلغته في سياق عمله وحسب، أنى له أن يعرف رجل بينكرتون هذا؟

وثب ماكموردو وثبة عنيفة.

وهتف: «يا إلهي! لقد نلت منه. كم كنت أحمق لعدم معرفة ذلك. يا الله! لكننا محظوظون! سنسوّي أمره قبل أن يتمكن من أذيتنا. اسمع يا موريس، ألا تترك الأمر بين يديّ؟»

– طبعًا، إن أخذت ثقله عن يدي فقط.

– سأفعل ذلك. يمكنك أن تتنحى جانبًا وتتركني أتصرف، وليس من حاجة إلى ذكر اسمك حتى. سآخذ الأمر كله على عاتقي، كما لو أن هذه الرسالة قد أُرسلت إليّ. أيرضيك هذا؟

– هذا ما كنتُ سأطلبه تمامًا.

– إذًا دع الأمر على هذا النحو وأبق فمك مغلقًا. سأتجه إلى المحفل الآن، وقريبًا سنجعل العجوز بينكرتون آسفًا.

– ألن تقتل هذا الرجل؟

– كلما قلَّت معرفتك، ارتاح ضميرك أكثر يا صديقي موريس، ونمتَ قريرًا أكثر. لا تكثر الأسئلة، ودع هذه الأمور ترتب نفسها. صار الأمر في عهدتي الآن.

هز موريس رأسه بحزن فيما يغادر، وتأوه قائلًا: «أشعر أن يديّ ملطختان بدمائه».

فقال ماكموردو مبتسمًا بتجهّم: «الدفاع عن النفس ليس جريمة بأي حال. إما هو أو نحن، وأحزرُ أن هذا الرجل سيبيدنا كلنا إذا ما تركناه طويلًا في الوادي. وَي يا أخ موريس، علينا انتخابك رئيسًا بعد؛ فقد أنقذتَ المحفل بكل تأكيد».

ومع ذلك، كان واضحًا من تصرفاته أنه قد أخذ هذا التطفّل الجديد على محمل الجد أكثر مما أظهرت كلماته. ربما كان ذلك بسبب ضميره الآثم، وربما بسبب سمعة منظمة بينكرتون، وربما كان بسبب معرفته أن شركات قوية وثرية قد أخذت على عاتقها مهمة تصفية الدمويين؛ لكن أيًّا كان السبب، فقد كان يتصرف مثل رجل يتحضر لأسوأ الاحتمالات. أتلفَ كل ورقة من شأنها تجريمه قبل مغادرته المنزل، وأطلق بعد ذلك تنهيدة رضًى طويلة؛ إذ بدا له أنه في أمان، لكن لا بد أن الخطر بقي يضغط عليه بعض الشيء؛ فقد عرج في طريقه إلى المحفل على بنسيون العجوز شافتر. كان المنزل محرمًا عليه، لكن حينما نقر على النافذة استجابت أيتي. كانت الشيطنة الأيرلندية الراقصة قد اختفت من عيني حبيبها، وقرأت الخطر المحدق في وجهه الجاد.

وزعقت: «ثمة شيء ما حدث! أوه جاك، أنت في خطر!»

– إي، ليس الحال سيئًا جدًّا يا حبيبتي، وربما يكون من الحكمة أن نتحرك قبل أن يصير أسوأ.

- نتحرك؟

- وعدتُكِ مرة أنني سأرحل ذات يوم، وأظن أن هذا اليوم قد حان. وصلَتني أخبار اليوم، أخبار سيئة، وأرى المتاعب قادمة.

- أهي الشرطة؟

- حسنًا، واحد من رجال بينكرتون. لكن بالطبع لن تعرفي من هم رجال بينكرتون يا أكوشلا، وَلا ما قد يعنيه هذا لأمثالي. إنني متورط بشدة في الأمر، وعليّ الخروج منه بسرعة. قلتِ إنك ستأتين معي إن رحلت.

- أوه جاك، سيكون هذا خلاصك!

- أنا رجل مستقيم في بعض الأمور يا أيتي. لم أكن لأؤذي شعرةً من رأسك البهيّ مقابل كل ما يمكن للعالم منحه لي، ولن أُنزلك إنشًا واحدًا عن العرش الذهبي فوق السحب حيث أراك دائمًا. أتثقين بي؟

وضعَت يدها في يده دون أن تقول شيئًا. «حسنٌ إذًا، أنصتي لما أقول، وافعلي ما أوصيك به، فهذه الطريقة الوحيدة أمامنا حقيقةً. ستحدث أمور في هذا الوادي، وأشعر بذلك في عظامي. قد يتعيّن على الكثير منا الاحتراس، وأنا واحد مِمَّن عليهم ذلك بأي حال. إذا ما رحلتُ، ليلًا أو نهارًا، لا بدّ أن تأتي معي!»

- سأتبعكَ يا جاك.

- لا، لا، ستذهبين معي. إذا ما أغلق هذا الوادي أبوابه في وجهي وتعذّرت عليّ العودة أبدًا، كيف لي أن أتركك خلفي وأنا قد أكون مختبئًا من الشرطة دون أي فرصة لإرسال رسالة؟ عليكِ المجيء معي. أعرف امرأة طيبة في المكان الذي جئت منه، وسأتركك معها ريثما نتزوج، فهل ستأتين؟

- أجل يا جاك، سآتي.

- فليباركِكِ الله على ثقتكِ بي! سأكون شيطانًا هاربًا من الجحيم إذا ما استغللت هذه الثقة. والآن دعيني أذكركِ يا أيتي، سيكون الأمر في محضِ كلمة، حينما تبلغكِ تتركين كل شيء وتأتين إلى غرفة الانتظار في المحطة وتبقين هناك حتى آتي إليك.

- ليلًا أم نهارًا، سآتي حال سماعي الكلمة يا جاك.

بعد أن ارتاح باله قليلًا وقد بدأت تحضيراته الخاصة للفرار، تابع ماكموردو طريقه إلى المحفل. كان الأعضاء قد اجتمعوا بالفعل، ولم يتمكن من تجاوز الحارس الخارجي والحارس الداخلي اللذين أحكما إغلاق المكان إلا بالعلامات المضاعفة وكلمات السر.

قوبِل بِدويّ غبطةٍ وترحيب حين دخل، وكانت الغرفة الطويلة مزدحمة، وتمكن عبر غشاوة الدخان من رؤية لبدة الرئيس السوداء المتشابكة، وملامح بالدوين القاسية المعادية، ووجه الأمين هاراواي العقابي، ودزينة رجال غيرهم كانوا من قادة المحفل، وابتهج كثيرًا لوجودهم كلهم كي يستشيرهم بأنبائه.

هتف الرئيس: «نحن حقًّا مسرورون لرؤيتكِ أيها الأخ! ثمة مسألة هنا تحتاج عدل سليمان وحكمته لتسويتها».

فسّر له جاره بعد أن اتخذ مجلسه: «إنهما لاندر وإيغان، كلاهما يطالب بالجائزة المالية التي وضعها المحفل مقابل إطلاق النار على العجوز كرابّ في ستايلستاون، ومن بوسعه تحديد من منهما مطلق الرصاصة؟»

نهض ماكموردو في مكانه ورفع يده. جمّدت تعابير وجهه نظر الحضور، وساد صمت بارد ملؤه الترقّب.

وقال بصوت مَهيب: «سيدي الرئيس، إنني أدعو إلى حالة الطوارئ!»

فقال الرئيس: «الأخ ماكموردو يدعو إلى حالة الطوارئ، وهي دعوة لها الأولويّة وفق قوانين هذا المحفل. والآن يا أخي، إننا منصتون إليك».

أخرج ماكموردو الرسالة من جيبه.

وقال: «سيدي الرئيس، وإخوتي، إنني حامل أخبار سوء هذا اليوم؛ لكنها من الأفضل أن تُعرف ويجري نقاشها، بدلًا من أن تنزل علينا ضربة دون إنذار تهلكنا جميعًا. في حوزتي معلومات مفادها أن أقوى المنظمات وأكثرها ثراءً في الولايات المتحدة قد تعاضدت على إبادتنا، وأنه في هذه اللحظة ذاتها ثمة محقق من رجال بينكرتون، اسمه بيردي إدواردس، على رأس عمله في الوادي يجمع الأدلة التي قد توصل كثيرًا منا إلى حبل المشنقة، وترسل كل رجل في هذه الغرفة إلى زنزانة مجرم. هذا هو الوضع المطروح للنقاش الذي لأجله دعوتُ إلى حالة الطوارئ».

ساد صمت تامّ في الغرفة، فكسره الرئيس.

وسأل: «ما دليلك على هذا يا أخ ماكموردو؟»

قال ماكموردو: «إنه في هذه الرسالة التي وصلت إلى يدي»، وقرأ المقطع بصوتٍ عالٍ. «إن عجزي عن منح تفاصيل إضافية عن الرسالة، أو عن وضعها بين أيديكم، مسألة شرف؛ لكنني أؤكد لكم أن لا شيء آخر فيها من شأنه التأثير على مصالح المحفل. أضع القضية أمامكم كما بلغتني».

قال واحد من الإخوة الأكبر سنًّا: «دعني أقول يا سيدي الرئيس، إنني قد سمعتُ عن بيردي إدواردس، وإنه ذائع الصيت لكونه أفضل الرجال في خدمة بينكرتون».

سأل ماكجينتي: «أيعرفه أيّكم عيانًا؟»

فقال ماكموردو: «بلى، أنا».

سَرت تمتمة ذهول عبر القاعة.

وتابع كلامه بابتسامة غبطة تعلو وجهه: «أظن أنه تحت سيطرتنا تمامًا. إن نتصرف بسرعة وحكمة، فيمكننا اختصار هذا الأمر، وإن تمنحوني ثقتكم ومساعدتكم، فليس لدينا ما نخشاه».

– ماذا لدينا لنخشاه بأي حال؟ ماذا عساه يعرف عن شؤوننا؟

– يمكنك قول هذا إذا كان الجميع صلبًا مثلك أيها المستشار، لكن هذا الرجل تدعمه كل ملايين رؤوس الأموال. أتظن أنه لا يوجد أخ ضعيف بين كل محافلنا يمكن شراؤه؟ سيحصل على كل أسرارنا، وربما حصل عليها بالفعل. ليس أمامنا إلا علاج واحد.

فقال بالدوين: «وهو ألا يغادر الوادي قط».

أومأ ماكموردو برأسه موافقًا وقال: «أحسنت يا أخ بالدوين. لقد اختلفتُ وإياك فيما سبق، لكنك قلت كلمة الحق الليلة».

– أين هو إذًا؟ وكيف نعرفه؟

قال ماكموردو بجدية: «أحيل الأمر إليك سيدي الرئيس، إذ إن هذه النقطة جوهريّة إلى الدرجة التي يُمنع نقاشها على ملأ المحفل. معاذ الله أن أشكّ في أيّ من الحاضرين؛ لكن إن بلغت حتى كلمة ثرثرة واحدة أذني هذا الرجل فستكون تلك نهاية أي فرصة أمامنا للنيل منه. أسأل المحفل أن يختار لجنة موثوقة، حضرتك سيدي الرئيس، إذا كان لي أن أقترح، والأخ بالدوين هنا، وخمسة آخرين. ثم يمكنني التكلم بحرية حول ما أعرفه وما أنصح بفعله».

اعتُمد الاقتراح من فوره، واختيرت اللجنة. إلى جانب الرئيس وبالدوين، كان ثمة الأمين عقابي الوجه هاراواي، والنمر كورماك، القاتل الشاب المتوحش، وكارتر أمين الخزينة، والأخوان ويلابي، وهما رجلان جسوران مستميتان لا يردعهما رادع.

كانت العربدة التي اعتادها الرجال في المحفل وجيزة وخافتة، إذ كان ثمة غمامة تثقل أرواحهم، وبدأ العديد منهم للمرة الأولى برؤية سحابة القانون المنتقم تعوم في تلك السماء الرائقة التي سكنوا تحتها طويلًا. الشرور التي أنزلوها بالآخرين كانت إلى

حد كبير جزءًا من حيواتهم المستقرة، لدرجة أن فكرة القصاص صارت سحيقة حقًّا، لذا بدت أكثر إجفالًا الآن وقد اقتربت منهم بهذا القدر، فتفرقوا مبكرًا تاركين قادتهم لمجلس شوراهم.

قال ماكجينتي بعد أن صاروا وحدهم وجلس الرجال السبعة ساكنين في مجالسهم: «والآن يا ماكموردو!»

فشرح ماكموردو: «لقد قلتُ للتو إني أعرف بيردي إدواردس، ولا حاجة لأن أخبركم أنه لا يستخدم هذا الاسم هنا، فهو رجل باسل، لكنه ليس غبيًّا. إنه يتحرك تحت اسم ستيف ويلسون، وهو نزيل في بنسيون هوبسونز باتش».

– كيف تعرف هذا؟

– لأنني استُدرجت إلى الحديث معه. لم يخطر ببالي شيء آنذاك، ولم أكن لأفكر في الأمر لحظة لولا هذه الرسالة؛ لكنني الآن متأكد أنه رجلنا المنشود. التقيته عند العربات عندما ذهبت إلى آخر الخط يوم الأربعاء، شخص عنيد دون شك. قال إنه مراسل، وصدقته حينها. أراد معرفة كل ما يمكن معرفته عن الدمويين وعما أسماه «الانتهاكات» لصالح جريدة في نيويورك. سألني شتى الأسئلة باغيًا التوصل إلى شيء ما، ولم أخبره بأي شيء من غير ريب، فقال: «سأدفع مقابل المعلومات، وسأدفع بسخاء إذا ما أمكنني الحصول على بعض المادة التي تناسب المحرر المسؤول عني». قلت ما ظننتُ أنه سيرضيه أكثر، وأعطاني ورقة عشرين دولارًا مقابل معلوماتي، وقال: «سأعطيك عشرة أضعاف هذه إذا ما جئتني بكل ما أريده»».

– ماذا قلت له إذًا؟

– أي شيء أمكنني اختلاقه.

– كيف تعرف أنه لم يكن صحفيًّا؟

– سأقول لك؛ لقد خرج من هوبسونز باتش، وخرجتُ أنا، وصادف أنني ذهبتُ إلى دائرة التلغراف، ورأيته يغادرها. قال موظف العمليات بعد أن خرَج: «اسمع، أظن أن علينا مضاعفة الأجر على هذا»، فقلت: أظن ذلك. كان قد ملأ الاستمارة بحَشوٍ لم نفهم منه إلا أنه ربما كان صينيًّا. قال الموظف: «إنه يرسل ورقة من هذا كل يوم» فقلتُ: «بلى، إنها أخبار حصرية لجريدته، ويخاف من أن يستغلها الآخرون». كان هذا ما ظنه موظف العمليات وما اعتقدتُه أنا آنذاك؛ لكنني أفكر على نحو مختلف الآن.

فقال ماكجينتي: «يا إلهي! أظن أنك محق، لكن ما برأيك علينا أن نفعل؟»

اقترح أحدهم: «لمَ لا نذهب حالًا ونسوّي أمره؟»

– بلى، ليس أفضل من الآن.

فقال ماكموردو: «كنتُ لأمضي في الدقيقة التالية لو عرفتُ أين يمكننا إيجاده. هوَ في هوبسونز باتش؛ لكنني لا أعرف المنزل، وإنْ كانت لديّ خطة إذا ما عملتُم بنصيحتي».

– حسنًا، ما هي؟

– سأذهب إلى البنسيون صباح الغد، وأجده عبر موظف الاستقبال. أظن أن بوسعه تحديد مكانه. حسنٌ، ثم سأخبره أنني واحد من الأحرار، وأعرض عليه كل أسرار المحفل مقابل ثمن معين، وكن واثقًا أنه سيقع في الفخ. سأخبره بأن الأوراق في منزلي، وأن قدومه بينما يكون الرفاق في المحيط قد يكلفني حياتي. سيرى أن هذا بدهيّ، وسأخبره بأنه إن أتى في العاشرة ليلًا، سيحصل على كل شيء، وهذا سيستجلبه بالتأكيد.

– ثم؟

– يمكنكم التخطيط للبقية بأنفسكم. بنسيون الأرملة ماكنامارا منعزل، وهي ثابتة كالفولاذ وصمّاء كالدعامة. ليس في المنزل إلا سكانلان وأنا، وإن حصّلتُ وعدًا منه – وسأخبركم إن فعلت– سأجعل سبعتكم تأتون إلي بحلول التاسعة تمامًا. سنجعله يدخل، وإذا ما خرجَ حيًّا قط؛ حسنًا، حينها يمكنه الحديث عن حظ بيردي إدواردس حتى آخر أيامه!

– سيشغَر مكان في منظمة بينكرتون إن لم أكن مخطئًا. دع الأمر على هذا النحو يا ماكموردو. سنكون معك غدًا في التاسعة، وبمجرد أن تغلق الباب خلفه، يمكنك ترك الباقي في عهدتنا.

الفصل السابع

إيقاع بيردي إدواردس في المصيدة

مثلما قال ماكموردو، كان المنزل الذي يقطنه منعزلًا وملائمًا جدًّا للجريمة التي خططوا لها، إذ كان منتصبًا على أقصى حافة البلدة بعيدًا عن الشارع بمسافة مناسبة. في أي حالة أخرى، كان المتآمرون لينادوا على رجلهم المطلوب، كما فعلوا مراتٍ عديدة من قبل، ويفرّغوا مسدساتهم في جسده؛ لكن في هذه الحالة، كان من الضروري جدًّا أن يتبيّنوا مدى معرفته، وكيف أحرزها، وماذا نقل إلى رؤسائه.

كان محتملًا أن الأوان قد فات مسبقًا وأن العمل قد أُنجز، وإذا كان هذا ما حدث بالفعل، فيمكنهم على الأقل الانتقام من الرجل الذي فعل الفعلة. لكنهم كانوا متأملين أن المحقق لم يعرف شيئًا ذا أهمية بعد، فقد تجادلوا في أنه لو كان الأمر عكس ذلك، لما تكبّد عناء كتابة معلومات تافهة كالتي يزعم ماكموردو إعطاءه إياها وإرسالها. على كلٍّ، سيعرفون كل هذا عن لسانه، فحينما يصير تحت سيطرتهم، سيجدون طريقة لاستنطاقه، ولم تكن تلك المرة الأولى التي يتعاملون فيها مع شاهدٍ ممانع.

ذهب ماكموردو إلى هوبسونز باتش كما اتفقوا، وبدا أن الشرطة تبدي اهتمامًا خاصًّا به في ذاك الصباح، والنقيب مارفن –الذي ادعى أنه كان يعرفه من أيام شيكاغو– خاطبه بالفعل بينما كان ينتظر في المحطة، فأدار ماكموردو ظهره ورفض الحديث معه. كان عائدًا من مهمته في تلك الظهيرة، وقابل ماكجينتي في بيت الاتحاد.

وقال: «إنه قادم».

فقال ماكجينتي: «جميل!». كان العملاق يرتدي قميصه قصير الأكمام، وثمة سلاسل وخواتم تلمع فوق صدريته الواسعة وماسة تبرق عبر حافة لحيته المنتفشة. جعلت الخمور والسياسة الرئيس ثريًّا جدًّا ونافذًا جدًّا، وبالتالي بدت لمحة السجن أو المشانق التي بزغت أمامه في الليلة السابقة أكثر فظاعة.

وسأل بقلق: «أتظن أنه يعرف الكثير؟»

هز ماكموردو رأسه بكآبة: «إنه هنا منذ بعض الوقت؛ ستة أسابيع على أقل تقدير، ولا أظن أنه جاء إلى هذه المناطق ليتفرّج على المنظر. إذا كان يعمل بيننا طيلة هذا الوقت حاملًا مال شركات السكك الحديدية في جيبه، فأتوقع أنه قد حصل على نتائج وأرسلها إلى رؤسائه».

فهتف ماكجينتي: «ليس بيننا رجل ضعيف في المحفل، كلهم بصلابة الفولاذ. لكن، يا الله! هناك ذاك الحقير موريس. ماذا سنفعل بشأنه؟ إذا كان لأي رجل أن يخوننا فسيكون هو. يخطر في بالي أن أرسل اثنين من الصبية قبل المساء ليوسعاه ضربًا ونرى ما بوسعهما استخراجه منه».

أجابه ماكموردو: «حسنٌ، لا ضير في ذلك. لن أنكر أني أستحسن موريس وأني سآسف إذا ما رأيته يتأذى. سبق وكلمني مرة أو اثنتين بخصوص شؤون المحفل، ورغم أنه قد لا ينظر إليها مثلما أفعل أنا أو أنت، لكنه لم يبدُ لي قط من صنف الوشاة، ورغم ذلك، لستُ أنا الذي سيقف بينك وبينه».

فقال ماكجينتي شاتمًا: «سأسوّي حساب الشيطان العجوز! إنني أراقبه منذ العام المنصرم».

أجاب ماكموردو: «حسنٌ، أنت أعلم بهذا، لكن أيًّا كان ما تفعله فلا بدّ أن يكون غدًا؛ فعلينا أن نتوارى عن الأنظار ريثما تنتهي قضية بينكرتون. ليس لنا طاقة بأزيز الشرطة، ولا سيما اليوم من بين جميع الأيام».

قال ماكجينتي: «صدقت، وسنعرف من بيردي إدواردس نفسه مصدر معلوماته حتى لو اضطررنا لأن نستخرج قلبه. هل بدا أنه شم رائحة فخّ؟»

ضحك ماكموردو وقال: «أحزرُ أنني جئته من نقطة ضعفه، فهو مستعد لتقفي أثر الدمويين حتى لو ساقه ذلك إلى الجحيم. أخذتُ ماله»، تبسَّم ماكموردو ملء فمه فيما يخرج لفافة من الدولارات، «ولي مثلها زيادة عليها حينما يرى كل أوراقي».

– أي أوراق؟

– حسنًا، لا يوجد أوراق، لكنني أترعته بكلام عن دساتير وكتب قواعد واستمارات عضوية. إنه يتوقع بلوغ خاتمة الأمر قبل مغادرته.

قال ماكجينتي بتجهّم: «صدقًا، إنه محق في ذلك. ألم يسألك لمَ لم تجلب الأوراق له؟»

– كما لو أنني سأحمل هذه الأوراق وأنا رجل مشتبه به، وبعد أن كلمني النقيب مارفن في المحطة هذا الصباح تحديدًا!

قال ماكجينتي: «إي، لقد بلغني ذلك. أظن أن نهاية هذا الأمر في يديك. يمكننا إلقاؤه أسفل بئر تهوية قديمة حينما ننتهي منه؛ لكن أيًّا كانت الطريقة التي سننجز بها العمل، لا يمكننا إغفال أن الرجل يعيش في هوبسونز باتش وأنك ستكون هناك اليوم».

هز ماكموردو كتفيه، وقال: «إذا ما تعاملنا مع الأمر بطريقة سليمة، فلا يمكنهم إثبات القتل البتة. ليس بوسع أحد رؤيته يدخل المنزل بعد أن يخيم الظلام، وسأدبّر ألا يراه أحد يخرج. اسمع الآن أيها المستشار، سأعرض عليك خطتي وأطلب منك تحديد أدوار الآخرين فيها. ستأتون كلكم في الوقت المناسب، جيد جدًّا، ثم يأتي هو في العاشرة. سيطرق ثلاث مرات، وسأفتح له. ثم أتجاوزه وأغلق الباب، ويصير طوع أمرنا بعد ذلك».

– هذا كله سهل وبسيط.

– بلى؛ لكن يجب التفكير مليًّا في الخطوة التالية، فهو شخص صلبٌ ومدجج بالسلاح، ولقد خدعته تمامًا، لكن من المحتمل أن يكون حويطًا، وعلى فرض أنني أدخلته إلى غرفة فيها سبعة رجال حيث كان يتوقع أن يجدني بمفردي، فربما يطلق النار، ويتأذى شخص ما.

– هذا صحيح.

– وسيجلب الصخب كل شرطي لعين في البلدة إلينا.

– أحزر أنك محق.

– إليك كيف سأنفذ الأمر: ستكونون كلكم في الغرفة الكبيرة، تلك التي رأيتَها عندما جئتَ للدردشة معي. سأفتح الباب له، وأقوده إلى الصالون بجوار الباب، وأتركه هناك ريثما أجلب الأوراق. سيمنحني هذا فرصة لأخبركم كيف تبدو الأمور، ثم أعود إليه ببعض الأوراق المزورة. سأثب عليه بينما يقرؤها وأحكم قبضتي على ذراع مسدسه. ستسمعونني أنادي وتسرعون للمجيء، وكلما أسرعتم كان أفضل؛ فهو رجل قويّ مثلما أنا قوي، وربما أجده أقوى مما يمكنني تدبّره، لكنني أرى أن بوسعي تثبيته ريثما تأتون.

قال ماكجينتي: «إنها خطة حسنة. سيكون المحفل مدينًا لك مقابل هذا، وأخمّن أنني حينما أترك المنصب سيكون بوسعي ترشيح الرجل الذي سيخلفني».

قال ماكموردو: «إي أيها المستشار، إنني أكثر من مجند بقليل»؛ لكنّ وجهه أظهر ما كان رأيه بمديح الرجل العظيم.

حينما عاد إلى المنزل، أجرى تحضيراته الخاصة للأمسية المقيتة التي تنتظره. نظف طبنجته من نوع سميث وويسون، وزيتها وحشاها، ثمّ فحص الغرفة التي قُرر احتجاز المحقق فيها. كانت غرفة شاسعة، وفي مركزها طاولة طويلة ومدفأة ضخمة في أحد جانبيها. امتدّت نوافذ على كل من الجوانب الأخرى، ولم يكن عليها أبواب، بل ستائر خفيفة تنزلق عبرها فقط. عاينَ ماكموردو هذه الستائر بانتباه، ولا بدّ أنه انتبه

لكون الغرفة مكشوفة جدًّا بالنسبة لاجتماع سري كهذا، لكن بُعدها عن الشارع يخفف من العواقب، فناقش المسألة أخيرًا مع زميله النزيل. أما سكانلان، ورغم كونه واحدًا من الدمويين، فقد كان رجلًا ضئيلًا مسالمًا وضعيفًا جدًّا حتى يعارض رأي رفاقه، لكنه كان مذعورًا في سره إزاء الفِعال الدموية التي أُجبر على المساعدة فيها عدة مرات. أخبره ماكموردو بإيجاز ما كان ينتوي.

- ولو كنتُ مكانكَ يا مايك سكانلان، كنتُ لآخذ الليلة إجازة وأبقى بعيدًا عن الأمر. ستُرتكب أعمال دمويّة قبل حلول الصباح.

أجاب سكانلان: «طيب، بالفعل يا ماك، ليست الرغبة ما ينقصني، بل الجراءة. كانت رؤية المدير دَن يخرّ صريعًا هناك عند المنجم تفوق طاقتي. لم أُخلق لمثل هذا العمل، كحالك وحال ماكجينتي، وإن كان المحفل لن يسيء الظن بي فسأفعل ما توصيني به تمامًا، وأتركَكم وحدكم طيلة المساء».

جاء الرجال في الوقت المناسب وفق الاتفاق. كانوا في الظاهر مواطنين مُحترمين، أنيقي الملبس طاهري الذَّيل؛ لكنّ خبيرًا بالأوجه كان ليقرأ بعض التوق إلى بيردي إدواردس في تلك الأفواه القاسية والعيون الوحشية. لم يكن في الغرفة رجل لم تتخضب يداه بالدماء أكثر من عشر مرات من قبل، وكانوا قساة القلوب تجاه قتل البشر مثل جزار تجاه الخراف.

تقدمهم الرئيس الهائل في الحجم والإثم، أما الأمين هاراواي، فقد كان رجلًا أعجفَ لاذعًا له عنق طويل ضامر وأطراف مضطربة مرتعشة، رجل يتمتع بإخلاص عفيف حينما يتعلق الأمر بشؤون الأخوية المالية، ولا يتمتع بأدنى اعتبار للعدالة أو الأمانة لأي شيء غير ذلك، وكان أمين الخزينة كارتر رجلًا في منتصف العمر له سحنة جامدة أقرب إلى الغلظة، وبشرة صفراء رقيقة. كان منظّمًا بارعًا، وكان عقله المدبّر مصدر التفاصيل الفعلية لكل اعتداء تقريبًا، أما الأخوان ويلابي فهما رجلا أفعال، شابان طويلان رشيقان ذوا وجهين عازمين، في حين كان رفيقهما، النمر كورماك، شابًّا أسمر ثقيل البنية يخافه حتى رفاقه لضراوة خِلقته. هؤلاء كانوا الرجال الذين اجتمعوا تحت سقف ماكموردو بغية قتل محققِ بينكرتون.

وضع لهم مضيفهم الويسكي على الطاولة، وأسرعوا في شحن أنفسهم للعمل المقبل عليهم. كان بالدوين وكورماك نصف مخمورين سلفًا، وقد استحضر المشروب كل ضراوتهما. وضع كورماك يديه على المدفأة للحظة، وكانت مشتعلة، فالليالي لا تزال باردة.

وقال شاتمًا: «هذا سيفي بالغرض».

فقال بالدوين وقد فهم قصده: «بلى، إذا ما قُيد إليها فسنستخرج الحقيقة منه».

قال ماكموردو: «سنستخلص الحقيقة منه، لا تخش شيئًا». كان لهذا الرجل أعصاب من حديد؛ فرغم حمله ثقل الشأن بكامله، كان سلوكه رصينًا وغير عابئٍ كما هو دائمًا، وقد لاحظ الآخرون هذا وهللوا له.

وقال الرئيس موافقًا: «أنت الرجل المناسب لتدبّر أمره. لن يتنبّه إلى شيء حتى تصير قبضتك حول عنقه. من المؤسف أن نوافذك دون أبواب».

دار ماكموردو على النوافذ واحدةً واحدة، وأحكم إسدال ستائرها: «لا يمكن لأحد التجسس علينا الآن بكل تأكيد. لقد شارفت الساعة العاشرة».

قال الأمين: «ربما لن يأتي. ربما سيستشعر الخطر».

أجاب ماكموردو: «سيأتي، لا تخش شيئًا. إنه متلهّف للمجيء بقدر لهفتكم لرؤيته. أنصتوا!»

جلسوا جميعهم كتماثيل من الشمع، وكؤوس بعضهم واقفة في منتصف الطريق إلى شفاههم، إذ سُمعت ثلاث طرقات قوية على الباب.

«صه!»، رفع ماكموردو يده مُنذرًا. دارت نظرة مبتهجة على محيط الدائرة، وامتدّت الأيدي إلى الأسلحة المخفية.

همَس ماكموردو وهو يغادر الغرفة مغلقًا الباب خلفه بحذر: «لا تصدروا أي صوت، من أجل حيواتكم!»

انتظَر القتلة بآذان مشنّفة، وعدّوا خطوات رفيقهم عبر الممر، ثم سمعوه يفتح الباب الخارجي. سمعوا بعدها خطوة غريبة ذات وقع غير مألوف تتجه إلى الداخل، وبعد لحظة صُفق الباب، ودار المفتاح في القفل. كانت فريستهم في أمان داخل المصيدة. ضحك النمر كورماك ضحكة رهيبة، فكمم الرئيس ماكجينتي فمه بيديه.

وهمس: «اصمت أيها الأحمق! ستكونُ خراب كل ما فعلناه حتى الآن!»

تسرّبت من الغرفة المجاورة تمتمة محادثة، بدَت بلا نهاية، ثم فُتح الباب وظهر ماكموردو واضعًا إصبعه على شفتيه.

تقدم إلى طرف الطاولة ونقّل نظره بينهم. كان قد انتابه تغيُّر خبيث، وصارت سحنته تُذكّر بمَن أمامه عمل عظيم لينجزه، إذ جمُد وجهه جمودًا غرانيتيًّا، وأشرقت عيناه بحماسة ضارية من خلف نظارته. صار قائدًا واضحًا للرجال، وحدقوا إليه

باهتمام شغوف؛ لكنه لم يقل شيئًا. ظلّ ينقّل النظرة الفريدة نفسها من رجل إلى الآخر.

فهتف الرئيس ماكجينتي أخيرًا: «بَشِّر! أهو هنا؟ هل بيردي إدواردس هنا؟»

أجاب ماكموردو بتمهّل: «بلى، بيردي إدواردس هنا. أنا بيردي إدواردس!»

مرّت عشر ثوان بعد خطبته الوجيزة كانت الغرفة فيها كما لو أنها خالية من شدة الصمت. ارتفعت هسهسة إبريق موضوع على المدفأة على نحو حاد وصارٍّ للآذان، والتفتَت سبعة وجوه بيضاء إلى هذا الرجل الذي هيمن عليهم. كانوا جلوسًا دون حراكٍ في رعب مُطبق، ثم وبرجرجة زجاج مفاجئة، اقتحَمت سبطانات بنادقَ متلألئة جميع النوافذ، بينما مُزقت الستائر عن حواملها.

زمجر الرئيس ماكجينتي زمجرة دب جريح من هول المشهد وغاص قاصدًا الباب الموارب، فلاقته طبنجة مصوّبة ومن خلفها العينان الزرقاوان القويتان اللامعتان للنقيب مارفن من شرطة المناجم. ارتدّ الرئيس وسقط على كرسيه.

وقال الرجل الذي عرفوه باسم ماكموردو: «أنت أكثر أمانًا عندك أيها المستشار، وأنت يا بالدوين، إن لم تبعد يدك عن مسدسك فستظلم الجلّاد. أو قسمًا بالله الذي خلقني… أحسنت، هذا سيفي بالغرض. ثمة أربعون رجلًا مسلحًا يطوقون المنزل، ويمكنك استنتاج أيّ فرصة تملكها بنفسك. خذ مسدساتهم يا مارفن!»

لم تكن المقاومة ممكنة تحت تهديد هذه البنادق، فجُرد الرجال من أسلحتهم، وظلوا جلوسًا مكفهرّين بلهاء ومذهولين حول الطاولة.

قال الرجل الذي حصَرَهم: «أودّ أن أقول كلمة قبل فراقنا. أخمّن أننا لن نلتقي مجددًا حتى تروني على منصة المحكمة. سأمنحكم ما تفكرون به حتى ذاك الوقت: أنتم تعرفون جوهري، وأخيرًا صار بوسعي كشف أوراقي؛ أنا بيردي إدواردس من منظمة بينكرتون، وقد اختِرت لأبدد عصابتكم. كانت أمامي لعبة صعبة وخطِرة لألعبها، ولم يعرف أي شخص، ولا حتى أقرب أقربائي وأحب أحبابي، أنني ألعبها. مارفن هنا ورؤسائي فقط مَن كانوا يعرفون، لكن الأمر انتهى الليلة والحمد لله، وإنني الرابح أخيرًا!»

نظرت الوجوه السبعة الشاحبة المتجهمة إليه، ونضحت أعينهم بضغينة لا يمكن تسكينها. كان بوسعه قراءة التهديد القاسي.

«ربما تعتقدون أن اللعبة لم تنتهِ بعد، حسنًا، سأجرب حظي في هذا. بأي حال، بعضكم لن يلعب أي دور إضافي، وثمة ستة عشر غيركم سينامون في السجن هذه الليلة. سأخبركم هذا، حينما عُينت لهذه المهمة لم أصدق قط أن ثمة جماعة مثل

جماعتكم. ظننتُ أنه كلام جرائد، وأنني سأثبت ذلك. أخبَروني بأن الأمر متعلق بالأحرار؛ لذا ذهبت إلى شيكاغو وجرى ضمّي لأصير واحدًا منهم. آنذاك كنتُ متأكدًا أكثر من أي وقت مضى أن الأمر محض كلام جرائد؛ إذ لم أرَ أية أذية في الجماعة، وإنما الكثير من الخير.

ومع ذلك، كان عليّ المضي في مهمتي، وجئتُ إلى وديان الفحم. وقتما وصلتُ إلى هنا أدركت أن الأمر لم يكن رواية رخيصة برغم كل شيء، لذا بقيتُ لأبحث فيه. لم أقتل رجلًا قط في شيكاغو، ولم أضرِب دولارًا في حياتي. تلك التي أعطيتكم إياها كانت صالحة مثل غيرها؛ لكني لم أنفق المال بطريقة أحسن قط. عرفتُ الطريق إلى مرامكم فتظاهرتُ بأني خارج عن القانون، وقد أفلح هذا مثلما ظننت.

وهكذا انضممتُ إلى محفلكم الداخلي، ولعبتُ دوري في مجالسكم. ربما سيقولون إنني سيئ مثلكم، ويمكنهم قول ما يشاؤون ما دُمت سأنال منكم. لكن ما الحقيقة؟ في الليلة التي انضممتُ إليك في ضرب العجوز ستانغر؛ لم يكن بوسعي تحذيره لضيق الوقت؛ لكنني أمسكت يدك يا بالدوين حينما شارفتَ على قتله. إن كنتُ قد اقترحتُ أشياء من قبل، للحفاظ على مكاني بينكم، كانت أشياء أعرف أن بوسعي منعها. لم أتمكن من إنقاذ دَن ومينزيس، لأني لم أكن أعرف كفايةً؛ لكنني سأحرص على أن يُشنق قاتلوهما. حذرتُ تشيستر ويلكوكس، لذا حين فجرتُ منزله كان وأهل بيته مختبئين. ثمة الكثير من الجرائم التي لم أتمكن من منعها؛ لكن إن عدتم بالذاكرة وفكرتم في عدد المرات التي رجع الرجل الذي تنشدونه فيها إلى منزله من طريق آخر، أو كان في البلدة حينما قصدتموه، أو بقي في الداخل وقتما ظننتم أنه سيخرج، سترون أعمالي».

زمجر ماكجينتي من بين أسنانه المطبقة: «أيها الخائن اللعين!»

«بلى يا جون ماكجينتي، يمكنك مناداتي بذلك إذا كان الأمر يخفف من حسرتك. أنت وأمثالك كنتم أعداء الله والإنسان في هذه الأرجاء، وقد تطلب الأمر رجلًا للحَوْل بينك وبين النساء والرجال المساكين الذين أحكمت قبضتك عليهم. كان ثمة طريقة واحدة فقط لإتمام المهمة، وقد أتممتُها. يمكنك دعوتي بالخائن؛ لكني أحزرُ أن ثمة عدة آلاف سيدعونني مخلّصًا ذهب إلى قعر الجحيم لكي ينقذهم. لقد نلتُ ثلاثة أشهر من هذا، ولم أكن لأنال ثلاثة أشهر أخرى مثلها مجددًا حتى لو أطلقوني حرًّا في خزينة واشنطن مقابل ذلك. كان علي البقاء حتى أقبض على كل شيء، على كل رجل وكل سر في يدي تمامًا، وكنتُ لأنتظر بعض الوقت زيادةً لولا معرفتي بأن سري قد بدأ يذيع، فقد جاءت رسالة إلى البلدة كانت لتنبهكم كلكم، لذا كان علي التصرف، وأن أفعل ذلك بسرعة.

ليس لدي ما أقوله لكم إضافة على ذلك، إلا أنه عندما يحين أجلي سأموت ميتةً أيسَر وقتما أفكر بالعمل الذي أنجزته في هذا الوادي. والآن يا مارفن، لن أشغلكَ أكثر من ذلك، خذهم وتمِّم الأمر».

هناك القليل بعد لقَصِّه: كان سكانلان قد أُعطي خطابًا مختومًا ليتركه عند عنوان الآنسة أيتي شافتر، وهي مهمة قبلها بغمزةٍ وابتسامة مُدركٍ. في ساعات الصباح الباكرة، ركبت امرأة جميلة ورجل متلفعٌ قطارًا خاصًّا أرسلته شركة السكك الحديدية، وقام برحلة حثيثة ومستمرة خارج أرض التهلكة. كانت تلك آخر مرة تطأ فيها أيتي أو حبيبها وادي الذعر، وبعد عشرة أيام تزوجا في شيكاغو، وشهد العجوز جيكوب شافتر على زواجهما.

عُقدت محاكمة الدمويّين بعيدًا عن المكان الذي ربما كان أتباعهم ليروّعوا فيه حراس القانون. كافحوا بلا جدوى، وجَرَت أموال المحفل –الأموال التي اعتصروها بالابتزاز من الريف– جريَ الماء في الجداول لمحاولة إنقاذهم، لكن بلا جدوى. لم تتمكن كل حيل المدافعين عنهم من زعزعة تلك الشهادة الباردة، الصافية، غير المضطربة لامرئ عرفَ كل تفاصيل حيواتهم، ومنظمتهم، وجرائمهم، وأخيرًا، بعد سنوات طويلات، تكسّروا وتشتت جمعهم، وانقشعت الغمامة عن الوادي إلى الأبد.

لاقى ماكجينتي حتفه على المشنقة صاغرًا ناحبًا في آخر ساعاته. شاركه ثمانية من كبار أتباعه المصير، ونال نحو خمسين غيرهم درجات متفاوتة من عقوبة السجن، واكتمل عمل بيردي إدواردس.

مع ذلك، ومثلما خمَّن، لم تكن اللعبة قد انتهت بعد. كان ثمة أدوار أخرى لتُلعب، وتلتها أدوار وراء أدوار. واحد منها كان تيد بالدوين، الذي نجا من حبل المشنقة؛ والأخوان ويلابي أيضًا؛ وكذا فعل آخرون من أعتى أرواح العصابة. اختفوا عن وجه العالم لعشر سنوات، ثم جاء اليوم الذي تحرروا فيه مجددًا، يوم كان إدوادرس، الذي يعرف رجاله جيدًا، في غاية اليقين من أنه سيكون نهاية حياته المسالمة. كانوا قد أقسموا بكل ما عدّوه مقدسًا بأنهم سيريقون دمه انتقامًا لرفاقهم، واستماتوا في نضالهم لصَون هذا القسم!

طورِدَ من شيكاغو، بعد محاولتين أوشكتا على النجاح، إلى درجة أنه كان مؤكدًا أن الثالثة ستناله، فمضى من شيكاغو تحت اسم آخر إلى كاليفورنيا، وكان هناك حيث انطفأ نور حياته لفترة حينما توفيَت أيتي أيدواردس. مرة أخرى كاد يُقتل، ومرة أخرى عمل في أُخدود منعزل تحت اسم دوغلاس، حيث تمكن من جمع ثروة مع شريك إنجليزي اسمه باركر. هناك، بلغه على الأقل تحذير بأن الكلاب الدموية كانت في أثره مجددًا، وفرّ في الوقت المناسب تمامًا إلى إنجلترا. ومن هناك جاء جون دوغلاس الذي

تزوج مرة ثانية من شريكة فاضلة، وعاش خمس سنوات رجلًا محترمًا في مقاطعة ساسكس، حياةً انتهت بالأحداث الغريبة التي سمعنا عنها.

الفصل الثامن

خاتمة

مرّت محاكمة الشرطة، وأُحيلت فيها قضية جون دوغلاس إلى محكمة أعلى، وكذا محكمة النقض، والتي بُرّئ فيها باعتباره تصرّفَ دفاعًا عن النفس.

كتَبَ هولمز إلى الزوجة: «أخرجيه من إنجلترا بأي ثمن. ثمة قوى هنا قد تكون أخطر من تلك التي فرّ منها. لن يكون زوجك آمنًا في إنجلترا».

كان قد مرّ شهران، وكنّا قد نسينا القضية إلى حد ما، ثم في ذات صباح جاء خطاب مشفّر أسقطه أحدهم في صندوق بريدنا. قال المكتوب الفريد: «يا إلهي يا سيد هولمز، يا إلهي!». لم يكن ثمة نقش ولا توقيع، وضحكتُ على الرسالة الحوشية؛ لكن هولمز أبدى جدية غير عادية.

عقّب قائلًا: «شيطنة يا واتسون!»، وجلس طويلًا بجبهة مكفهرّة.

في وقتٍ متأخر من الليلة الماضية، جاءت السيدة هدسون، صاحبة عقارنا، برسالة مفادها أن رجلًا محترمًا يرغب في رؤية هولمز، وأن الأمر ذو أهمية قصوى، وفي أعقاب رسولتنا مباشرة جاء سيسيل باركر، صديقنا من القصر ذي الخندق، وكان وجهه شاحبًا ومكفهرًّا.

قال: «لقد تلقيتُ أنباء يا سيد هولمز، أنباء مريعة».

فقال هولمز: «كنت أخشى هذا».

– ألم تصلكَ برقية؟

– وصلني خطاب من شخص وصَلَته.

– إنه المسكين دوغلاس، لقد أخبروني أن اسمه إدواردس؛ لكنه بالنسبة لي سيبقى جاك دوغلاس من أخدود بينيتو. أخبرتك أنهما انطلقا معًا إلى جنوب إفريقيا عبر شركة بالمايرا منذ ثلاثة أسابيع.

– صحيح.

– وصلت السفينة إلى كيب تاون الليلة الماضية، وتلقيت برقية من السيدة دوغلاس هذا الصباح:

فُقد جاك على متن السفينة أثناء إعصار قبالة جزيرة سانت هيلينا. لا أحد يعرف كيف حدث الحادث.

———— إيفي دوغلاس.

قال هولمز بتفكُّر: «ها! هكذا حدث الأمر إذًا، أليس كذلك؟ حسنًا، لا شكّ لديّ أن الأمر أُخرج إخراجًا مسرحيًّا جيدًا».

– أتقصد أنك تعتقد بعدم وجود حادث؟

– ولا حادث في العالم.

– أقُتِل؟

– بالتأكيد!

– وأنا أظن هذا أيضًا. هؤلاء الدمويّون الجهنميّون، وكر المجرمين الانتقامي اللعين هذا...

قال هولمز: «لا لا يا سيدي الطيب، ثمة يد معلّمٍ هنا. ليست قضية بندقية صيدٍ مقصوصة ومسدسات سداسية سخيفة. يمكنك معرفة المعلمِ القديم من ضربة فرشاته، ويمكنني معرفة عمل موريارتي حينما أراه. هذه الجريمة مصدرها لندن، لا أمريكا».

– لكن بأيّ حافز؟

– لأن فاعلها رجل يعجز عن تحمّل الإخفاق، رجل يقوم منصبه الفريد بأكمله على حقيقة أن كل ما يفعله يجب أن ينجح. عقل عظيم ومنظمة ضخمة تحوّلا إلى هدف إبادة رجل واحد. الأمر عبارة عن كسر جوزة باستخدام مطرقة؛ هو إفراط سخيف في استخدام الطاقة، لكن الجوزة كُسّرت تكسيرًا تامًّا رغم ذلك.

– وكيف صار لهذا الرجل علاقة بالموضوع؟

– لا يمكنني أن أقول إلا إن أول كلمة وصلتنا عن المسألة جاءت من أحد أعوانه. كان هؤلاء الأمريكيون محكمي الرأي، إذ أمامهم مهمة إنجليزية لينجزوها، فدخلوا في شراكة، مثلما بوسعِ أي مجرم أجنبي أن يفعل، مع هذا المستشار العظيم في عالم الجريمة، ومنذ تلك اللحظة كان رجلهم المنشود هالكًا. في البداية، سيرضي نفسه باستخدام آلاته بغية إيجاد ضحيتهم، ثم يشير إليهم بالطريقة التي قد تُعالَج فيها المسألة، وأخيرًا، حينما يقرأ في التقارير عن فشل عميله، يتدخل بنفسه بلمسة معلم.

لقد سمعتني أحذر هذا الرجل في قصر بِرلستون من أن الخطر القادم أكبر من السابق، ألم أكن على حق؟

ضرب باركر رأسه بقبضتيه المشدودتين من غضبه العقيم.

- أتقول لي إن علينا الجلوس مكتوفي الأيدي أمام هذا؟ أتقول ألا أحد يمكنه تسوية أمر ملك الشياطين هذا أبدًا؟

فقال هولمز، وبدت عيناه تنظران بعيدًا إلى المستقبل: «لا، لا أقول هذا. لا أقول إن هزيمته مستحيلة، لكن لا بدّ أن تعطيني المزيد من الوقت، أحتاج إلى المزيد من الوقت!»

جلسنا كلنا صامتين لبضعة دقائق، بينما ظلّت تلك العينان الحاسمتان تجتهدان في كشف الحجاب.